فكتور زيفاجو

للأديب الروسي
بوريس باسترناك

تم تحميل الكتاب من المكتبة العربية :
www.TipsClub.com

ترجمة
عبد السلام شحاتة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ - شارع محمد فريد - القاهرة

ف
٢٥

دار القاهرة للطباعة

مقدمة

شاعر له ضمير

هذا شاعر له ضمير

وليس الشعراء من أصحاب الضمائر بالشيء النـــادر فى تواريخ الآداب • ولكن الشـعراء الذين تعرضهم صناعة الشـعر للامتحان العسير فى ضمائرهم الحيـة هم القليلون • لأن الشـاعر قد يقضى فى نظم قصـــائده عمرا طويلا ولا يصطدم بعقبة من عقبات المبـــادىء والعقائد ، وقد يهيم فى أودية الخيال سنوات بعد سنوات وهو لا يحس بالحرج من ناحية ضميره ولا يحس الناس انه خرج من مألوفه ومألوف الشـعراء أجمعين ، فان الناس قد عودوا شـعراءهم وتعودوا منهم ان يقـولوا ما لا يفعلون ويفعلوا ما لا يقولون • وغاية ما عنـــدهم من التعقيب على كلام الشـاعر فى خياله انه شاعر ••• أو أنه شـــاعر مجنون !•• وكفى بذلك عذرا واتهاما فى وقت واحد ، ولكنه اتهـــام يمس العقل فى عرفهم ولا يمس الضمير •

ويتفق أن يصطدم الشاعر فى حياته بعقبة من العقبات التى ترصدها له عقيدته الدينية أو عاداته الوطنيـة ، فلا يحس النـاس من أمرها شـيئا ولا يعلمون بحرجه فى أعمـــاق سريرته أن تحرج واعتصم بما تفرضه عليه العقيدة أو العادة ، وينطوى الأمر بينه وبين وجـدانه فلا يبلغ الى مسامع القراء ولا يدخل فى تاريخ الآداب •

لـكن ما العمل اذا كانت أودية الخيـال الفسيحة خاضعة للبرامج العـامة التى يتقيد بها الشعراء والأدباء ويتعصـبون لها ويأبون على أحد منهم أن يخالفها ؟

وما العمل اذا وقف الشاعر على مفترق الطريق بين برنامج الفن وبين وحى الضمير ؟

هذه العثرة التى لا تقال .

وهذه هى العثرة التىزلت عندها قدمبسترناك مرات لامرة واحدة ولا مرتين ، فابتعد منها ناجيا بضميره ، وماكاد ينجو بالحياة .

منذ ثلاثين سنة وقعت الصدمة الكبرى بين بسترناك وأدباء عصره الذين دعوا أنفسهم باسم « اتحاد البروليتارية الأدبية » ورسموا للأدب فى بلادهم برنامجا لا يجوز لشاعر أو كاتب أو ناقد أو فنان أن يتخطاه .

ونهج بسترناك فى أدبه على غير هذا المنهج ، ووجبت عليه العزلة التى لا ترحم وقلما تسلم . ولكنه سلم منها يومئذ بتوفيق المصادفة التى لا حيلة له فيها ، لأن ولاة الأمر فكروا يومئذ فى توسيع نطاق الكتابة والشعر وتعميمه بين أبناء « البروليتارية وسائر أبناء البلاد ، فصدر القرار بحل الاتحاد وأعلن الزعيم كاجانوفتش فى المؤتمر الشيوعى السابع عشر ، أنأدباء الاتحاد أخطأوا فىاستخدام نفوذهم بدلا من توجيه الأدب الى وجهة التوسع وتمكين الجمهرة الكبرى من التطور على طريق جديد .

ونجا بسترناك فى هذه المرة من أكبر صدماته الباكرة وان لم تكن أولاها ، وانما نجا بعد تفرق جماعة الاتحاد لأن عزلته عنهم لم تكن ظاهرة على انفراد ، اذ كانوا جميعا متفرقين لا تجمعهم هيئة واحدة .

وما هو الا أن عاد الكتاب والشعراء الى التجمع فى ناديهم الجديد باسم غير اسم « اتحاد البروليتارية » حتى ظهرت عزلة بسترناك على صورة واضحة بين أقرانه وزملائه ، وكاد أن يكون نمطا وحده فى الأدب يخالف النمط المتفق عليه فى الأسلوب وفى الخطة الفكرية وفى الموضوع .

ونجا هذه المرة بمصادفة أخرى كان له فيها شىء من التدبير الساذج وشىء من الحيلة اليسيرة .

نجا لأنه قصر منظوماته على المقطوعات الغنائية وقصر كتابته على النوادر الصغيرة التى يتسامحالنقاد فى مدلولها أو فى مطابقتها للبرنامج الدعوة الهادفة على مذهبهم فى الأدب كله ، فاذا أفاض فى الكتابة ترجم من اللغات الأجنبية ، وهو يحسن منها عدة لغات .

ووجه الحيلة فى هذه المرحلة أنه خلط الترجمة من اللغات الأوروبية بالترجمة من اللغة الشركسية لغة الرفيق ستالين ، فشفعت له هذه الحيلة عند الزعيم الأكبر ، وشملته بحجاب من الأمان ، مع العزلة من وراء الستار !

وأصر بسترناك على منهجه فى الأدب : منهج أوجز ما يقال فيه أنه لا يحفل بالدعوة الهادفة التى فرضها المشرفون على الأقلام .

ثم مات ستالين ، ونودى فى ذلك الحين بفك القيود عن الأقلام ، فطمع الشاعر فى اغتنام هذه الفرصة لنشر روايته الكبرى ـ رواية الدكتور زيفاجو ـ وسوغ له هذا الطمع ان صحيفة « العلم » المحافظة نشرت ملحقات تلك الرواية الشعرية ، وهى القصائد العشر المهمة التى أضيفت الى الرواية بعد تمامها وقيل انها من نظم بطلها الطبيب الشاعر الفيلسوف ، فاجترأ بسترناك على السماح بنشر الترجمة الايطالية وتعاقد على ذلك بعد استئناسه بآراء المراقبين وأصحاب الكلمة فى توجيه الحركات الأدبية على البرنامج الجديد .

وتبدلت الخطة بعد نشوبالثورة المجرية ، فصدر الامر الى صاحب مجلة « العلم » بادانة نفسه بقلمه فى صحيفته ، والا تعرض للفصل من اتحاد الأدباء ، ثم أعيدت نسخة الرواية الخطية ـ الروسية ـ الى الشاعر مشفوعة برسالة عنيفة يصف فيها الناشر أبطالها أسوأ الأوصاف ويقول عنهم أنهم مرضى بآفة الأنانية المفرطةيخيل اليهم

انهم وحدهم فى هذا الوجود ، وانهم منقطعون عن العالم الذى يعيشون فيه غافلون عما يجرى فيه من الطوارىء والأحداث .

وهذا يقال عن رواية الدكتور زيفاجو مع أنها قبل كل شىء رواية احداث لا يفوتها طارىء من طوارىء الزمن منذ أوائل القرن العشرين الى أيام الحرب العالمية الثانية ، وقلما تبرز فيها « شخصية » مفروضة على الحوادث مستقلة عن آثارها المتوالية فى خلال هذه السنين الأربعين .

وأطبقت البلوى على الشاعر المسكين بعد اختيار روايته لجائزة نوبل سنة ١٩٥٨ ، فأوشكت ثورة الغضب عليه أن تذهب به ، ولكنه نجا فى رعاية الضجة العالمية التى أثيرت حوله ، وسكنت العاصفة رويدا رويدا بعد اعتذاره من قبول الجائزة ، وكان قد تلقاها بكلمات من الشكر والغبطة تشبه الابتهال .

شاعر ذو ضمير ..

لا شك فى ذلك ، ولا نكران عليه فى هذه الخصلة حتى من أشد الناقدين له والحاملين عليه ، لأنهم لم يتهموه فى ذمته ونيته ، ولكنهم اتهموه فى مزاجه وتفكيره . فهو عندهم مريض معتل مختل منحل ... الى آخر هذه النعوت ، ولكنه ليس بمأجور ولا بصنيعة للأعداء .

نعم هو شاعر ذو ضمير ولا زيادة ... والزيادة هنا أن يرتفع بضميره الى ذروة فوق ذروة الصدق والأمانة الفنية ، وهى ذروة البطولة والشهادة .

فهو من معدن الصدق لا خلاف ... أما أنه من معدن الأبطال والشهداء فدون ذلك شوط بعيد ، بل دون ذلك وتنتهى دعوى الرجل . فانه قد بلغ من صدقه ألا يدعى – ولا يحاول ان يدعى – ما ليس فيه .

لم يزعم بسترناك قط انه خلق من طينة البطولة والشهادة ، وكثيرا ما أعلن شعاره فى حب السلامة فقال : « اذا أسرعت الحوادث فلنفكر على مهل » .. وقال متسائلا : « ماذا يصنع تجويفك الصدرى أمام النصل القاطع ؟ » وكفى الناس اعترافا منه بحقيقته ان يسمى ترجمة حياته باسم « السلوك السليم » .

فالسلامة هى الامنية الاخيرة عند بسترناك ، وهو حريص على الامانة لفنه والصدق لسجيته ، ويلج فى هذا الصدق ولو جره الى الخطر .. فاذا وقع الخطر فهو لا يرجع عن منهجه ولا يسوم قلمه أن يكذب ويركن الى التمويه والتضليل ، وغاية ما يسمح به لنفسه فى ساعة الحرج أن يركن الى أسلم الخطتين : وهى السكوت والاعتذار ، ولا عدول مع هذا الاعتذار عما كان فيه .

وفى الرجل ولا شك طيبة ساذجة ، فانه بعد اعتذاره من قبول جائزة نوبل رجع الى قلمه فى خلوته ليندب حظه وسوء مصيره فى بيئته ، فنظم أبياتا من الشعر يقول فيها عن نفسه أنه حيوان متفرد يحكم عليه بأن يعيش فى قطيع ... وانه يتربص بأجله أن ينقضى عما قريب ، ويوقن من غلبة الحق على الأباطيل .

وتبلغ به السذاجة ان يسمع صحفيا أجنبيا هذه الأبيات ويخطر له ان مثل هذا السر مما يستطيع الصحفى الذى يظفر به ان يكتمه ولو أراد ... وتهب العاصفة كرة أخرى ويعود الشاعر كرتين الى الاعتذار الضعيف : انه لا ينكر الأبيات ولا يتهم الصحفى بالاختلاق .. الا أنه يأسف لأنه أذاع كلاما لم يكتب ليذاع ..

ولولا ايثار الرجل للدعة والسكينة لما غلبه الحنين الى معاهد صباه ، وكره ان يجلو عن موطنه وهو محاط فيه بالنذر والظنون .

ولا حاجة لعالم الأدب بالبطولة او الشهادة من بسترناك . حسبه منه رسالته الانسانية ، وحسب هذه الرسالة منه خصلة الأمانة التى لا مراء فيها ، وحسب هذه الخصلة انها تعطينا بسترناك على حقيقته الصافية من كل شائبة مختلفة أو ملفقة ، وان كانت من شوائب الفنون ..

نفض هذا الشاعر عنه كل ما هو دخيل على طبعه متسلل اليه من اخلاط الفنون فى زمنه .

وبدا له فى مطلع حياته انه من الرمزيين ، ثم بدا له بعد ذلك انه من المستقبلين ، ولم يكن فى حقيقته من هؤلاء ولا هؤلاء . ولكنه كان « بسترناك » المتفرد فى وسط القطيع ، وكفى !

ليس فيه من الرمزية ولا المستقبلية الا مشابهة بعيدة ، تقترب به منهم عند النظرة الأولى لافراطه فى تشبيهات المجاز وتفسيره مدركات الحس بعضها ببعض ، فلا تدرى أيتكلم هو عن المنظور بالعين أم يتكلم عن المسموع بالاذن أم يتكلم عن الروائح والعطور وشمميم الأنوف .

الا أنك تتعود أسلوبه فترجع بهذه التشبيهات الى معانيها الوجدانية من وراء الصور الحسية ، فاذا هو كما قال بعض النقاد « صاحب نفس عال ـ كأنه يلهث من فرط السرعة ـ ولكنه صادر من صدر سليم » .

ومحل الخلاف الأكبر بينه وبين برنامج الدعوة الهادفة انه يدين بهدف الحياة ولا يدين بهدف التاريخ ، فليس من حق هذا التاريخ ان يدفعنا من الماضى الى المستقبل ليضيع علينا الحاضر ، وليست حياة الفرد بالأمر الهين فى عمره القصير . اذ هو الانسان صاحب النفس التى يتعلق بها الخلاص والتقدم وتتعلق بها المعرفة والجهالة ، فلا يحق له أن يغرقها بيديه ليبتلعها الغمار فى لجج الزحام .

وروايته هذه التى بين أيدى قراء العربية ـ دكتور زيفاجو ـ ثمرة ناضجة من ثمرات تلك الحيوية النابضة وثمرات تلك الأمانة البالغة : أصدق صورة للحياة فى المجتمع الروسى خلال جيل كامل ، وأنفع فى الدلالة عليه من مجلدات الكتب ، يتخبط فيها الرحالون المعجلون أو دعاة البرامج والاهداف .

عباس محمود العقاد

مقدمة

نعم ماذا عساها تكون قصة الدكتور زيفاجو ، تلك التى شغلت الناس وحظيت بشهرة صاخبة بعد أن نال مؤلفها بوريس باسترناك جائزة نوبل الأدبية عن عام ١٩٥٨ ؟

أى رواية هذه التى أثارت من الجدل والاهتمام مالم تثره قصة من قبل فى هذه السنوات التى كثرت مشاكلها وتعددت فيها وسائل قضاء أوقات الفراغ على نحو كاد يصرف الناس عن التماس الكتب ومطالعة الآثار الادبية والفنية الى أبعد حد ؟

ان الناس يتساءلون عما اذا كانت الرواية قد نالت الجائزة لأنها تستحقها من حيث هى عمل أدبى ممتاز أو أن أغراضا معينة حكمت لها حكما صادرا عن الهوى والميل فنالت ما لا تستحق اذا قورنت بغيرها من القصص والروايات الروسية أو غير الروسية .

ألا يستدعى ذلك وجود ترجمة أو عرض أمين للقصة حتى يمكن للناس ان يجيبوا بأنفسهم عن هذا السؤال ؟ لعل هذه الترجمة الموجزة تفى بهذا الغرض .

ويذكر سكرتير الأكاديمية المشرفة على منح الجائزة ان بوريس باسترناك استحقها لتفوقه فى ميدان الشعر الحديث ولاحيائه الملاحم الروسية الرائعة من جديد .

فغاية الهيئة غاية أدبية خالصة وأحكامها لا تخرج - فى رأيها - عن الغرض الذى خصصت الجائزة له . غير ان الاطار أو المسرح الذى تجرى عليه أحداث الرواية هو مجتمع بالذات فى فترة من فترات تطوره وانتقاله . وقد احتوت على تفاصيل قد تخرج عن الغاية الأدبية التى منحت من أجلها الجائزة . أضف الى هذا كله ان القصة طويلة تصور مشاهد وآفاق متعددة وشخصيات ثانوية كثيرة ، فهى أشبه بالقطار الذى يمر بالمدن والقرى والحقول والجبال والمناطق الحارة والباردة .

وكان على ازاء ذلك كله ان أعرض للقصة الرئيسية بأحداثها وأشخاصها البارزين ومراعاة الغرض الفنى منها ، وهو الذى منحت من أجله الجائزة . ولم أعرض لأحداث خارجية الا حيث تتبين أهميتها بالنسبة للقصة الأساسية وحدها أو للتدليل على أدب الكاتب وفنه .

أما هؤلاء الذين يهتمون بتفاصيل مثل هذه الدراسات الادبية فلهم ان يرجعوا الى أصولها ليدرسوا ويحللوا ما شاء لهم الوقت والجهد خاصة وان لباسترناك مكانة خاصة فى الشعر، ويتميز بشخصية بارزة بين الشعراء وله أسلوب فريد يذكرنا بريلكه ، و ت. س. اليوت . أضف الى هذا ان ظروف الكتاب تثير قضايا عديدة فى مجال الدراسات الاجتماعية للفن والأدب مثل : مدى تعبير الفن عن الحياة الاجتماعية ومدى صدقه فى هذا التعبير وهل تعتبر الأعمال الأدبية وثائق تاريخية مع صدورها عن الذات الفردية ؟ كما انها تثير قضية

أخرى عن صلة الكاتب بمجتمعه والى أى حد يباح له النقد ؟ وهل نقد الحياة الاجتماعية هو وظيفة أساسية من وظائف الفن ؟

ان كاتب القصة شاعر قبل ان يكون روائيا وقد نشر مع هذه الرواية مجموعة من الأشعار بعنوان (أشعار زيفاجو) . وهو يبلغ الآن أكثر من ثمانية وستين عاما ، عاش منعزلا متغنيا بالوحدة فى أشعاره ، وبقى فى برجه العاجى لا يسهم فى الحياة العامة ، ثم لا يلبث أن يضيق بحياته - شأنه فى ذلك شأن أى فرد يعتزل الجماعة - فيرى أن الحياة ليست سهلة وليست حقل حنطة يمكن للمرء اجتيازه فى غير مشقة ولا عناء . ومع هذا فانه لم يتخل عن مبدأ الفن للفن . ووضع نصب عينيه أن يعمل من أجل الحق والخير والجمال على نحو ما يفعل المفكرون الأكاديميون .

ولم يتخل الكاتب عن نزعته الشاعرية فى هذه الرواية ، وقد حاولت اظهار ماله دلالة واضحة على تصويره الشاعرى ، وذلك تمشيا مع الغرض الأدبى من هذه الترجمة الموجزة للقصة .

وينزع الكاتب سواء فى شعره أو فى نثره الى المذهب الرمزى ، من خلال تصويره الواقعى ، وقد عرض للمذهب الرمزى فى الشعر فى مذكرات الدكتور زيفاجو بطل هذه القصة . فهو يرى ان أشعار الشعراء الرمزيين أمثال بلوك ، وفرهارين ، وهويتمان ، تعبير صادق عن الحياة الحديثة . ولو نظرنا الى الشوارع المزدحمة التى تضيق بالناس ، ولو تنبهنا الى ما فى طرقات المدن الكبرى من ضجيج ، لعرفنا أن الصور تداخل بحيث لم يعد لها ذلك الوضوح الذى يظهر

فى الفنون الكلاسيكية . فتداخل الصور وتعارضها أمر موجود ملموس من واقع الحياة فى المدن الكبرى التى هى مهد الفنون الحديثة. والصور الواضحة على نحو ما يظهر فى الريفيات وأشعار الطبيعة ليست وليدة هذا العصر بل ان زمنها مضى وانقضى ، ومن يتمسك بها فانه لا يعبر عن حقيقة الحياة الراهنة ، بل هو ناقل عن الادباء القدامى. والضجة التى تسمع فى طرق المدن الكبرى هى الاطار الذى يحيط بحياتنا مثلها فى ذلك مثل المقدمة الموسيقية بالنسبة للمسرحيات .

وفى هذه القصة نجد الصور تتداخل وتتعدد المشاهد والشخصيات فهو لا يسرد وانما يصور انطباعات لها دلالة على المواقف والأشخاص وهو لا يفصل الا حيث يريد .

ومع ميله الى مذاهب الفن المعاصر الا أنه فى نظر بعض النقاد لا يكتب بأسلوب المدرسة الحديثة فى القصة وذلك لشغفه بالاطالة والتعقيد ـ والتفاصيل على نحو ما كان يفعل أعلام القصة الطويلة فى الماضى ، ولعل هذا هو معنى احيائه لأدب الملحمة الروسية كما ذكر سكرتير الاكاديمية التى منحت الجائزة .

ويذهب بعض الدارسين الى ان المؤلف رمزى الى أبعد حد ، وان أشخاصه يعبرون عن أفكار ومعان ، فشخصية كوماروفسكى تمثل الفساد الذى ساد فى عهد القياصرة . ويورا أو زيفاجو يظهر كأنه شهيد فى عصره بين قومه . واذا صح هذا الرأى فانى أترك الأمر للقراء ليكشفوا بأنفسهم عما عساه يكون المعنى الذى يرمز اليه كل من الأبطال البارزين . ويبدو أن شخصية لارا ترمز الى أكثر من

معنى فهى أحيانا تمثل الوجود والحياة ، فى نظر زيفاجو ، الذى لم يستطيع أن يشكر الوجود وجها لوجه ويثنى على الحياة نفسها لأن ذلك لم يكن مستطاعا . وهكذا صارت لارا ممثلة للوجود وللحياة فأحبها بكل طاقاته . لكنها ليست هذا فحسب بل هى شخصية تدعو للتأمل ليتبين المرء ما اذا كانت أوصافها هى مما يطلق عادة على البطلة فى قصة من قصص الحب أو انها تدل على معنى آخر .

والبطل يضيق بالحاضر الذى يصفه ويهاجر بخياله الى الماضى الذى تصور فيه المدينة الفاضلة أو جزيرة الأحلام ، حيث يسود السلام وتترقرق الدعة والأمن فى جنبات الحياة . وحيث كان الناس لا يسمعون عن القتل والحروب الا فى المسارح والصحف . فالبطل والبطلة ينزعان الى الماضى بعد أن أنكرا حاضرهما وتقول له (أنا وأنت عاريان من كل ما كان لنا ، فنحن الذكرى الخالدة لتلك العظمة التى لا حد لها ، والتى نشأت على هذه الأرض منذ آلاف السنين الى اليوم ، وعلى ذكرى تلك العظمة المندثرة نعيش ونتحاب ونبكى ونتماسك معا) .

ان منطق العاطفة يدفعهما الى العزلة ، والعزلة عن الجماعة تؤدى الى مأساة تهز المشاعر وتجعل القراء يتألمون ويضيقون بمن عادى البطلين، على نحو ما يكون دائما فى القصص والمآسى ، سواء أكان من عاداهما شخصا أو أشخاصا أو جماعة من الناس .

فالى أى حد يمكن للقارىء ان يجرد القصة عن اطارها ؟ وهل هذا مستطاع على الاطلاق فى أى عمل فنى ؟

حسب القـارىء العربى ان يرى رأيه الذى لا يمليه عليـه أحد . وهو قارىء محايد لا يميل ولا ينحاز ، وحسبى ان أعرض لهـذا الأثر الأدبى عرضا منزها عن أى غاية أخـرى غير الفن والأدب الخالصين .

يناير ١٩٥٩ عبد السلام شحاته

الشخصيات الرئيسية فى القصة

نظرا لتعدد الشخصيات فقد رأينا أن نعرض الأسماء الرئيسية وقد بسطنا هـذه الأسماء حتى لا يجد القارىء صعوبة فى الاهتداء اليها أثناء القراءة .

زيفاجو ويسمى يورا فى الجـزء الاول من الرواية ثم زيفـاجو ثم يورى فى النهاية ، وحين ترى لارا جثته مسجاة فى نهاية القصة تطلق عليه يوروخا للتدليل .

كوليا وهو خال زيفاجو ، أهميتـه فى الرواية تظهر فى تأثيره الفكرى على البطل ، ويمثل دور المفكر وهو متأثر بالتعاليم المسيحية الى أبعد .

دودرف صديق زيفاجو منذ الطفولة ، ويظهر فى الفصول الاولى وفى النهاية .

ميشا جوردون مثله مثل دودرف وان كان أكثر ظهورا فى أحداث الرواية .

اسكندر الكسندوفتش أستاذ فى الجامعـة ، ووالد تونيا زوجة زيفاجو .

أنا ايفانوفا وقد انحـدرت عن أسرة كروجر ، وكان والدها ملكا لصناعة الحـديد فى مدينة يورياتن ، وهى والدة تونيـا وزوجة السكندر .

تونيا صديقة زيفاجو منذ الصبا وتزوجته وأنجبت منه ، وهى فتاة مثقفة هادئة الطبع .

مدام جيشار والدة لارا ، وهى سيدة عصبية المزاج .

لارا أو (لاريسا فيدورفنا) وهى البطلة الحقيقية للقصة ، نقية النفس وان اضطرتها الظروف الى مآزق دون أن تنال من جوهرها الصافى .

كوماروفسكى محامى أريب وشرير داهية ، خدع لارا ،وظل مخادعا حتى النهاية .

انتيبوف عامل بالسكة الحديد ومن أبطال الثورة وهو والد باشا انتيبوف زوج لارا ، وزميل تيفرزن

باشا صديق لارا منذ الطفولة ، شخصيته هادئة ، خجول ثم تطور وتغير وأصبح القائد القاسى وسمى باسم سترلنكوف وهو اسم مستعار . وحدث التغير منذ زواجه بلارا .

ويلاحظ أن هذه مجرد قائمة سريعة بأسماء الاشخاص تسهيلا للقارىء وليست هى بالعرض التحليلى للشخصيات الهامة .

الفصل الأول

قطار الساعة الخامسة السريع

ساروا يرتلون نشيد (الذكرى الخالدة) فلما توقفوا عن الانشاد خيل اليهم كأن وقع أقدامهم وضربات حوافر جيادهم وهمهمة الرياح حولهم ترجع صدى ما كانوا ينشدون .

وأفسح بعض المارة الطريق للجناز وهم يرسمون علامة الصليب وانخرط آخرون فى الموكب سائلين عمن يحتفلون بدفنه . فأجابوا « زيفاجو » وقال أحدهم : « اوه . حسنا . ان الأمر واضح » وأجابه آخر : (انه ليس الرجل بل زوجته) فيرد الأول قائلا : « سيان . لتنعم روحها بالسلام . انه جناز عظيم » .

ومرت المراسم النهائية سريعا وصوت القس يردد « ان الأرض وما عليها لله » .

وراح يرسم علامة الصليب على جسم ماريا نيكولايفنا وهو ينثر على جثمانها التراب . ورتلوا نشيد (أرواح العدل) وبدأت المراسم النهائية فاقفل التابوت ودقت فيه المسامير وأنزلوه الى باطن الأرض . وهنا ارتفع صياح طفل فى العاشرة من عمره راح يتسلق المقبرة .

وحسب الناس أنه يريد أن يلقى رثاء على قبر أمه . ورفع رأسه فبدت الطبيعة أمام عينيه الزائغتين وقد عراها الخريف وجثمت عليها قباب المقابر . ووضع يده على وجهه وراح يبكى فى حرقة . فنفحته

لارا أو (لاريسا فيدورفنا) وهى البطلة الحقيقية للقصة ، نقية النفس وان اضطرتها الظروف الى مآزق دون أن تنال من جوهرها الصافى .

كوماروفسكى محامى أريب وشرير داهية ، خدع لارا ، وظل مخادعا حتى النهاية .

انتيبوف عامل بالسكة الحديد ومن أبطال الثورة وهو والد باشا انتيبوف زوج لارا ، وزميل تيفرزن

باشا صديق لارا منذ الطفولة ، شخصيته هادئة ، خجول ثم تطور وتغير وأصبح القائد القاسى وسمى باسم سترلنكوف وهو اسم مستعار . وحدث التغير منذ زواجه بلارا .

ويلاحظ أن هذه مجرد قائمة سريعة بأسماء الاشخاص تسهيلا للقارىء وليست هى بالعرض التحليلى للشخصيات الهامة .

الفصل الأول

قطار الساعة الخامسة السريع

ساروا يرتلون نشيد (الذكرى الخالدة) فلما توقفوا عن الانشاد خيل اليهم كأن وقع أقدامهم وضربات حوافر جيادهم وهمهمة الرياح حولهم ترجع صدى ما كانوا ينشدون .

وأفسح بعض المارة الطريق للجناز وهم يرسمون علامة الصليب وانخرط آخرون فى الموكب سائلين عمن يحتفلون بدفنه . فأجابوا « زيفاجو » وقال أحدهم : « اوه . حسنا . ان الأمر واضح » وأجابه آخر : (انه ليس الرجل بل زوجته) فيرد الأول قائلا : « سيان . لتنعم روحها بالسلام . انه جناز عظيم » .

ومرت المراسم النهائية سريعا وصوت القس يردد « ان الأرض وما عليها لله » .

وراح يرسم علامة الصليب على جسم ماريا نيكولايفنا وهو ينثر على جثمانها التراب . ورتلوا نشيد (أرواح العدل) وبدأت المراسم النهائية فاقفل التابوت ودقت فيه المسامير وأنزلوه الى باطن الأرض . وهنا ارتفع صياح طفل فى العاشرة من عمره راح يتسلق المقبرة .

وحسب الناس أنه يريد أن يلقى رثاء على قبر أمه . ورفع رأسه فبدت الطبيعة أمام عينيه الزائغتين وقد عراها الخريف وجثمت عليها قباب المقابر . ووضع يده على وجهه وراح يبكى فى حرقة . فنفحته

الريح ببعض قطرات المطر . وصعد اليه رجل يرتدى ملابس سود ذات أكمام ضيقة ، ذلك هو كوليا خاله الذى كان قسا من قبل ثم رغب فى اعتزال العمل . وصحب الرجل الصبى خارج فناء المقبرة .

- ٢ -

وسمح الدير للخال كوليا وابن اخته المتوفاة أن يقضيا الليل فى احدى غرفه ، للصلة القديمة التى تربطه برجال الدير . وكان ذلك ليلة عيد العذراء . ومن المفروض انهما سيرحلان فى اليوم التالى الى احدى المدن الواقعة على نهر الفولجا حيث يعمل الخال كوليا فى خدمة ناشر اقليمى يصدر جريدة تقدمية ناجحة . وكانا قد ابتاعا تذكرتيهما وحزما متاعهما الذى تكدس فى الحجرة الضيقة . وحملت الرياح اليهما أصوات قطار غير بعيد .

كانت ليلة قارسة البرد . وكانت نافذتا الحجرة تطلان على سطح الأرض حيث تمتد أمام الناظر حديقة مهملة زرعت بالخضر اللازمة للطعام . كما ظهر جانب من الطريق الرئيسى، وذلك الجزء من المقبرة حيث دفنت (ماريانيكولايفنا) منذ ساعات معدودات . ولم يكن بالحديقة الا بعض أشجار الأكاسيا التى التفت حول الجدران ، وبعض ثمرات الكرنب التى تجعدت أوراقها وضرب لونها الى الزرقة بفعل البرد . وكلما هبت الريح راحت تهتز أشجار الأكاسيا كما لو كانت تنحنى لتفسح لها الطريق .

وأيقظت فتانا (يورا) طرقات على النافذة . وفجأة

توهجت الحجرة الضيقة بنور أبيض غامض فذهب الصبى الى النافذة ولم يكن يرتدى سوى قميصه . ولصق وجهه على زجاجها البارد .

لم يكن بالخارج غير جو أغبر مشبع بالجليد ، وكأن العاصفة الثلجية وقد رأت يورا ، أرادت ان تمتحن قدرتها على بث الرعب فى نفسه فزأرت وعوت . فانتفض فزعا مذعورا . ونظر فاذا الثلوج متراكمة تحجب وجه السماء ولا منفذ فيها . وهكذا سيطرت العاصفة على الكون بلا منافس فراحت تتحكم فيه وتهيل عليه جليدها .

لما هبط يورا بعيدا عن النافذة كان أول ما تبادر الى ذهنه هو أن يرتدى ملابسه ويهرع الى الخارج ليقوم بعمل ما . نعم كان يخشى أن تدفن الثلوج ثمار الكرنب دون أن يحاول أحد الكشف عنها ، وبذلك تزداد كثافة الطبقة التى تفصل أمه عن سطح الأرض فتزداد بذلك بعدا عنه .

ولم يكن له الا أن يبكى ويذرف الدموع مرة أخرى . فاستيقظ خاله وحدثه عن المسيح ليهدىء من روعه . وراحا يرتديان ملابسهما فقد لاحت تباشير الصباح .

- ٣ -

لم يكن يدرى يورا وهو يعيش مع أمه أن أباه قد هجرهما ليقضى أوقاته على هواه فى سيبريا أو خارج روسيا ، وانه بدد الملايين التى كانت ملكا للأسرة أدراج الرياح . وكان يقال له اذ ذاك ان والده قد سافر الى بتسبرج أو انه ينهى أعمالا تتعلق بثروته الفاحشة .

كان من عادة أمه أن ترتحل خارج روسيا الى جنوبى فرنسا وشمال ايطاليا للعلاج . وكان يصحبها فى هذه الرحلات ، واعتاد أن يعهد به الى الغرباء . فلم يكن هذا التغيير بالأمر الجديد الذى لم يألفه ، وفى مثل تلك الحياة القلقة التى تكتنفها الأسرار لم يكن ليدهشه غياب والده .

وانه ليذكر بواكير طفولته لما كان يسمع اسم العائلة يطلق على كثير من السلع والمنتجات فيقال : مصانع زيفاجو . مصرف زيفاجو . مبانى زيفاجو . مشابك ربطات العنق يطلق عليها نفس الاسم ، كما يطلق على نوع من الفطائر .. وكان يكفى أن تقول زيفاجو لأحد سائقى عربات المسافرين الواطئة العجلات التى كانت تجرى فى موسكو حتى يحملك فى عربته الى مملكة مسحورة كأنها فى أقاصى الدنيا ، حيث يبدو المنتزه هادئا كالريف تبعثر الديكة الثليج المزبد فى طريقها الى أعشاشها فوق أشجار الشربين وترسل أصواتا كقرقعة الخشب . والكلاب الأصيلة تهرع عبر الطريق بعيدا عن المصابيح حيث يجرى البناء . وتشرق الأضواء وسط الضباب .

ولكن ما لبث كل هذا الثراء آن اندثر ، وباتوا فقراء .

- ٤ -

وفى يوم من صيف عام ١٩٠٣ ، أى بعد موت أم يورا بعامين كان فتانا يركب ، عبر الحقول ، عربة مكشوفة يجرها زوج من الخيل ، يصحبه خاله ورجل آخر قاصدين (ايفان ايفانوفتش) ، وهو

معلم له كثير من المؤلفات الشعبية ، ويقطن فى ضيعة يمتلكها (كولوجرفوف) ، أحد رجال صناعة الحرير وكان مهتما كلفا بالفنون الجميلة والآداب .

كان محصول الحقول وفيرا ، وان كانت مقفرة ليس بها انسان . والطيور تحوم فوقها فى حلقات وأعواد القمح الناضج تنتصب فى سكون وصمت .. والأكداس المتجمعة من الحصاد تبدو بعيدا فى الأفق كأنها رجال يقيسون الأرض .

وسأل كوليا ، الناشر ، (بافل) وهو الذى كان يصحبهما :

- أهذه حقول السادة أو حقول الفلاحين ؟

- هذه للسادة

ثم أشار بطرف سوطه الى ناحية أخرى :

- أما هذه فلنا

وشكا كوليا مما يفعله الفلاحون وحمل عليهم وعلى ما يثيرون من مشاكل . كان الرجلان ذاهبين لزيارة الكاتب ايفان ايفانوفتش ومعهما مسودة كتاب جديد كان قد ألفه فى نصرة العمال ، وقد قصداه راجين ان يعدل بعض ما جاء فيه حتى يمكن نشره .

وسعد يورا بصحبة خاله الذى كان هو الآخر يتأمل فيما حوله من من المشاهد ، وقد صار كوليا كاتبا مشهورا فيما بعد .. ولكن هنا كانت تتجمع أفكاره .

وطابت ليورا مصاحبة خاله الذى يذكره بأمه وبتعشقها للحـــرية والفنون الجميلة .

ومن المنتظـــر ان يلقى يورى نيكى ديدروف الذى كان فتى مثله وان كبره بعامين . ومع ذلك فان نيكى كان ينظر اليه شذرا لتفـوقه عليه فى السن .

- ٥ -

راح كوليا وايفان ايفانوفتش ، الكاتب الثورى يتحدثان ..

كان ايفان يسكن فى حجرتين بمنزل الثرى كولوجرفوف الذى كان فى ذلك الوقت خارج روسيا وقد عهد بابنتيه (ناديا) و (ليبا) الى مربيتهما وعدد من الخدم . وكان ذلك الرجل يعطف على ايفان وعلى أفكاره المتحررة ويشجعها .

وتبادل الكاتب وكوليا الحديث حول العبقرية السائدة اذ ذاك فى الأدب فقال كوليا : ان الأفكار اليوم تصدر عن جماعة لا عن أفراد. ومع ذلك فهناك نخبة ممتازة من الملهمين الذين يكشفون الحقـــائق ولكن عليهم ان يعيشوا مع أولئك الذين لا يرغبون فيها فى مستوى معقول فأيهما تتبع الحقائق أم الحياة ؟ تلك هى خلاصة المشكلة ،وأرى ان المرء لكى يعيش يجب أن يتعلق بما هو غير أخلاقى ، وهذا البعد عن الأخلاق مرادف آخر لكلمة الحياة . واذن فعلينا أن نجمع بين نقيضين فى الحياة ، علينا ان نخلص للفـــكرة التى تقول بانعـــدام الأخلاق ، كما نكون أوفياء للعقيدة التى نؤمن بها !

وهنا سخر منه ايفان الذى انسلخ بنفســـه عن الحديث ، قائلا انه يجب أن يقص عليه كيف هجر عمله كقس . وينطلق كوليا محدثا – ان التاريخ الحقيقى للانسان هو الذى بدأ بالمحبة ، وتبدو هـــذه المحبة فى المسيحية . فمنذ وجد الانسان وهو دائب البحث عن سر الموت . ومن هنا كان العلم وكان الفن ولكن المرء لا يستطيع التقـدم فى طريقه دون المحبة ، ودون الايمان بحرية الانسان والشعور بأن الحياة نوع من التضحية . وهذا كله جديد بالنسبة لتـــاريخ البشرية الطويل .

وعلى النهر اللامع تحت أشعة الشمس شـــاهدوا مركبا يحمل الريفيين ونسوتهم وخيلهم . انهم يعبرون الى الضفة الأخرى للنهر حيث قطار الساعة الخامسة السريع ..

ولاح ، على البعد ، القطار صغيرا . ثم لاحظوا ان القطار توقف فجأة .

لا بد أن حادثا قد وقع !

– ولكن هيا بنا لتناول الشاى .

- ٦ -

هرب الفتى نيكى من صغيرنا يورا لأنه يزدريه .. ومع أن يورا أحب المكان الجميل الذى يذكره بالمناطق الأوربيـــة التى زارها مع أمه ، الا أنه لا يلبث أن يحزن لذكراها . وهنـــا تتراءى له الرؤى

واضغاث الاحلام .. انه وحيد . وها هو يتصورها ويستعيد صورتها فيدعو الله ويسأله الهدى كما يسأله ان يبعث الطمأنينة الى روحها فان وحيدها بخير ، « لتقبلها يا الهى فى الجنات فهى ليست بالمرأة الخاطئة . نعم كنت طيبة يا أماه .. »

ويفيق . ولكنه لم يدع لأبيه ؟

ويهمس الى نفسه بالجواب ـ أما هذا فيمكنه أن ينتظر !

ـ ٧ ـ

ولكن ما الذى حدث فى ذلك القطار ؟

فى الدرجة الثانية من ذلك القطار الذى توقف فجأة بين الحقول، كان يسافر فتى يقال له ميشا جوردن بصحبة أبيه ... وهو فى الحادية عشرة من عمره .. على وجهه سمات ذكاء لماح وله عينان واسعتان سوداوتان . وكان والده جوردون منقولا الى موسكو ، وكانت أمه وأخواته قد سبقن لاعداد المسكن بالمدينة .

وكان ميشا ووالده قد قضيا ثلاثة أيام فى القطار .. فمرا على روسيا بحقولها ومناطق الاستبس فيها ، والمدن والقرى التى لاحت لهما بيضاء تحت الشمس وان كستها السحب الداكنة أحيانا .

ومرا كذلك بطرق مليئة بالعربات التى كانت تقف منتظرة مرور القطار الرهيب ، والخيول هى الاخرى كانت تضطر للتوقف ، فتقلق متلهفة على استئناف المسير .

وكان الركاب يقفزون فى المحطات الكبيرة من القطار هارعين الى المقاصف . والشمس من خلف حديقة المحطة تلقى أشعتها على أقدامهم وعلى عجلات القطار .

اذا حللت سلوك الأفراد منفصلين لرأيتهم يعملون بوحى العقل والارادة . ولكن اذا نظرت اليهم كمجموع ، وجدتهم سعداء أسكرتهم نشوة الحياة التى تجمعهم معا وتحملهم فى طياتها . فالجماعة فى عملها وكفاحها تدفعها منافع الأفراد وشواغلهم . غير ان هذه الدوافع للعمل كان يمكن أن تتخلف عن السير فى ركب الحياة لو لم يكن هناك شعور عام يرقب أعمال الأفراد . وهذا الشعور هو نتيجة وعى سار مرض بوجودهم معا وبأن كلا منهم يعيش فى الآخر .

وهكذا يسعدون بالاعتقاد بأن كل ما يقع ويحدث انما يكون نتيجة اختلاطهم وامتزاجهم على هذه الأرض ، التى يراها البعض موارية لموتاهم كما تراها طائفة أخرى مملكة آلهية ، بينما تطلق عليها طائفة ثالثة اسم التاريخ ، وهناك أيضا من يسمونها الطبيعة .

لكن الفتى ميشا يحس بمرارة اذ شذ عن هذه القاعدة .. فالقلق هو الشعور المسيطر على نفسه . ولم يكن شعورا عابرا تافها على نحو ما يتألم معظم الناس . فهو شعور مسيطر لا فكاك منه . فقد كان من طائفة تحس أنها مضطهدة . وسأل أباه فى ذلك فحاول أن يحول بينه وبين الاسترسال فى القلق والانطواء والشعور بالاضطهاد .

وفيم يختلف الناس ؟ يجب محو الخلافات . انه يحقد على الكبار

الذين أثاروا الحقد بين بنى الانسان . والناس فى الرأى يختلفون ، وها هو بعض منهم من ركاب القطار يرى أن والد ميشا غير محق فيما فعل اذ هرع الى ممر العربة وأوقف القطار حين ألقى ذلك الرجل المخبول بنفسه من باب العربة . مندفعا منه برأسه ، كأنه سباح يلقى بنفسه فى حوض من أحواض السباحة .

ولم يكن أحد يعرف سر تأخر القطار الا أنهم تسامعوا بأن أحد ذوى الشخصيا البارزة قد انتحر ، وأن محاميه الذى كان يرافقه رأى ان يحضر رجال الأمن من أقرب محطة حتى يمكن اثبات الواقعة . وراح مساعد السائق يتسلق عمود التلغراف ليرى القادمين . فان عربة التفتيش لا تلبث أن تأتى بالرجال المسئولين لاجراء تحقيق . وعلى الرغم من كل ذلك كانت رائحة الكولونيا تفوح فى محلات الغسيل ، ورائحة شواء الدجاج تنبعث . ونساء بترسبرج اللواتى صبغن وجوههن كالغجريات يمررن بميشا وكلهن استكبار يزددن هيئته التى تنبىء عن ثقافة وذكاء .

وألقى جسد المنتحر على الحشائش على ضفة النهر وكان الدم الذى انبثق من جبهته قد تجمد وتغير لونه . ولاح كأنه علامة على جبينه أو كقطعة من الطين لصقت به .

رأى الناس الجثة ورثوا لصاحبها ، بينما كان صديق الميت، ورفيقه فى السفر ، وهو محام ثقيل متشامخ قد وقف ، كحيوان عنى صاحبه بتغذيته ، وقميصه غارق فى عرقه . كان جامدا لا يرتسم على وجهه تعبير ما . وكادت حرارة الجو أن تزهق أنفاسه فأخذ يروح بقبعته .

واذا أجاب عن احدى الأسئلة التى توجه اليه فانه يهز كتفيه مرددا - كان سكيرا . ماذا تتوقعون ؟ نتيجة طبيعية لادمان الخمر ..

واهتزت مشاعر ميشا واعتراه حزن عميق .. فقد تردد المنتحر من قبل على مقصورة أبيه وتبادل معهما الحديث . وذكر لهما انه يجد العزاء فيما يلمسه فى جوردون الأب من خلق طيب ودعة وفهم صحيح للأمور . ثم راح يسأله أسئلة قانوية عن التبادل والتسويات والافلاس ودهش للاجابة قائلا : حسنا اننى لن أوافق مطلقا على ذلك ما دام القانون متسامحا الى هذا الحد . ان محامى لا يرى المسائل سهلة هينة على نحو ما تراها أنت .

وكلما أخذت نفس ذلك الرجل البائس تهدأ وتخف حدة أعصابه الثائرة ، كان يهرع اليه محاميه ذاك من الدرجة الأولى ليصحبه الى المطعم حيث يغريه على احتساء الخمر . نعم هو بعينه ذلك المحامى الحليق الأنيق الوقح الثقيل الظل الذى يقف الآن بجوار الجثة وكأن شيئا لم يحدث .

لم يكن من الصعب أن يفطن الانسان الى أن المحامى وجد فى انتحار الرجل المسكين غنيمة له .

وكان المنتحر قد أبدى نحو ميشا عاطفة رقيقة ، لعله كان يعوض شعورا فى نفسه بالحرمان من ابن له . فكان يغرقه بالهدايا والدمى .. نعم كانت له أسرة تركها . كما هجر ولده فيمن هجر ، وكان ذلك الابن صبيا فى مثل سن ميشا .. وشكى الرجل لوالد

ميشا أنه لم ينم منذ شهور . وانه يرى أشباحا تطارده . وفى المرة الأخيرة جاء ليقول شيئا . لكنه لم يستطع فتركهما مندفعا الى باب العربة متخلصا من الحياة .

وتأمل ميشا آخر هدية من الرجل وهى دمى تمثل حيوانات منطقة الأورال !

كان ذلك المنتحر هو المليونير زيفاجو !

الفصل الثانى

فتاة من عالم آخر

لم تكن الحرب مع اليابان قد وضعت أوزارها بعد ، ومع ذلك فقد حدثت أحداث داخل روسيا جعلت النـــاس ينصرفون عن الاهتمام بشئون تلك الحرب . فقد اجتاحت البلاد موجات ثورية أخذت تشتد حدتها حينا بعد حين .

فى تلك الفترة وفدت مدام جيشار وهى أرملة مهندس بلجيكى ، ومع انها من أصل فرنسى الا أنها تجنست بالجنسية الروسية . وفدت الى موسكو من بلد فى جبـــال الأورال حيث كانت تقيم مع ولدها (روديا) وابنتها (لارا) الذين صحبتهما . وألحقت الفتى بالأكاديمية الحربية كما ألحقت الفتاة باحدى المدارس الثانوية .

وكان زوج مدام جيشـــار قد ترك أمواله فى أسهم وســـندات مالية ترتفع قيمتها ثم تأخذ فى الهبوط . فاشترت بمال زوجهـــا مؤسسة لحياكة الملابس بجوار قوس النصر فى موسكو وهو يقع فى حى متواضع .

فعلت هذا كله بناء على نصيحة محاميها (كوماروفسكى) الذى كان صديقا لزوجها . وهو رجل بارد الطبع يلم بشئون التجارة فى روسيا ألماما تاما . وكانت قد دبرت معه أمر انتقالهم بالمراسلة فاســـتقبلهم وأنزلهم فى غرفة بفندق بشارع المدفعيـــة كان قد حجزها لهم من

قبـــل . ودبر أمر تعليم الولد الذى لم يتـــورع عن ذكـــر النكات الفاضحة فى محضره ، وكذلك دبر أمر تعليم الفتاة التى ينظر اليها نظرات تجعل حمرة الخجل تندفع الى وجهها .

وبقوا فى الفندق حتى انتقلوا الى مسكن مكون من ثلاث غـــرف ملحق بمصنع الملابس الذى امتلكته مدام جيشـــار . وهو فى حـ سعته ليست فوق مستوى الشبهات فضلا عن قذارة مبانيه .

لم يضق الفتى والفتاة بقذارة المسكن والحشرات التى تعبث بالفراش. فقد ورثا عن أمهما شعورا بالخوف من الحياة، اذ كانت تردد على الدوام أمامهما انهم على حافة الافلاس . وهكذا شعرا كأنهما يعيشان فى ملجأ من ملاجىء الأيتام . واختلف بذلك شعورهما عما يخالج ســـائر الأطفال .

وكانت أمهما مثلا حيا للخوف . كانت ممتلئة الجسم شقراء ، فى الخامسة والثلاثين تعتريها أزمات قلبيـــة تعنف تبعا لحماقاتها . ودفعهـــا هذ الاضطراب النفسى الى تغيير عشاقها وتجديدهم على الدوام .

وكان أحد الموسيقيين من نزلاء الفندق متسامحا بطبيعتـــه يخلى غرفته لمدام جيشـــار اذا ما حضر (كوماروفسكى) المحامى لزيارتها اذ كانت تحرجها هذه الزيارات أمام ولديها .

كان مصنع الملابس فى منزل من طابق واحد بجانب مخـــازن القطـــارات ، ومســـاكن الكتبة . وفى احـــد هذه المســـاكن كانت تقطن اوليـــا ، وهى عاملة نشطة لطيفـــة ، ما لبثت لارا ان صادقتها . وسار العمل فى المصنع كما كان فى عهد صاحبه القـــديم

سواء فى ذلك العاملات أو الآلات . ولم تكن مدام جيشار خبـــيرة بشئون الأعمال وتخشى المستقبل على الدوام فيعتريها اليأس القـــاتل فى بعض الأحيان .

أخذ كوماروفسكى يتردد عليها باستمرار ، وكان يسمع همس على ألسنة العاملات وهو يمر بالمصنع : « حضر اللورد » « محطم قلب مدام جيشار » « قاتل المرأة » .

ومما ضاعف كره العاملات له انه كان يصحب معه كلبا من نوع البولدوج فى زياراته تلك فيثير الخوف والازعاج . وحدث مرة ان قطع جورب لارا بأسنانه .

اغتاظت اوليا ودبرت مع لارا مكيدة حملت بها الكلب على ابتـــلاع كرات مصنوعة من الزجاج والمرمر فمات .

نعم كانت لارا تحب أوليا ولكنها تحس شيئا من الغيرة من تلك العاملة الفقيرة التى لم تفسدها نعومة الحيـــاة فاعتمدت على نفسها وأحسنت تصريف أمورها .

- ٢ -

« أماه ! أيكون هو حقا ؟ ما هى الكلمة التى تقال فى مثل هـــذه المواقف ؟ انها كلمات بذيئـــة لن أرددها . لم يحدثنى بمثل تلك النظرات ؟.. انى ابنتها على كل حال »

هكذا تحدثت الى نفسها (لارا) ذات الستة عشر ربيعا . وان بدت للناس فى الثامنة عشرة أو أكثر من ذلك لنضجها المبكر وانوثتهـــا

المتدفقة الفاتنة ، وهى فتاة واضحة التفكير ، طبيعية بسيطة النفس - نشآ ولم يتوفر لهما الوقت الذى يتوفر للأطفال عادة مما يتيح لهؤلاء معرفة الآراء غير الناضجة ، ويشغلون اوقاتهم مفكرين فى مسائل لم يخبروها بعد .

وأيقنت الفتاة وشقيقها انهما لن يستطيعا العيش دون جهد . وهكذا

وهكذا نشأت لارا أنقى المخلوقات على هذه الأرض .

وكانت هى وشقيقتها يحسبان حسابا لأبسط الأشياء . ويعتقدان ان النجاح يرفع القدر فى أعين الناس . ولذا فقد اجتهدت لارا فى دراستها - لا حبا فى العلم - ولكن لكى تحظى عن طريق التفوق بتخفيض مصروفات المدرسة . وأرهقت نفسها فى غسل الصحاف وادارة شئون أمها . وهى تمضى وتتحرك فى رشاقة صامتة ، وان كان كل ما فيها ينطق بالتلاؤم والانسجام : صوتها ، شكلها ، حركاتها ، وعيناها الرماديتان ، وشعرها المتلاءلىء .

وطاب لها فى يوم الأحد ذاك - وكان فى منتصف يوليو - أن تستيقظ متأخرة بعض الوقت فاستلقت على ظهرها ويداها متشابكتان حول رأسها .

المصنع هادىء والنافذة المطلة على الشارع مفتوحة . وسمعت ضجة العربات فى الشارع فقالت لنفسها : (سأنام وقتا أطول) وكأن صخب المدينة ترنيمة تغريها على النوم .

وأحست بلمسات الفراش تلاصق كتفها الايسر وأصبع قدمها

اليمنى ، وتحدد بذلك الفراغ الذى يشغله بدنها ، فوجودها محدد فيما بين الكتف والاصبع .. نعم هى هنا . بروحها وكيانها اللذين اتخذا من البدن مستقرا ، وهذا لم يثبت ولم يسكن وانما اندفع فى شغف بالغ نحو المستقبل .

قالت لنفسها - يجب ان أنام - وراحت تتخيل جانب (طريق الحوذية) حيث تقف العربات فوق الأرض النظيفة تحت المظلة والمصابيح البلورية ، والحياة الفخمة . وتخيلت انه غير بعيد عن ذلك المكان توجد فرقة من الجنود يقومون بعرض بارع ويمشون بخيولهم فيثيرون اعجاب الأطفال من خلف الحواجز .

وغير بعيد عن هذا كله تذكرت لارا شارع (بتروفوكا) حيث قادها كوماروفسكى الى مسكنه .

- يا لها من فكرة يا لارا ! أود أن أريك مسكنى فهو قريب جدا من هنا .

كان ذلك فى يوم دعى فيه المحامى للاحتفال بتسمية طفلة ولدت حديثا لأحد أصدقائه ، وكان المحامى هو نفسه الذى يسكن بشارع الحوذية . أراد أن يصحب الأم الى ذلك الحفل بادىء الامر غير انها اعتذرت وأخبرته ان يصحب لارا قائلة : تنبهنى على الدوام للعناية بلارا والآن جاء دورك أنت لتعنى بها .

يعنى بها حقا ؟! يا للسخرية !

كانت رقصة الفالز ، وكم كانت رقصة مجنونة . تخطو الفتاة وتدور دون أن تفكر فى شىء . وبينما الموسيقى تعزف اذا بكهرباء تسرى

فيها كما تسرى الحياة فى الروايات . حتى اذا توقفت الموسيقى فجأة ترتبك كما لو كانت مياه باردة قد انصبت عليها أو ان أحدا شاهدها عارية . ما كان لها أن تذهب لولا ذلك التفاخر الصبيانى الذى دفعها الى الظهور بمظهر الفتاة المجربة .

لم تتصوره راقصا بارعا كما كان ! أمسك بخصرها ! بمهارة وثقة . ولكنها لن تسمح له بتكرار ذلك ! حقا لم تتصور من قبل أن شفاه الرجال يمكن أن تكون وقحة على هذا النحو اذا ما التصقت طويلا بشفاه النساء !

يجب أن تضع حدا لهذا الهراء وأن تكف عن الحياء وألا تخفض بصرها الى الأرض والا انتهى الأمر الى كارثة ... انه لحد فصل لا هزل فيه . خطوة أخرى ويكون السقوط . يجب أن تقلع عن الرقص الذى هو أساس كل تلك الآثام . وأن تنسى انها رقصت وأن قدمها أصابها التواء .

- ٣ -

حدثت فى الخريف اضطرابات بين طائفة من العمال بموسكو ، وكانوا يعملون على الخط الحديدى الذى يربط العاصمة بمدينة (كازان) وأسهم عمال خط برست كذلك فى الاضراب .

وفى صباح يوم قارس البرد من أيام شهر اكتوبر كان قد حل موعد دفع الأجور . وانتظر العمال أمام قسم الحسابات بالشركة وجاء صبى يحمل أوراق الأجور وبطاقات العمل بعد أن حجزت بالمكتب

فترة لحصم الغرامات ، وراح الصراف يعد النقود وأمامه صف طويل من العمال من مختلف الحرف فكلهم جاء ليقبض أجره .

وهكذا أوقفت القطارات لترسل أدخنتها . أما العامل (انتيبوف) فكان يشكو من قطع الغيار الخاصة بالقضبان فقد كانت من صنف ردىء سريع التلف . فهى لا تفى بالحاجة وتعطل العمل . غير ان أحدا لم يستمع لشكواه . ويبدو أن هناك من يستفيد من سوء الحال وشراء هذه السلع التالفة .

تحدث الى فلوجن المدير الفرعى الذى كان يرتدى سترة مخططة بالفراء وتظهر من تحت فتحتها أناقة الحلة التى لبسها فأجاب : انتيبوف قائلا : ولكن لا أهمية لمتانة القضبان الا فى الخطوط الرئيسية أما خطنا هذا ففرعى ولا أهمية له .. ان قضبانا من الخشب تفى بالحاجة .

ونظر فلوجين الى ساعته ثم الى الطريق حيث قدمت عربة تحمل زوجته . وقاد الحوذى العربة بحيث صارت بجوار الخط الرئيسى . ومنها أطلت امرأة فاتنة من بين الوسائد فقال المدير دون اكتراث : حسنا . يا صاحبى .. سنتحدث فى ذلك مرة أخرى . عندى الآن ما هو أهم من الحديث عن القضبان الحديدية .

- ٤ -

تحدث انتيبوف مع (تيفرزن) زميله فى العمل عن حركة العمال فأبدى الأول قلقه اذ يجب ان يصحب ابنته المصابة بالتيفوس الى المستشفى بعد ان خرج الرجال هاجرين العمل الذى تعطل .

وكان تيفرزن أعزبا ، يعيش مع أمه وأخيه الأصغر المتزوج ، في حي من الأحياء الفقيرة بمنزل له فناء غير مرصوف تحيطه القاذورات ، وله درجات خشبية رائحتها كريهة .

وكان أخوه قد جرح في حرب اليابان ، حيث عولج في مستشفى بعيد ، وقد ذهبت اليه زوجته وابنتاها ليحضرنه الى الدار .. فالمسكن خال الآن الا من تيفرزن وأمه .

وقالت له أمه : لقد اعتقل أنتيوف وابنته مريضة بالمستشفى صريعة التيفوس ، وابنه باشا التلميذ بالمدرسة الثانوية يعيش وحيدا مع عمته الخرساء .. نعم حضروا في المساء وقلبوا المسكن رأسا على عقب واعتقلوا الرجل هذا الصباح . يجب أن نضم باشا الينا ليعيش معنا .

- ٥ -

وجاءهم باشا انتيوف ، الذي اعتقل أبوه كمنظم للاضطراب ، ليعيش مع الأسرة . كان فتى أنيقا مهندما حلو القسمات له شعر أحمر اللون يفترق من نصف رأسه وكان يعنى بتصفيفه عناية فائقة . وهو شديد المرح قوى الملاحظة الى حد يلفت الأنظار بحيث يحمل الآخرين على الضحك بتقليده لكل من رآه .

وحدثت اضطرابات أخرى كثيرة حاول (تيفرزن) أن يبعد أمه عنها ولكن بلا جدوى .. جموع وحشود ونشيد المارسيليز ترددة آلاف الحناجر ، وأناشيد الحرية الأخرى .

وجاءتهم الأنباء بأن جنودا من أبناء القوقاز يعدون العدة لمهاجمتهم وما لبثوا ان سمعوا حوافر الخيل تقترب ضاربة الجليد الذي كان يكسو الأرض ، فحاولوا ان يحتموا بأي مكان ولكن كان الهجوم العارم . وأريق الدم .

وكان الفتى باشا يصحب أم تيفرزن على الدوام ولكنه ضل وأبعدته عنها الحشود المتزاحمة المضطربة . وقال له رجل شج رأسه أنه رآها غير بعيد كادت تطأها أقدام الخيول وكانت تصيح : باشا .. باشا !

لقد فرقهما القتال . فراح الصبي الذي أخرسه الموقف وأعجزه عن الكلام في ذهول وشبه اغماء .

- ٦ -

كان كوليا ، خال يورا قد عاد الى موسكو بعد أن عهد به الى آل جروميكو ، وهم صفوة من القوم لهم ثقافة ممتازة ، وكان للأسرة فتاة تدعى (تونيا) وهي في مثل سن يورا ، كما كان ميشا جوردون زميل يورا في الدراسة يقضي معظم وقته معهم .

ولقي العم كوليا من يحادثه في شئون الحياة الجارية المضطربة ويحمل عليه بعده عن الاسهام في الاصلاح العملي والدعوة له بدلا من الاغراق في التأملات الفلسفية والفنية . وهذا طرف من الحوار - قد أوافقك في هذا ولكن تولستوي يقول انه كلما أغرق الانسان نفسه في الجمال والفن ابتعد عن الخير . أو تظن ان العالم سيجد في الفن خلاصه ؟

ولما عرج على الحديث عن الرمزية والمذهب الرمزى فى الفنون قال كوليا :

- اذا كانت الطبيعة الحيوانية فى الانسان يمكن أن يكبح جماحها بالتهديد أيا كان نوعه ، أو بالسجن أو بالتعذيب اذن لصار مروض الوحوش فى السيرك هو أعظم فى نظر الانسانية من البطل المنقذ الذى يضحى بحياته فى سبيل البشر . وان ما رفع الانسان على مدى العصور ليس هو العنصر الوضيع بل الموسيقى التى تسرى فى أعماق نفسه ، نعم هى القدرة الخارقة للحق المجرد من أى سلاح آخر ، وما فى هذا الحق من جاذبية تدفع الناس لتقليده . ولقد افترض القديسون ان أعظم ما لديهم هو الأوامر والتعاليم الأخلاقية . غير انى أرى ان أعظم شىء هو ان المسيح يتكلم عن مسائل مشتقة من الحياة الجارية وانه يفسر الحق بكلمات واقعية من الحياة التى نواجهها كل يوم . وأرى من هذا كله ان ما يجمع بين البشر الفانين هو فكرة خالدة لا تفنى ، وان كل ما فى الحياة هو رمزى لأن كل ما فيها يرمز الى معنى .

فقال صاحبه : لم أفهم منك شيئا وأرى أن تؤلف فى ذلك كتابا .

فغضب الرجل أعنف الغضب فانه كان قد أثار فكرة من أحب أفكاره اليه أمام رجل محدود الأفق مغلق الذهن لم يتأثر بالحديث ولم يفقه حرفا منه . بعد ذلك عمل كوليا على تفسير تلك الفكرة وتوضيحها فى مذكراته .

- ٧ -

كان منزل كوماروفسكى يقع فى حى كأنه قطعة من بتسبرج ضلت طريقها فى قلب موسكو .

المنازل متناسقة على جانبى الشارع ، والحوانيت مزينة فى ذوق هادىء كما يبدو فى حانوت الكتب ، والمكتبة العامة ومحل صانع الخرائط ، وبائع التبغ ، والمطعم الشهى الطعام أمامه مصباحا غاز انتصبا على أقواس ضخمة . كل هذا ساعد فى تهيئة الجو المناسب للحى .

وكان لسكان المنطقة مكانة فهم من ذوى الأعمال الحرة التى تدر عليهم أرباحا طائلة . هنا كان يقطن المحامى الشهير فى الطابق الثالث . يصله الى مسكنه درج ضخم من خشب البلوط . وبلا ضجة ولا صوت كانت (اما) تدير منزله بكفاية نادرة ، فهى تعرف ذوقه ، وهى ماهرة فى كل شىء بحيث لم تحاول أن تتدخل فى شئونه الخاصة ، وهو من ناحيته كان يكافئها بشهامة (الجنتلمان) على تلك الخدمات .

كما أنه لم يحاول من جانبه أن يستقبل أحدا من معارفه ، رجلا كان أو امرأة ، ممن يرى فى وجودهم ما يعكر صفو هذا الذوق الهادىء .. وهكذا صار البيت بسكونه كالمحراب .. الستائر مسدلة لا تشوبها ذرة من تراب وكأن بها مسرحا تجرى عليه التمثيليات

فى هدوء .. !

وفى صباح أحد أيام الأحد صحب كوما روفسكى كلبة البولدج وراح يسير الهوينى حتى لقى أحد معارفه وهو ممثل مقامر .

وسارا معا يتبادلان النوادر والحكايات دون مبالاة أو اهتمام بشىء فى الوجود .

- ٨ -

كان المطر غزيرا والجو ثقيلا لا يحتمل . والكل نيام بينما جلست لارا الى منضدة الزينة الخاصة بأمها مرتدية ذلك الثوب البنفسجى الفاتح لدرجة يبدو معها أقرب الى البياض ، وعليها قناع استعارته من مصنع أمها ، كأنها ترتدى زيا تنكريا .

وعقدت يديها وراحت تفكر .

لو عرفت أمها لقتلتها وقتلت نفسها .. ؟

كيف وقع هذا ؟ كيف أمكن حدوثه ؟ فات الأوان وكان يجب أن تفكر فى هذا من قبل .

انها الآن ؟ ماذا يسمونها ؟ امرأة ساقطة ؟! كأنها احدى بطلات القصص الفرنسية ، مع أنها سترتدى زى المدرسة وتنطلق الى مدرستها اذا كان الغد وتختلط بهاتيك الفتيات اللواتى لهن براءة الأطفال .. يا رب .. يا رب كيف أمكن أن يحدث ذلك ؟

ربما استطاعت يوما ما أن تقص على اوليا ما حدث وربما صفعتها هذه لما تسمع .

المطر يهطل فى الخارج وثمة دقات على باب الجيران . ولارا جالسة خافضة الرأس وجسمها يرتعد .. انها تبكى !

- ٩ -

أخذ كومارو فسكى يفتح الأدراج ويقفلها ملقيا بملابسه على السجادة والأريكة دون أن يعرف ماذا يريد وقال (لاما) ـ هذا كله سخيف يا اما .. لقد ضقت به .

ان ما يريده من أعماقه هو لارا . ولا سبيل الى لقائها فى ذلك الأحد فراح يذرع الغرفة ذهابا وايابا كحيوان فى قفص .

صارت بالنسبة له سحرا لا نظير له ، سحرا يفوق سحر البدن وقد أوحت له يداها بخاطر علوى ، وظلها على الحائط فى غرفة الفندق كأنه خطوط تمثل البراءة !

وبينما هو يرقب الشارع ويده تدق النافذة ويلمح الخيل تضرب بحوافرها (طريق الحوذية) المرصوف ، راح يهمس (لارا) وهو يقفل عينيه ، وتخيلها وقد أسندت رأسها الى كتفه ورقدت مسدلة الجفون بينما هو يرقبها ساعات طوال . كان شعرها متناثرا فبدا جماله كدخان يسرى الى قلبه وينشقه صدره .

لم تستطع نزهته تلك أن تمحو من نفسه اللهفة فعاد الى بيته متسائلا ـ يا للجحيم .. ما معنى هذا ، أهو ضمير يستيقظ ؟ أو شفقة أو تأنيب ؟ أو كان قلقا عليها ؟ كلا . فهو يعرف انها فى دارها بخير . فلم اذن لا يتحرر ذهنه من صورتها ؟

وظل حائرا ينشد السلوى ويحاول أن يحادث الممثل ويبدو كمن لا يبالى بالحياة .

ومضت الأيام والأسابيع .

- ١٠ -

أى دائرة مسحورة تحيط بها ؟ اذا كان دخول كومارو فسكى فى حياة لارا قد ملأ نفسها تقززا فانهـــا تستطيع أن تفصم عرى الرابطة وتثور عليه . لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة .

لقد أرضى غرورها أن ترى رجلا فى سن أبيها بدأ يضرب شعره الى البياض ، تصفق له المحافل وتشيد باسمه الصحف يهتم بهـــا وينفق عليهـا من ماله ويصحبها الى حفلات المـــوسيقى والمسارح ويصارحها بأنها تبدو علوية الفتنة . أليست هذه كلها مظاهر الثقافة التى يتحدث عنها الناس ؟ ولكنها طالبة وعليها أن تستمتع بمباهج بريئة فى مدرستها . أما هو فيصحبها فى عربة فخمة والى مقصورة بالأوبرا أمام الجمهور ، وهكذا طابت لها هذه المغامرات بما يحوطها من غموض وجرأة .

ولكن هذه المغامرات الصبيانية سرعان ما انقضت مخلفة جـرحا غائرا فى أعمـاق النفس وكانت ، لكفاحهـا فى دراســتها ، ولتصرم الليالى دون أن يغمض لها جفن ، تنفق النهار فى نوم لعلها تستطيع معه أن ترتاح بعد ما بذلت من جهد وما قاست من آلام .

ولعلها تستعيض به عمـــا سكبت من دمـوع وتستريح من ذلك الصداع الذى يعتريها على الدوام .

- ١١ -

انها تبغضه ، فهو الذى أنزل بحياتها اللعنة ، على هـــذا النحو راحت تصوره لنفسها .

هو السجين وهى حارسته مدى الحيـــاة ، ولكن كيف أسرها وحملها على ملازمته ؟ ما الذى جعلها تخضع لرغباته وترضى نزواته حتى صارت تخجل من نفسها ؟ ما الذى أوتيه ليكون مسيطرا عليها ؟ أهى سنه ؟ أو اعتماد أمها على ماله ؟ أهـــذا حقا ما كانت تخشاه وترهبه لأجله ؟ لا وألف مرة لا . ان هذا كله لسخف لا قيمة له .

فهى التى سيطرت عليه . ألا ترى كم هو فى حاجة اليها ؟ اذن فليس هناك ما تخافه ولتطب نفسا ، فهو الجدير بأن يخشى وأن يعتريه اليـــأس والخوف اذا ما هجرته . ولكن هـذا ما لن تفعله أبدا : فهى تحتاج الى خداعه وتضليله ! وهى العملة التى يتعامل بها مع الضعفاء والمحتاجين .

هذا هو الفارق بينهما وهذا هو الذى جعل الحياة تبدو مخيفة . ان الذى يثير مشاعر الانسان ليس هو الرعد والبرق ولكن النظرات الغامضة . ليست الحياة غير نفـاق ، وغموض ! ان الخيط رفيع هين ، ولكن حاول أن تخرج من الشبكة ، فلن تجد الا زيادة ضغطها !

وهكذا فان القوى المسيطر محكوم بدوره بالضعيف المغلوب .

انتابها القلق فسألت نفسها ما الذى يحدث لو تزوجته ؟ واجتاحها يأس قاتل . أو لم يخجل اذ يركع عند قدميهـــا ملتمسا موافقتها ؟ قائلا : (لن نستطيع أن نبقى هكذا . تذكرى ما فعلتـــه بك ؟ أنت تسيرين الى هلاكك . فلنصارح أمك ولنتزوج) . وبكت وعاندت كما لو كانت ستناقشه وتحتج عليه وانها لتعلم ان كلامها لن يجدى . ولم تصغ لما يقول !

واستمر يصحبها فى زيها المقنع الى الغداء فى الغرف الخاصة من ذلك المطعم حيث بدت نظرات السقاة والرواد كما لو كانت تعريها وتجردها من ملابسها كلها . وكان كل ما فعلته هو أن سألت نفسها : اذا كان يحبنى حقا فلم يحط من كرامتى ؟

وذات ليلة حلمت حلما رأت فيه انها دفنت تحت الأرض ولم يبق منهـا على سطحها غير جانبها الأيسر وقدمها اليمنى وحـــزمة من الحشائش منثورة على ثديها الأيسر . وعلى الأرض كان الناس يغنون (عيون سود وخصر أبيض) و (لا يجب أن يعبر ماشا النهر)

ولم تكن تتردد على الكنيسة من قبل ولكنها ذهبت فى صـــحبة أوليا وسمعت كيف تطيب الحياة للبؤساء المحزونين وللجياع العطاش . ووقفت جامـــدة تتأمل كيف يدعـون للعاثرين الذين سيجدون ما يبررون به أعمالهم وكيف ستفتح لهم جميع الطرق .

كان بيت آل جيشار ، أو بيت لارا فى منطقـــة الاضطرابات ، وكان الناس يحملون الماء من الفناء ليخلطوه بالأسمنت لبناء المخابىء . ووقع مكان تجمع المتظاهرين بين الصليب الأحمر وبين مسكن آل جيشار ..

عرفت لارا صبيين كانا يترددان على المـــكان . أحدهمـــا نيكى ديدروف ، وباشـــا انتيبوف الذى أعتقل أبوه ويعيش مع الســـيدة تيفرزين العجوز وهى جدة (أوليا) عاملة مصنع الملابس وصديقة لارا .

ولم يخف على لارا مدى تأثيرها على باشا حين لقيتـــه فى منزل صديقتها أوليا . انه فتى فى براءة الأطفال ، ولا يخفى دميته منهـــا حين يراها .. كانت هى واحته التى يلجأ لهـا ويستريح عندها اذا ضاق بسخرية الناس منه .

وما كادت تطمئن الى قدرتها فى التأثير عليه حتى بدأت تستغل هذا الشعور ، دون وعى منها لمـــا تفعل ، وظلت كذلك حتى مرت سنوات وسنوات حين ظهر لها بوضوح حقيقة ما وراء هذا الخلق اللين الرضى من صلابة وصرامة . وقبل أن تفعل ذلك يكون باشا قد غرق فى بحر حبها حتى آذنيه ويتزوجها !

قدرت لارا وأمها أن من الخطر البقاء فى المسكن ما دام فى منطقة

الخطر ، وقد فات الوقت الذى يمكن فيه الالتجاء الى أصدقائهما لأن المنطقة محاصرة . لا مفر اذن من العودة الى الفندق الذى نزلا فيه خلال أيام اقامتهم الأولى بموسكو . انه فندق (مونتجرو) مرة أخرى . وتبين أن كثيرين ممن هم فى نفس الظروف كانوا قد اهتدوا الى نفس الفكرة . فامتلأ الفندق . وحتى حجرة الغسيل منحت لزبائن (أيام زمان)

وبعدا عن اثارة الريب كان الناس يحزمون متاعهم حزما دون حمل حقائب يسيرون بها فى طريقهم الى الفندق . كانت مدام جيشار قد نادت العاملات لتنهاهن عن المشاركة فى الشغب ذاكرة انها كانت طيبة فى معاملتهن فاجبن بأن الأمر يتعلق بمبدأ لصالحها ولصالحهن وللانسانية جميعا .

فسخطت ولعنت . وحتى لارا ابنتها حاولت اقناعها بفائدة ما يفعلن فجن جنونها .

وفى سيرهما الى الفندق كان الطريق مليئا بالمخاطر وأسرعت لارا الخطى مستهينة بالحياة منكرة لها ساخرة منها ، وتمنت لو تنتهى فى تلك اللحظة باحدى هذه الطلقات المنهمرة .. وكانت أمها تلهث مذعورة متعجبة .

أما هى فكانت تفكر فى محاميها الشيخ . وفى الدعوة التى سمعتها فى الكنيسة . تلك التى تتحدث عن البركات والعون : «فليبارك الرب الضعفاء والمحرومين » وتقول لنفسها : « ألا تباركها احدى تلك الرصاصات ؟! »

- ١٥ -

قلنا ان آل جروميكو أسرة مجيدة . شقيقان هما أستاذان فى الكيمياء .. أحدهما بالاكاديمية والآخر بالجامعة . والأخ الأصغر اسكندر متزوج من (أنا كروجر) التى كان والدها ملكا للحديد وصناعته ، ويملك مقاطعة واسعة فى منطقة الاورال الى جوار مدينة يوريانن ، حيث توجد مناجم مهجورة غير مستغلة .

وكان بيت العائلة مؤلفا من طابقين ، ويمتاز أفرادها بذوق سليم فى الفنون والثقافة ويقيمون الحفلات الساهرة ، حيث يتجلى ذوقهم فى الموسيقى والرقص .

وفى احدى تلك الحفلات اجتمع كل من تونيا بنت اسكندر جرومكو وميشا جوردن ويورا وخاله كوليا . وبينما أخذت الموسيقى بقلوبهم اذا بالخادم يستدعى طبيبا كان قد دعى الى الحفل لعلاج سيدة فى حالة خطيرة بفندق مونتجرو ! فأبى الطبيب الذى غلبته روعة الموسيقى على أمره .

ثم حمله اسكندر على ذلك ، وصحبه كيما يشجعه ، وصحبا معهما كذلك يورا وميشا .

- ١٦ -

ومع ان الحياة فى موسكو بدأت تجرى فى مجراها المألوف الا انك كنت لا تعدم أن تسمع دوى الرصاص هنا وهناك بين حين وآخر .

وطابت للصغار مغامرة الركوب فى العـــربة مع الطبيب فى تلك الليلة والشوارع تكمن فيها المخاطر ، والضباب يحجب المرئيات .

فندق منتجرو نفسه ! الغرفة رقم ٢٣ .

ودخل الطبيب الحجرة ووقف الطفلان بعيدا عنها .

حاولت (مدام جيشـــار) أم لارا الانتحـــار وسمعها الأطفال من الخارج وهى مغرقة فى البكاء ، وفى غير وعى طفقت تحادث الطبيب : (مسيو تشيكيف أين هى يدك ؟ اعطنى يدك . كنت أعانى أبشـــع المخاوف . شكوك فظيعة . لقد تصورت أن .. ولكن لحسن الحظ ان كل ذلك كان وهما أسرف فيه خيالى المضطرب .. كم أنا مرتاحـة الآن ، وها أنا ما زلت على قيد الحياة)

فسألها الطبيب أن تهدىء من روعها .

وراح الصبيان يرقبان غرفتهـا من بعيد فرأيا صورا على الحـائط وبعض العلب الموسيقية ومنضدة عليها مجلات الأزياء . وخلف المنضدة كانت فتاة نائمة على مقعد له متكأ .. ودخل رجل ليضع مصباحا على النضد فاستيقظت الفتاة وابتسمت له .

وحملق ميشـــا فى الرجل وراح يهمس فى اذن يورا الذى قال له : لا تهمس أمام الناس والا ظنوا بنا الظنون !

ولاح لهما ـ على البعد ـ أن الرجل والفتاة لم يلفظا بحرف . وانما تكلمت حركاتهما وأفصحت عيـونهما . وكانت هى كالدميـــة التى يحركها محرك الدمى فى استعراض مسرحى .

وافترت شـــفتاها وانطلقت عيناها فى ابتســـامة كليلة شـــاحبة

وطابا نفسا ، اذ أن سرهما لم يفض وقد انتهى الأمر نهاية مرضية .. وها هى مدام جيشار قد أخفقت فى محاولتها الانتحار !

وحملق يورا فى ذلك المشـــهد .. مشهد الفتاة الأسـيرة وسيدها الآسر . مشهد فيه الغموض المفضوح والازدراء البين . وتصارعت فى نفسه المشاعر .

ها هو أمام حادث من الأحداث التى كان يناقشها ويتحدث عنها مع تونيا وميشا مرات ومرات واتفق الجميع على وضاعتها ، نعم لقد كانوا يتحدثون عن القوى التى تدفع الانسان الى الشر فكانت تفزعهم وتروعهم وهم بعيدا عنهـــا . والآن ها هو يورا أمام مشهد تتجلى فيـــه تلك الدوافع . مشهد من الواقع الملموس . ومع ذلك فان آراءهم تلك تبدو مضطربة غامضة كأنها اضغاث أحلام . ان يورا منكر ساخط لما يرى ولكن لا حول له ولا قوة . فأين توارت فلسفته الصبيانية وماذا يمكنه ان يفعل !

وقال ميشا اذ خرجوا الى عرض الطريق :

ـ أتعرف من يكون ذلك الرجل الذى كان ينظر للفتاة ؟

غير ان يورا كان غارقا فى أفكاره فلم يجب

ـ انه هو الرجـــل الذى دفع والدك الى الاسراف فى الشراب وتسبب فى انتحاره . انه المحـامى الذى صحبه فى القطار . أتذكر ؟ أننى حدثتك بهذا من قبل ؟

لكن يورا كان يفـــكر فى الفتاة والمســـتقبل لا فى أبيه ولا فى ماضيه . ولم يفطن الى ما يقوله صديقه . ومع ذلك فقد كان الجو باردا الى حد يصعب معه الحديث .

الفصل الثالث

حفل عيد ميلاد عند سفنتسكى

قضت انا ، والدة تونيا ، طوال شهر نوفمبر سنة ١٩١١ فى فراشها تقاسى التهاب الرئتين .

وكان كل من يورا ، وميشا جوردون ، وتونيا يعد نفسه للانتهاء من دراسته فى الخريف المقبل ، يورا فى الطب وتونيا فى القانون وميشا فى الفلسفة .

واختلطت الأشياء فى نظر يورا ، وكان يعتبر أن آراءه وعاداته وميوله خاصة به وحده دون الناس . فكانت شخصيته جذابة لدرجة تلفت الأنظار ، حتى ان المرء ليؤخذ لما فى تلك الشخصية من أصالة .

ومع انه كان شغوفا بمسائل الفن والتاريخ فانه لم يتردد فى اختيار مهنة مستقبله معتبرا أن الفنون لم تعد تصلح لأن تكون مهنة اللهم الا اذا اتخذ الانسان من مسرات النفس وأحزانها مهنة من المهن . وأبدى نزوعا الى علوم الطبيعة ورأى ان الانسان يجب ان يقوم بعمل نافع فى الحياة العملية .

وفى السنة الأولى من دراسته للطب كان يتأمل الجثث فى المشرحة ويتأمل معها أسرار الحياة المجهولة التى حملتها تلك الجثث بين

طياتها . نعم كان يشوقه سر الحياة وسر الموت .

وكان يحسن التفكير ويجيد الكتابة ويقرض الشعر فهو كالرسام الذى قضى حياته يرسم خطوطا للوحة عظيمة ، تخيلها من قبل . وظهر اثر خاله كوليا فيه واضحا .

ان خاله ارتحل الآن الى لوزان حيث تنشر كتبه بالروسية وبغيرها من اللغات . وقد تطورت نظريته فى التاريخ كعالم آخر بناه الانسان بمساعدة الزمن والذاكرة وذلك كرد على تحدى الموت للبشر .

وكذلك تأثر ميشا بنفس هذه الأفكار ، فدرس الفلسفة وود لو عكف على دراسة الالهيات غير ان اغراقه فى العالم النظرى لم يرض يورا الذى تمنى لو كان صديقه صاحب ميول عملية .

- ٢ -

وفى يوم من أواخر شهر نوفمبر عاد يورا من الجامعة ، متعبا مكدودا لم يصب شيئا من الطعام طيلة يومه . وهاله البيت المضطرب ووجود عدد من الأطباء يخرجون منه . وعرف أن أنا ـ أم تونيا ـ فقدت وعيها عدة مرات .. واستدعى القس اليها ولكنها بدأت الآن تتحسن وأرسلت فى طلبه فدخل يورا ليجدها فى بحر من العرق .. كم تغيرت منذ رآها فى الصباح . وراح يراجع معلوماته ليتأكد من صحة تشخيص المرض . انه يعرف كل أعراض الالتهاب الرئوى . فحياها وقال الكلمات المشجعة وصرف الممرضة

وأخذ يجس نبضها فقالت ـ لا فائدة .. يقولون المراسم الأخيرة .. الموت يحوم حولى . ان اقتلاع ضرس يخيف فما بالك باقتلاع الحياة ؟ وما معنى هذا ؟ لا أحد يدرى .

وصمتت وانهمرت الدموع على خديها . وصمت يورا كذلك . غير انها ما لبثت ان استأنفت حديثها قائلة : أنت ذكى . موهوب . فقل لى شيئا يطمئننى .

فترك مقعده ومشى يذرع الغرفة ثم عاد ليقول :

ـ أولا سوف تتحسنين غدا . أرى ذلك . وأما عن الموت فسوف تعود الينا الحياة بالبعث . تريدين رأيى كعالم ؟ سأصارحك به فى وقت آخر .

وهكذا راح يحدثها بفلسفته وعلمه ويذكرها برأى أحد القديسين الذى يرى ان الموت لا وجود له لأن الموت هو الماضى .. أما نحن ففى الحاضر الخالد الذى لا يموت .

- ٣ -

وبقيت أنا فى فراشها بناء على نصح الأطباء . وكانت تستدعى يورا وتونيا لتحدثهما عن ذكريات صباها فى جبال الاورال . وعن (فاركينو) وهى القرية الواقعة على النهر فى تلك المنطقة ، ولم يكن الشابان قد زارا تلك البقعة من الأرض ، غير انه كان يشوقهما الاستماع لما ترويه عن مهد طفولتها . وتخيل يورا اثنا عشر ألفا من الأفدنة وقد كستها غابات بكر لم تطأها قدم . غابات كثيفة سوداء كالليل !

وحصلا على ملابس السهرة لأول مرة فقد كان من المفروض ان يرتديها فى حفل عيد الميلاد التقليدى عند آل سفنتسكى فى السابع والعشرين من الشهر .

وراحت أنا الأم تمتدح ثوب تونيا وثيابه الأنيقة وأزراره اللامعة. ولكنها تريد أن تحدث يورا .

فيجيبها هذا بأنه يعرف مقدما انها تود ان تلومه لرفضه ميراث زيفاجو والده ، والمحامى يريده ان يقبله حتى يضمن أتعابا عالية . ثم هناك الديون الباهظة التى تغرق الأملاك . وثمة زوجة أخرى لأبيه أنجبت منه ولدا يدعى يفجريف . وهما ينازعانه ميراثه وهو يفضل التنازل عنه .

وانطلقت أنا من جديد تحدثهم عن ذكريات صباها فى فاركينو بمنطقة الاورال وعن حارس الغابة . أتدرى ماذا كانوا يسمونه ؟ باكوس ؟ أليس اسما غريبا . كان بوجهه اثر من جرح قديم حين أصابته احدى الدببة .. وتذكر أنا والدها صاحب البندقية المزدوجة اللقلقات . وكيف كان يشجع على صيد الدببة ويمنح صائديها المنح حتى أمكن الاستقرار . وكانت الأشجار تصل الى النافذة . (وأما الجليد .. هذا الجليد فقد كان أكثر ارتفاعا عن السقف . ويتراكم فوق الشجر) ويطلبان اليها أن تكف عن الحديث فانه ضار بصحتها . فتجيب بأنهما يجب أن يذهبا الى حفل عيد الميلاد ولا جدال فى ذلك . وتعود لتذكر قرية جبال الاورال مرة أخرى . وباكوس الحداد التى أصيب فى امعائه فصنع لنفسه أمعاء من حديد . وأصيبت بنوبة سعال حاد

أخرى أقوى من النوبة السابقة فهرعا وجريا ثم وقفت تونيا ويورا جنبا الى جنب بجوار فراشها ، ومست يد كل منهما الآخر . وأنا لا تزال تسعل . وما كادت تنتهى من سعالها حتى توجهت اليهما وقالت : (اذا مت ، أبقيا معا . لقد خلق كل منكما للآخر . تزوجا ، وهأنا أبارككما) .

قالت هذه الكلمات ثم راحت تبكى .

- ٤ -

فى ربيع عام ١٩٠٦ كانت لارا فى سنتها النهائية بالمدرسة ، وقد جعلتها علاقتها بكوماروفسكى تحتمل ما لا تطيق . فقد استغل زلتها ليذكرها ، كلما طاب له ، بشرفها المثلوب ، والعار الذى انحدرت اليه، كأنما هو يستنكر ما كان . ولكنه لا يلبث ان يقبل عليها متناسيا ما قاله . فيدفعها ذلك الى الاضطراب والحيرة . نعم كان هذا التناقض الجنونى ، كالسحر الملعون يبدو غامضا بلا تفسير ولا منطق وقد انقلبت الصور والمعانى .. فالألم الحاد يتقنع بالضحكات الفضية ، والاصرار والرفض يعنيان الرغبة ، وقبلات الامتنان تغطى يد الجلاد !

ولاح لها أنه لا نهاية لهذا العذاب ، وفى ذلك الربيع كانت تستمع مرة الى درس التاريخ ،ففكرت والعطلة الصيفية على الأبواب فى أنها ستعود من جديد قريبة من كوماروفسكى . فاتخذت قرارا غير مجرى حياتها .

وكان الصباح حارا يتأهب لاستقبال عاصفة ... وخلال نوافذ

حجرة الدرس بدت أصوات المدينة رتيبة كأنها خلية النحل ،ورائحة الأرض محملة بعبير العشب ، والأوراق الناضرة تبعث النشوة الى النفس .

وهبت العاصفة خلال درس التاريخ الذى يتحدث عن حملة نابليون على مصر ، واسودت السماء وانشقت عن وهج ورعد .

واجتاحت الحجرة سحب من التراب والرمال . فجاء الخادم ليقفل النوافذ .

وكتبت لارا (لناديا) صديقتها على ورقة نزعتها من دفترها : (أريد أن أعيش بعيدا عن أمى . ساعدينى فى الحصول على عمل كمدرسة على أن يكون الأجر جازيا ، خاصة وانك تعرفين عائلات ثرية) .

فكتبت لها ناديا على الورقة :

(ان والدى ووالدتى يبحثان فعلا عن معلمة لاختى ليبا . فهلا جئت الينا ؟ سيكون ذلك شائقا . انك تعرفين مكانتك فى قلب والدى) .

- ٥ -

وذهبت اليهم .

وقضت لارا ثلاث سنوات هناك فى مأمن أمين لم يكدر صفوها أحد ولا حتى أمها أو شقيقها حتى حسبتهما غريبين عنها .

وكان (كوجريفوف) رب الدار رجل أعمال من طراز غير مألوف.

فقـــد أثرى ثراء خياليـــا ومع ذلك كره النظام القـــائم وآوى المجرمين المتهمين بجرائم سياسية . وقيل انه كان من مؤيدى الثورة بحيث دبر الاضرابات فى مصانعه ! وكان يقضى أيام الآحاد فى شتاء عام ١٩٠٥ يدرب المتطـــوعين فى غابات الصـــيد . وزوجتـــه شـــخصية بارزة فى مجالها كما هو فى ميدانه ، وكلفت بهمـــا لارا . وصارت لها مكانتها فى قلوب ساكنى الدار جميعا . فلما انقضت ثلاث سنوات فى حياتها الحرة ، هذه قصدها أخوها (روديا) ذات مرة لأمر ما لبث أن كشف عنه ، فأخبرها ان الاكاديمية العسكرية التى ينتسب اليها كانت قد آودعت لديه مبلغا من المال لتشترى به هدية لرجل رأت ان تحتفل بتكريمه . فأضاع الأمانة فى المقامرة . وها هو مستقبله رهين بايجاد المال .

وقال لها الأخ : ذهبت البارحة لرؤية صديقنا المحامى ولكنه أبى أن يحدثنى فى الأمر . أما أنت فلك عليه سلطان .. ان شرفى يتوقف على ايجاد المال !!

ـ شرفك ؟ ولكن أين شرفى أنا ! ألديك فكرة واضـــحة عن حقيقة ما تطلبه منى ؟ أتفهم ماذا يريدك ان تفعل ؟ لقد بقيت هـــذه هذه السنوات آمنة بعيدة عنكم ثم تجيئنى لابدد ما شيدته فى سنين ؟ اذهب .. اطلق على نفسك الرصاص . فماذا يهمنى ؟ ولكن . كم هو المبلغ ؟

ـ نحو ستمائة روبل بل قولى سبعمائة !

ـ لا بد انك مجنون يا روديا اذ قامرت بهذا المبلغ . أتدرى كم

من الوقت يحتاج اليه شخص مثلى ليجمع هذا المال ؟

وصمتت قليلا وقالت ببرود كأنما تحدث غريبا : حسنا . سأحاول . تعال غدا وناولنى مسدسك الذى تنوى ان تقضى به على حياتك ومعه عدد من الرصاصات كثير !

وجاءته بالمال من (كولوجرفوف) رب الدار .

- ٦ -

لم يحل عمـــل لارا مع تلك الأسرة دون مواصلة دراســـتها الجامعية . وكانت ستتخرج فى العام التالى أى فى سنة ١٩١٢ .

وكانت تلميذتها ليبا قد خطبت الى مهندس شاب .. وظلت فتـاة الأسرة المدللة الطائشة . واعتبرت لارا فردا من الأسرة . لم يذكرها أحد بدينها الذى كان يمكنها أن تسدده منذ مدة طويلة ، لولا أنهـــا كانت تعين والد صديقهـا باشا المنفى فى سيبريا ، كمـا كانت تدفع جزءا من أجر مسكن صديقها الى صاحبة الدار . دون أن يعرف باشا شيئا عن تلك المساعدات .

ان باشا أصغر منها سنا ولكنه هام بحبها . وأطاع نزواتها ورغباتها فبعد ان أتم دراسته فى قسم العلوم بالمدرسة . درس اللاتينية واليونانية ليتهيئـــا لنيل درجة جامعيـــة فى الآداب . وذلك بناء على نصيحة منها ..

كانت أمنيتها أن يتزوجا بعد التخرج ويعملان معا فى التدريس فى اقليم الاورال .

ورحلت الى منطقـــة ريفية مع الأسرة . وراحت تتملى الطبيعـــة الصريحة . ولكنها محطمة القوى تعتريها الأوهام ، مصورة لها انهـا صارت عبئا على العائلة . ومع ذلك فانها يجب أن تبقى لتسدد الدين .

ومنعتها علتها النفســـية من مشاركتهم اللهو اللطيف والحفـــلات العائلية الشائقة فى الريف . وتذكرت روديا أخاها ومقامرته وانقاذها لشرفه ! وانها لتسخر !

وعادت الأسرة الى مقرها . ولارا تفكر دائما فى باشا وتتشاجر معه وان كانت دائما على حذر ألا توسع شقة الخـــلاف بينهما . فانه هو الورقة الأخيرة فى يدها .

كان عيد ميلاد سنة **١٩١١** على الأبواب واذ ذاك قـــررت لارا قرارا خطيرا . نعم يجب أن تترك هذه الأسرة الطيبة !

وعادت الى كوماروفسكى !

وفى منزله أخبرتها (أما) مديرة البيت انه بالخارج وعليهـــا أن تنتظره .. ولكنها تعلم انه فى حفل عيد الميلاد فتهرع الى حيث كان .

كان البرد . وكان الجليد .. وسارت الى شارع كامرجر الذى لاح مقفرا ولما مرت حيث يسكن باشا فى حجرته ، ساورتها فكرة وهى ان تصارحه بكل شىء . ودخلت لارا بينما كان صاحبهـــا ينتهى من ارتداء ملابسه وقال : سأخرج بعد دقيقة واحدة .

وخلعت سترتها المهندمة ووضعت المسدس فيهـــا ثم اتجهت الى الأريكة .

وأطفأ هو المصباح الكهربائى وبقيا فى ضوء الشمعة .. كانت تحب الحديث فى الظلام .. وقالت - انى فى محنة .. واذا كنت تحبنى حقا فلا تسلنى عنها ويجب أن نسرع بالزواج .

- هذا ما أتمناه ولكن صارحينى بما دهاك ولا تعذبينى بالأحاجى.

ولكنها غيرت مجرى الحديث .

- ٧ -

كان يورا يعد رسالة لنيل جائزة عن الجهاز العصبى للعين ، فمع انه درس الطب العام الا أنه أولع بوظائف أعضـــاء العيون . فكأنه يربط بين الفن والفكر .

وفى ليلة عيد الميلاد ركب عربة تصحبه تونيا فى طريقهما الى حفل آل سفنتسكى وعقله مشغول بمشروعات أبحاثه .

كانت تونيا جزءا لا يتجزأ من حيـاته ، وصديقة عمره ولكنها الآن أزعجته أشد الازعاج بعد أن شعر بأنها ستكون زوجة له .. فهـــو خجول فى ابداء مشـاعره .. وذلك لعمرى أول الطريق للهـــوى المبرح .

كانا قلقين كذلك على أمها التى أصرت رغم خطورة حالتهـــا على ذهابهما الى الحفل .. ووقع نظر يورا على منظر سبق ان شاهدته لارا منذ قليل .. الشوارع المتجمدة وغبش الجليد على النوافذ التى لاح منها الضوء عكرا فى ضباب الصقيع . وأما فى الداخل فكانت موسكو تتألق فى أعياد ميلادها التقليدية . الشموع فوق شجرات العيـــد .

والأزياء التنكرية الزاهية . والشـــباب يرقص الرقصـات المعروفة ويصخب ويمرح حتى الصباح .

ولمح فى نافذة بشـارع كامرجر احـدى الشمعات تذوى فهمس فيما بينه وبين نفسه ـ شمعة تحترق . شمعة تحترق !

وفى بيت آل سفنتسكى كان العرف يقضى بأن يسهر الصـــغار والكبار حتى الصباح . وكان الكبار يلعبون الورق فى غرفة تكدست عليها البالونات فى شبه ستار . هكذا يقضـــون الليل حتى اذا لاح النهار تناولوا جميعهم طعام الافطار .

وأعد لهما رب الدار غرفة من الغرف الخاصة فى الدور الأعلى . ولكن لارا كانت فى قاعـــة الرقص دون رداء الســـهرة . كانت ترقص فى شـــبه غيبوبة وتترقب ظهور كوماروفسكى فى حجـــرة الاستقبال . وأخيرا وقع بصرها عليـــه وهو يتملى وجه شابة ، على نحو ما كان يفعل معها . وها هى تتسلى بالرقص وقد صممت عـلى تنفيذ فكرتها بعد قليل ..

وعرفت من مراقصها ان المحامى صديق والد الفتـاة ، الذى يقف هناك كما انه صديق للأسرة كلها ، التى يلتف أفرادها من حـوله . وعرفت لارا أن رب الأسرة هو المدعى العام الذى أدان العمال يوم الاضراب وتسبب فيما أصاب (تيفرزن) .

- ٨ -

كانت تونيا تراقص صديقا ويورا يرقبها عن بعد . ومرت به فضغطت

على يده مبتسمة واستقر منديلهـــا الذى كان فى حجم الزهرة بين يديه . فترقرق فى يورا شعور غامض لم يسبق أن أحس بمثله من قبل .. شعور حاد نفاذ هز كيانه جميعا . كانت رائحة المنديل كرائحـــة الشباب .. ككلمة حانية نابضة بالمشـاعر يهمس بها فى ظلام الليل ! وضغط المنديل وقربه من عينيه وشفتيه غارقا فى نشوة شذاه الدافىء . وفجأة سمع الناس صخبا وصياحا فيما بين حلبـــة الرقص وحجرة الاستقبال .. وهرع القوم خلف الشاب كولا ابن النائب العـام وهو الذى كان يراقص لارا منذ وقت غير قليل .. نعم سمعت رصاصـــة تنطلق .

وراح كوماروفسكى يصيح : ماذا فعلت الفتاة ؟

وصاحت زوجة النائب : أين الطبيب ؟.. قل لى انك حى لم تمت .. سأقتلع عينيك أيتها المجرمة التى تقتلين حامى القـــانون .. مسيو كوماروفسكى لقد صوبت الرصاص اليك .

وتدافع الناس الى الخارج وعلى رأسهم كوماروفسكى مستضحكا مطمئنا القوم بأن كل شىء على ما يرام !

وذهل يورا ! هذه الفتـــاة مرة أخرى ! وهذا المحامى الأشيب ! نفس الظروف الغريبة التى مرت فى الحادث السابق . لكن يورا عرف الرجل هذه المرة فهو المحامى المشهور الذى يرتبط بميراث أبيه ! وهذه الفتاة التى أطلقت الرصاص على النائب ! الأسباب سياسية ؟ يا للمسكينة ؟ ما أعظم نبل جمالهـــا . والقوم يتجاذبون ذراعيهـــا كما لو كانوا قد أمسكوا بلص !

ولكنه كان مخطئـا اذ كان سر شحوبها انه مغمى عليهـا لا لنبل الجمال وحده ، وجروها الى أقرب المقاعد .

واقترب يورى منها قائلا للمحامى انه طبيب

وطلب أن يوافيه صاحب الدار بأحد الأدوية المنبهة . ولكن ؟ جاء رسول يلهث فى لهفة .

وقال له أن يترك كل شىء ويعود الى البيت .

ولما عاد وتونيا كانت أمها (انا) قد فارقت الحياة . واستولى على تونيا الذهول طويلا .

أما يورا الذى درس الفنون والآداب وتخصص فى الطب فلم يجد لهذا كله نفعـا أمام جلال الموت . وصلى وقد اختلطت أفكاره واضطربت واعتراه الخوف والأسى .

كان يورا شارد اللب وهم يؤدون مراسم الجناز واستعاد ذكرى فناء المقبرة حيث شاهد أمه تدفن وهو لم يزل بعد صبيا .

واذ تأمل التماثيل وأصغى الى الأناشيد عرف للفن معانى جديدة . فهو يمثل ويجسم أفكارنا عن الموت كما أن الفن يبدع الحياة باستمرار ويخلقها .

وراح يتمنى اليوم الذى يعيش فيه وحيدا بعيدا عن الجامعة والحياة ليكتب قصيدة من الشعر عن (انا) وموتها .

الفصل الرابع

وقوع ما لا بد منه

كانت لارا ملقاة فى غيبوبتها والطبيب والخدم يهمسون فى حديثهم من حولها والمنزل مظلم خال .

وراح (كوماروفسكى) يذرع الممر جيئـة وذهابا فى خطوات ثابتة كأنه فى بيته وليس بالضيف .

وجثم على صدره هم ثقيل ! الفضيحة ! العار ! وغلت نفسه غضبا . ان مركزه مهدد بما حدث . ويجب ان يمنع تسرب الأخبـار مهما يكن الثمن .

وثار مرة أخرى لأنه يعانى من لهفته على هذه الفتاة البريئة اليائسة. فهى فتاة لا نظير لها فيمن عرف من النساء . ولكنه طعنها فى كرامتها وأشقاها ، وكانت طعنـة عميقة الغور وهيهات ان يلتئم الجـرح . كم كانت قوية عنيفة فى تصميمها على استئناف حيـاة جديدة نقيـة لا يشوبها اثم . عليه أن يحميها وأن يجد لها ملجأ تأوى اليه . ولكن يجدر به ألا يتردد عليها . دون أن يشعرها باهمـاله لها والا فانه لن يأمن ما قد تمليه عليها عواطفها العنيفة من أعمال . وكانت أمامه عقبات وعقبات لكى يحقق ذلك .

جاء رجال البوليس مرتين وذهب كوماروفسكى بنفسه الى المطبخ ليقابل الجاويش ويلطف الأمور .

وكلما أخذ التحقيق مجراه تعقدت الأمور . وراح رجال الأمن يلتمسون الدليل على أن (لارا) قصدت اطلاق الرصاص عليه لا على وكيل النيابة . غير ان ذلك لن يعفيها من مسئوليـــة الا ليوقعها فى مسئولية أخرى .

وكان من الطبيعى أن يفعل أى شىء ليحـــول دون وقـوع ذلك . ولو نظرت القضية أمام المحكمـة فعليه أن يقدم شهادة من خبـير فى الأمراض النفسية تثبت انها لم تكن مسئولة حينما أطلقت الرصاص. وهكذا فانه سيولى الأمر كل عنايته حتى تسقط الدعوى فى آخـر الأمر .

واطمأن لهذا الحل وابشر .

استأجر لها غرفة فى بيت زميلة له فى مهنة المحـــاماة . وكانت غليظة القلب قاسية عاملت لارا معاملة لم تخل من الازدراء والخشونة . فعانت المســـكينة وقاست فى محنتها . وراحت لارا خـلال مرضها تستعيد ذكرياتها الأولى عن موسكو ليلة وصولهم اليها من منطقـة الاورال منذ ثمان سنوات . حين شـــاهدت فى ذلك المساء المدينـــة لأول مرة . كانت أضواء المصابيح تلقى ظلال الحوذى على الجدران. وراعها رنين الأجراس الكبيرة وصدى الدقات فى الشوارع . وفى الفندق كان كومارفسكى يحمل لهم الشمام الكبير الحجم . وكان بمثل هذه الهدايا ينم عن ثرائه فى نظرهم . فلما أذاقها الرجل فيما بعـد الطعام الفاخر ، وقادها الى حياة الليل فى المدينة ، وضحت أمامها قيم الأشياء على حقيقتها .

غير أنه تغير الآن ، لم يطلب منها أمرا كما كان يطلب ، ولم يعد يذكرها بماضيها كما كان يفعل ، بل هو لم يأت لزيارتها ، وان بقى على البعد يشعرها بطريقة لطيفة مهذبة باستعداده لمعونتها .

وما أشد الاختـــلاف بين هذا الرجل وبين الرجل الآخـــر الذى أتى لزيارتها ... انه الرجل الذى كانت تعمل عنده مربيـــة لابنه ليبا .. جاء ولم يتحدث فيما يجرح . ولكنه ذكر لها انه ذاهب لزيارة معرض فى مدينة دسلدرف وسيرى ألوانا من الروائع الفنية . ثم قال : طالت رقدتك . ويجب أن تغيرى المكان . واعرف رجلا يمكنه أن يعطيك جانبا من مسكنه .. وهذه هدية بسيطة من ليبا بمناسبة تخرجها .. أتوسل اليك ألا ترفضى قبولها .

وبالرغم من توسلاتها ودموعها فقد أرغمها على قبول شيك بمبلغ عشرة آلاف روبل .

فلما أبلت من المرض التمست المسكن الذى عينه لها الرجل الكريم، وهو جانب من مرسم فنان .

وكان باشا قد أضناه أمر لارا وأشـــقاه . واضطربت أفكاره اذ رآها تحاول قتل رجل يدافع عنها ويرعاها ويجنبها التهمة حتى تتم دراستها دون أن يمسها سوء ! كان ذلك أمرا محيرا يضيق به وتلتوى عن ادراكه سبل الفهم .

لم يكن يسمح له برؤيتها وهى فى شـــدة المرض ، فلما تماثلت للشفاء جاء . فراحت تقـول له : اننى امرأة شريرة وأنت لا تعـرف حقيقتى . سأصارحك ذات يوم . ليس الآن لأنى كلما حاولت ذلك

غلبنى الدمع وماتت الكلمـــات على شفتى . يجب أن تنســـانى فأنا لا أستحقك .

وتعقب هذا مشاهد عاصفة تزداد على الأيام عنفا وشدة . كل هذا ولارا لا زالت تعيش فى مسكنها ذاك ، تلقى صاحبها فى الممر الضيق وقد شرق بالدمع وبللت وجهه العبرات . ثم تندفع الى غرفتها مستلقية على أريكتهـــا لتضحك وتعتريها هزة وهى تردد (لا أســـتطيع . لا أستطيع . هذا كثير ! انه شمشون القوى الصامت !)

ولكى تحمل باشا على قطع علاقاته المدمرة بها ، ولكى تقتلع حبه من جذوره وتضع حدا لعذابه ، لكى تفعل كل هذا صارحته بأنهـا لم تعد تحبه وان حبها له قد مات الى الأبد . غير انها اذ تعلن ذلك تغرق فى البكاء بحيث لا يمكن ان يتصور المرء انها صادقة فيما تقول .

واتهمها باشـــا بالخطايا السبع وهو يستمع الى كلماتهـــا الحارقة اللاذعة . وود لو استطاع أن يلعنها وأن يفطم قلبه عن حبها . غير انه كان مدلها بهواها ، يغار عليها حتى من أفكارها ومن الكوب الذى منه تشرب ومن الوسادة التى عليها تنام . واذا كان عليهما أن يحتفظا ببقية من عقل فعليهما أن يحسما أمرهما حسما سريعا قاطعـــا . فاعتزما ان يبادرا بالزواج دون انتظار لاجتياز امتحانهما . واتفقا على الزواج فى يوم أحد ... ولكنها أجلت الزواج فى ذلك اليوم .

وتزوجا فى يوم يطلق عليه الاثنين الأبيض اذ كانا قد تخـــرجا بنجاح . وأعدت للعرس عدته بمســاعدة أم احـــدى صديقاتها ، وهى امرأة أنيقة ، ذات خصر بارز ، وصوت حلو منخفض ، تســـيطر

عليها معتقدات خرافية ، ورثت بعضها مما يشيع بين الجمـــاعات من خرافات ، واخترعت هى بعضها الآخـــر . وفى اليوم الذى همست فيه تلك المرأة فى أذنها قائلة (بأنها ستذهب الى المذبح) ، كان الجو حارا لدرجة تزهق النفـــوس . وبدت فيه قباب الكنائس المذهبـــة وممرات المدينة المفروشة بالبرمال حديثا صارخة الصفرة ، وشجيرات النخيل ملتفة على أعمدة الكنيسة .

لم تكن هناك نسمة هواء . وأشعة الشمس تزيغ الأبصار وتتراقص متوهجة حارقة أمام العيون . وكأن آلاف الزيجات سوف تتم فى ذلك اليوم ، فالبنات يرتدين ثيابا خفيفة كأنهن الطيور ، وشعورهن مصففة معقوصة ، وأما الفتيان فقد لمعوا رؤوســـهم بالزيت ، وارتدوا أزياء سوداء مهندمة احتفالا بالعيد . فالكل يشعر بالنشوة والحرارة .

وما ان وطئت لارا ســـجادة الكنيسة حتى نثرت والدة احـــدى صديقاتها حفنة من النقود الفضية الصغيرة تحت قدميهـــا استجلابا للحظ ، ولنفس السبب أخبرتهـــا المرأة التى أعدت للعرس ، وهى تضع تاج الزواج على رأسها ، ألا ترسم علامة الصليب بأصابعهـــا العارية ، بل يجب أن تغطى يدها بوشاحها أو بقطعة من الدنتلا ذات الأطراف . ونصحت لارا كذلك أن ترفع شمعتها ما استطاعت حتى تكون لها السيطرة فى البيت . ولكن لارا اذ تهب باشا مستقبلها وحياتها ، حاولت أن تخفض شمعتها بقدر ما تستطيع ، غير ان ذلك لم يجـــد فتيلا ، فقد كانت شمعة باشا أكثر انخفاضا !

ومن الكنيسة قفلوا عائدين الى مائدة الزواج فى بيت لارا الذى

كان باشا قد زينه حديثا . وصاح الضيوف : ان طعم ما نأكل فيه مرارة . فتبادل العروسان الخجولان قبلة ، وطاب المذاق ! وارتفع صوت السيدة التى أعدت العرس بأغنية (الكروم) ،كما كانت العادة ، وردد الجميع (ليهبكما الرب الحب والنصر) .

ووجل باشا حين انصرف الضيوف وشاع الصمت وران . وراح الشاب يسدل ستائر النوافذ حتى يحجب الضوء الذى يشع من مصباح الطريق . غير ان شعاعا نحيلا ما زال يتسرب فأقلقه ذلك الشعاع كأنما هو شخص يرقبه . وازداد حرجه اذ فطن الى انه اهتم بالضوء أكثر من اهتمامه بلارا وبنفسه وبما يحمله بين جوانحه من حب وغرام .

فى تلك الليلة صعد ذلك الفتى الذى كان زملاؤه فى الدراسة يطلقون عليه اسم جنية من جنيات الأساطير ـ نعم صعد الى ذروة النشوة كما انحدر الى أعماق اليأس . فقد تجسمت شكوكه وظنونه بما ساقته لارا من اعترافات . فاستفسرها وكلما أجابت غاص قلبه وعجز خياله الجريح عن الصمود أمام الحقائق التى كشفت عنها .

وتحدثا حتى الصباح . ولم يسبق ان اعترى باشا ما اعتراه فى تلك الليلة من تغير حاسم خطير . فنهض رجلا غير الذى كان ، بحيث عجب ان اسمه ظل كما كان . باشا انتيوف !

وبعد تسعة أيام أعد لهما أصدقاؤهما حفل وداع فقد اجتازا الامتحان بتفوق متساو ، وألحق كل منهما بعمل فى نفس المدينة

الواقعة بمنطقة الاورال . وسوف يرحلان فى الصباح الى مقر العمل الجديد .

وأعدا الحقائب والسلال

وجلست لارا بعد أن ذهبت لاستحضار بعض الوثائق الخاصة بدرجتها الجامعية وراحت تسهم فى الحفل الصاخب الذى يشبه حفل الزواج منذ أيام . الجميع من الشباب عدا (كوماروفسكى) الذى كان وجوده استثناء ، والذى طلب الى الزوج أن يسمح له بالكتابة اليهما أو بزيارتهما فى تلك المنطقة اذا ألح به الشوق ، أو كانا فى حاجة اليه . فقالت لارا أن هذا ليس بالضرورى فانهما بعون الله سيجدان أصدقاء وخلانا .

واستقبلت لارا صديقة لها فما لبث الحاضرون أن أعادوا كرة الشراب بحيون الضيفة القادمة بالصخب والمرح والكؤوس حتى دارت الرؤوس وراحوا فى سبات . فقد كان الجميع يعتزمون مرافقة العروسين الى محطة القطار فى الصباح .

وسمعت لارا فى الهزيع الأخير من الليل ضجة فى الفناء فتساءلت عما عساه يفعله باشا فى مثل هذا الوقت ، ولكنها لم تجد غير وجه مشوه كريه .. لم يكن زوجها وانما كان لصا فتذكرت عقدا لها ونظرت الى المنضدة حيث تركته فوجدته حيث هو . اذ شغل عنه اللص واهتم بحقيبة الملابس !

وحاولت أن تصيح فاحتبست الصيحات فى فمها . فلكزت صديقة لها نائمة فى بطنها فصاحت هذه متألمة ، واذ ذاك انطلق صياح لارا من عقاله . فأسقط اللص ما كان يحمله وولى الأدبار . وجرى بعض

النوام محاولين مطاردته دون أن يفطنوا الى حقيقة الأمر ، ولـكنهم ما كادوا يخرجوا من الباب حتى كان اللص قد اختفى .

ونبهتهم لارا من غفوتهم بما أعدت من قهـــوة ، ثم راحت تجمع أغطية الفراش وتضعها فى السلال ، وتربطها بالحبال ، وهى ترجـو باشا وزوجة البواب ألا يزعجاها بمحاولة مساعدتها .

وتهيأ كل شىء كما قدر له . ووصلا فى موعد القطار الذى أخذ يتحرك أول الأمر بطيئا كأنما تدفعه قبعـــات الأصدقاء اذ يلوحون بها ، فلما كفوا عن ذلك سمع صـــوت غامض يتردد ثلاث مرات ، ربما كان الصحاب يردون (عاشا . عاشا)

وكان القطار قد أسرع .

- ٢ -

كان ذلك فى اليوم الثالث الذى ساد فيه ذلك الجو اللعين ، وكان فى الخريف الثانى للحرب التى انقلب الظفر فيها الى هزيمة وانسحاب ، وكان جيش (براسيلوف) الثامن الذى عسكر فى الكربات استعداد للهجوم على منحدرات المجر واكتساحهـا قد أخذ يتراجع متـــأثرا بانسحاب سائر وحـدات الجيش . وهكذا انسحبوا من غاليسيا التى احتلوها فى الشهور الأولى للحرب .

وكان الدكتور زيفاجو ، الذى كان يعرف حتى وقت قريب باسم (يورا) يقف فى ممشى قسم أمراض النساء بالمستشفى خارج الجناح الخاص بعمليات الوضع الذى أدخلت اليه توا زوجته تونيا . وودعها ، وهى تدخله وبات ينتظر المولدة ويدبر حيلة يستطيع معها الدخول الى

تونيا اذا استدعى الامر .

كان على عجل من أمره اذ عليه أن يعود الى المستشفى الذى يعمل به ، وان يزور مريضين آخـرين وها هو ينفق وقته الثمين مطلا من النافذة يرقب هطول المطر مدرارا ، وقد لوحته رياح الخريف فخيل اليه انه حقل حنطة تكتسحه عاصفة من العواصف . لم تظلم الدنيـا بعد ، فهو يرى الجزء الخلفى من المستشفى وزجاج الشرفات فى المنازل المطلة على الميـــدان . والمطر رتيب والرياح تكاد تقتلع البيوت من جدرانها .

وانزلقت عربة فوق قضيبين تحمل الجرحى الى شرفة المستشفى . كانت تروح وتجىء حاملة المصابين وكانت سائر مستشفيات المدينـة قد ضاقت بهؤلاء وخاصة بعد موقعة لاسك .. وهكذا كان الجـــرحى يتساقطون على الأرض وتمتلىء بهم الممرات . وبدأ الازدحام يؤثر على قسم الولادة . وأحس يورى انه متعب لا يقوى على التفكير فى شىء ولكنه يتذكر فجـــأة امرأة ماتت فى مستشفاه وهى تجرى عمليـــة جراحية .. وكان هو الذى شخص الداء . لم لا يخطىء الأطباء ؟

هبط الليل على حين غرة فحجب المرئيـــات غير ان الأضـــواء ما لبثت أن انبثقت من النوافذ كأنما مستها يد ساحر .

وأقبل رئيس قسم أمراض النساء الذى كان من عادته حين يسأل سؤالا أن يهز كتفيه فى استسلام مرددا قولا عرف به (بالرغم من تقدم العلم فان فى السماء ما لا تعلمون) .

مر بيورا مبتسما وهز يده مرات مشيرا الى وجوب التزام الصبر ، ثم ذهب ليدخن فى الممر .

فلما عاد نصحه أن يعود الى عمله فقد تحدث الولادة فى أى وقت وأن كل الدلائل تشير الى أن الأمر يجرى على طبيعته .

وذهب ثم اتصل بالتليفون قلقا منزعجا فأوصوه بالانتظار يوما أو يومين .

وفى اليوم الثالث عرف ان زوجه تعانى آلام الوضع وقد جاءها المخاض منذ الصباح .

فاندفع الى المستشفى وأخطأ فى ولوج بابه ولكنه سمع أنين تونيا كأن قطارا قد دهمها .. لم يسمح له بالدخول فوقف ونظر خلال النافذة ليسمع هطول المطر ويراه كما كان منذ يومين .

وخرجت ممرضة وسمع صياح وليد فهمس لنفسه فرحا : هى بخير . هى بخير

وقالت الممرضة فى صوت أغن : ولد ! ولد ! مبروك ! لا تستطيع الدخول الآن . سنقول لك متى تدخل . عانت كثيرا . هذا أول مولود والصعوبة دائما فى المولود الأول .

فرح بسلامتها وشرد ذهنه فلم يعد يسمع ما تقول . وأحس بفخر كأنما شارك هو الآخر فى آلام الوضع . أب وابن ! هبطت عليه الابوة فى لحظة من السماء !.. انه عاجز عن تصور ذلك ! .. عاجز عن الاحساس به . كل هذا غائب عن ادراكه وكل ما يهمه هو

تونيا التى أحدق بها الخطر المهلك ثم ارتدت صحيحة سليمة .

وأراد أن يدخل لرؤية زوجته فمنعه الطبيب فلما أخطره أنه سيكتفى بالنظر عن بعد سمح له . ورأى الممرضات يهيئن الحبل السرى وتونيا مستلقية ورأسها مرتفع كأنما هى جالسة الى منضدة . بدت منهكة لما قاست من آلم .. ولاحت ليورا كأنها مركب شراعى مستلق وسط الميناء بعد أن أفرغ حمولته ، مركب ينتقل بين الحياة وعالم مجهول ، يسير مخترقا بحار الموت ، وحمولته هى أرواح جديدة مهاجرة . وها هى روح قد هبطت الى الدنيا . والمركب الآن ألقى مرساه ، مستريحا بتخففه من حمله . انها تستريح تماما من رحلتها . وذكريات العالم الآخر وشطآنه تغسل المتاعب والمشقة وعناء السفر .

وكما أن أحدا لا يعرف المملكة التى ينتمى اليها ذلك الشراع ، كذلك هى صارت لغتها غير مفهومة فى ذلك الوقت .

- ٣ -

سرعان ما استقر باشا وعائلته فى مدينة يورباتن . فان أسرة لارا كانت على علاقة طيبة بالناس ، مما سهل لها تذليل صعوبة اعداد مسكن جديد . وها قد مضى على استقرارهما أربع سنوات فى تلك المدينة .

كان لدى لارا الكثير مما يشغل وقتها ويحتاج الى جهد متصل . فهى ترعى المنزل كما ترعى ابنتها (كاتيا) التى بلغت الثالثة من عمرها . وعلى الرغم من أن خادمة الأسرة ، ذات الشعر الأحمر

كانت تبذل كل جهدها فى خدمتها غير أنها لم تستطع النهوض وحدها بكافة الأعباء . والى جانب هذا كله فان لارا تشارك زوجها مطالعاته ثم انها تؤدى واجبها كمعلمة بالمدرسة الثانوية للبنات . هذا هو العمل الشاق الذى تؤديه . ولكن هذا أيضا هو نوع الحياة التى كانت تحلم بها وتتمناها . وانها لتحب يورياتن حيث رأت عيناها النور . وهى مدينة يمر بها الخط الحديدى لمنطقة الاورال ، وتقع على نهر (رينفا) الذى هو صالح للملاحة تماما اللهم الا المنطقة التى ينتهى عندها جريانه .

وكانت آية قدوم الشتاء هناك تتجلى فى أن يحمل الناس زوارقهم من النهر على عربات . ثم تجر الى الحظائر الخلفية للدور ، وبعد ذلك يتركوها فى وضع مقلوب ، وتبقى هكذا فى الخلاء مترقبة حلول الربيع . واذا كان الناس يرون فى هطول الجليد نذيرا بالشتاء فان أهل ذلك البلد يشعرون بحلوله اذا ما تدلت المصابيح من تلك المراكب المقلوبة فى أفنية الدور . وهكذا كان بيت باشا زورق مقلوب ، حيث كانت كاتيا تلعب وتلهو ، وقد حجز عنها الزورق البرد والجليد .

وأحبت لارا أهل البلد ولهجتهم فى نطق الحروف المتحركة . أما المتعلمون منهم فانها تعجب بما انطوت عليه نفوسهم من سذاجة وبساطة ووفاء . وكان الناس يرتدون أحذية من اللباد وسترات من الصوف دون أكمام . هكذا فتنت لارا بتلك الأرض الطيبة وبمن عاشوا على أديمها . وعلى العكس منها كان باشا ابن عامل سكة حديد موسكو ، الذى صار كلفا بالعظمة والعظماء ، وبات حبه للعظمة داء

لا برجى منه برء ، وكان حكمه على أبناء المدينة قاسيا عنيفا اذ ضاق بجهلهم وخشونة حياتهم .

كانت لباشا مواهب خارقة بدأت تتفتح وتجلت هذه المواهب فى قدرته على الاطلاع الغزير والسرعة اللماحة فى استيعاب ما يقرأ . طالع فى الماضى كثيرا من الكتب بفضل لارا وتشجيعها . أما اليوم ، وهو فى هذا المنفى المنعزل ، فقد توفر له الوقت لمطالعات أعمق وأكثر بحيث لم تستطع لارا أن تجاريه..وهكذا أحب العظمة ، وكره البيئة حتى كان ينظر باستخفاف الى زملائه المدرسين ويتهمهم بالجهل والسطحية .

تخصص باشا فى الدراسات القديمة وكان يلقى دروسا فى ذلك الوقت فى اللاتينية والتاريخ القديم ، غير أنه استعاد اليوم ميله القديم الذى كادت جذوته أن تخبو باهماله وعدم تنميته ، منذ كان طالبا بالمدرسة الثانوية ، نعم استعاد ميله للعلوم الطبيعية والرياضيات . فراح يدرسها بنفسه حتى وصل الى مستوى جامعى فى هذه العلوم . وصبت نفسه للحصول على درجة علمية فيها ففكر فى الانتقال مع عائلته الى بتسبرج للالتحاق بقسم علمى من أقسام الجامعة .

كان يسهر الليالى الطويلة بين الكتب ، فصار كثير الأرق مما جعله معتل الصحة ثائر الأعصاب .

ان علاقته بزوجته طيبة وان لم تخل من تكلف وبعد عن الصراحة المرجوة . فان باشا كان دائب التبرم بما تسبغه عليه زوجه من حنان ولهفة . غير انه لم يستطع ان يصارحها بتبرمه وسخطه . اذ خشى أن

تسىء فهم كلماته الصريحة البسيطة فترى فيها تقريعا لها . وقد تصور لها حساسيتها المرهفة انه يشير من طرف خفى الى صلتها الماضية بالرجل الآخر ، وأنه يسخر منها ويحط من شأنها .

هكذا حاول كل منهما أن يكون أكثر حظا من الكرم والتسامح واللين فى معاملة رفيقه وشريك حياته ، ومن هذا الكرم والتسامح واللين تعقدت الأمور !

فى تلك الليلة نزل بساحتهم ضيوف من بينهم ناظرة المدرسة التى تعمل بها لارا كما وفد بعض المعلمين من زملاء باشا ، ورجل آخر هو عضو لجنة التحكيم وآخرون ، وكانوا جميعا فى نظر باشا حمقى أغبياء . فأدهشه أنها عاملتهم برقة وكانت حفية بهم فى حين أنه يعلم انها فى أعماق نفسها لا تميل الى واحد منهم .

فلما انصرفوا راحت تنظم الغرف مع الخادمة ، وما ان اطمأنت الى احكام غطاء كاتيا ونوم زوجها حتى خلعت ملابسها على عجل ،وأدارت مفتاح الكهرباء فساد الظلام ، واستلقت الى جواره ببساطة الطفل الذى يثوى الى أحضان أمه .

غير أن باشا لم يكن قد نام وانما تناوم . فهو كثير الأرق قليل النوم . ولما كان يعلم انه سيبقى ساعات طويلة ساهرا فانه ارتدى معطفه المصنوع من الفراء فوق منامته ووضع على رأسه غطاء من الصوف ومضى الى خارج الدار .

ليلة هادئة شديدة البرد .. مشى والجليد ينسحق الى فتات تحت قدميه . السماء تشرق بنجومها ملقية شعاعا نحيلا أزرق اللون كأنه

لهب انبعث عن جنية اسطورية لتلقيه على هذه الأرض ذات الطين المتجمد .

كان بيته فى الطرف الآخر للمدينة بعيدا عن ميناء النهر ، كما انه آخر البيوت ويطل مباشرة على ذلك الحقل الذى تقطعه السكة الحديدية حيث توجد قنطرة للعبور وجوسق للاشارات .

وجلس باشا على القارب المقلوب متطلعا الى النجوم وقد تنازعته الأفكار التى اعتادت أن تضطرب فى خاطره خلال السنوات الأخيرة، فرأى أنه من الأفضل أن ينتهى بهذه الخواطر المضطربة الى نهاية حاسمة بل من الخير أن يكون ذلك لتوه وعلى الفور .

نعم أن الأمور لا يمكن أن تستمر مضطربة كما هى الآن ، فهو يعلم منذ زمن بعيد انها لا يمكن أن تستقر . وحتى قبل أن يتزوجها عرف ذلك ، لم كانت تسمح له منذ أيام الطفولة ان ينظر اليها فيطيل النظر ؟ لم كانت ، وظلت حتى اليوم تحمله على أن يفعل ما تريده هى وترغب فيه ؟ لماذا تصر على هذا اللون من المعاملة حتى الآن ؟ أليس من الواضح انها لا تحبه هو لشخصه بل تحب غاية وضعتها نصب عينيها وتفانت فى أدائها ؟ أليس من الواضح كذلك ان ما تحبه ليس الا صورة تتخيلها عن بطولتها ونبلها هى ؟ ولكن ما للبطولة التى تتخيلها - مهما تكن فاضلة ونبيلة - والحياة العائلية العادية التى يألفها الناس ؟ وأسوأ من هذا كله هو انه لا زال يحبها كما كان فى الماضى . فحبها يكتسح القلب ولكن هل هو موقن ان هذه العاطفة هى الحب ؟ ألا يمكن أن يكون ذلك شعور تقدير لما انطوت

عليه نفسها من طيبة وسخاء ؟ ومن الذى يستطيع أن يجلو حقيقة هذه الأمور ؟

واذن فماذا يجب أن يفعل ؟ أيطلق سراح زوجه وابنته من قيود تلك الحياة المنطوية على الخداع ؟ ان هذا لأكثر أهمية من تحريره لنفسه . لكن كيف ؟ بالطلاق ؟ بالانتحار غرقا ؟ وثار على نفسه فان مثل هذه الأعمال سخف يثير الاشمئزاز . لا . لن أفعل شيئا من هذا القبيل .

وألقى البصر الى النجوم يستلهمها ويستوضحها . وتألقت النجوم صغيرها والكبير .. متفرقة ، أو متجمعة كالعناقيد ، بعضها أزرق وبعضها بلون القوس قزح . وفجأة انمحت صورتها . واذا بالدار والفناء وباشا جالسا على القارب قد التمسوا لهم جميعا مخرجا من محنتهم . فقد اكتسحهم فجأة ضوء مندفع غلاب . ربما كان شخص يجرى من الحقل الى الباب ملوحا بشعلة عارية . لا . بل هو قطار من قطارات الحرب ينفث فى السماء سحبا صفرا وأدخنة ملتهبة . وكان القطار قبل أثناء الليل وأثناء النهار طوال العام الماضى .

يجتاز القنطرة متجها الى الغرب كما اجتازته قطارات وقطارات من لا يلبث أن ينساه . غير أنه جاد فى عزمه ، فأرسل أوراقه الى مكتب لنفسها : ان هذا لجنون . انه يهذى . لن أعير الأمر التفاتا فانه

لما سمعت لارا بقرار باشا صعقت ولم تصدق أذنيها . وقالت وابتسم باشا ونهض الى فراشه ، لقد وجد الاجابة عما يريد ! التطوع ، وأوجدت المدرسة بديلا له . ثم تلقى أمرا بالسفر الى فرقة التدريب العسكرى فى مدينة (اومسك) .

وصرخت لارا كامرأة قروية وأمسكت بيديه وتمرغت تحت قدميه - باشا ! يا حبيبى لا تتركنا ! لم تفتنا الفرصة بعد . سأعمل ما يحلو لك ، انك لم تجتز الكشف الطبى بعد ، ويمكنك أن تتراجع الآن قبل أن يصارحوك بعدم لياقتك . هى الكبرياء التى تمنك عن الرجوع فى قرارك . أتهجرنا لمجرد فكرة جنونية عرضت لك . باشا ؟ ماذا دهاك ؟ أنت لا تعى ما تفعل . ما الذى حولك ؟ قل لى بالله أهذا حقا هو ما تحتاجه بلادنا ؟

فى تلك اللحظة توهج فى عقلها الهام غامض أدركت معه ما يدور بخلده . لم تفطن لكل التفاصيل ولكنها فهمت أن باشا أخطأ تقدير عاطفتها المشوبة بمشاعر الامومة نحوه . مع أن هذه المشاعر لم تكن الا جزءا من حبها له ، وان حبا كهذا لهو أكبر وأعظم ، وليس هو بالأقل ، من الحب المألوف الذى تحمله المرأة عادة فى قلبها لرجل من الرجال .

وعضت شفتيها ، وارتجف بدنها كأنما تنهال عليها السياط ، وابتلعت دموعها ، وجلست واجمة تهيىء له ما سيحمل من متاع .

فلما رحل خيل اليها أن المدينة كلها صماء ، وتادتها الخادمة فلم تسمع .. لقد منيت بأكبر هزيمة فى حياتها . وانهارت أجمل وأبهى أحلامها

وكتب لها من سيبريا كيف انه مشوق اليها والى ابنته . ولكنه ما لبث أن سافر الى ميدان الحرب ، وطاف حول بورياتين وموسكو دون أن يتوفر له الوقت ليراها ويرى ابنته

وكانت الرسائل التى أرسلها من الميدان لا تبين عن اليأس الذى احتوته رسائله من قبل ، ولكنه مع هذا مشوق يريد أن يبرز فى عمل من الأعمال حتى يكافأ عليه بأن يمنح أياما يقضيها مع أسرته . ولكن مرت فترة طويلة بعد ذلك لم تسمع عنه ، فسألت عنه فلم تجد جوابا يروى الظمأ . وكانت لارا قد تدربت على أعمال التمريض وأصبحت مؤهلة لمزاولتها . وصرحت لها المدرسة باجازة ستة أشهر . فتركت المنزل الى الخادمة . أما ابنتها كاتيا فقد تركتها فى موسكو بعد أن عهدت بها الى ليبا تلميذتها السابقة . التى كانت تعيش وحيدة هناك بعد أن اعتقل زوجها المهندس الألمانى منذ شبت الحرب .

ولايمانها بجدوى السعى فى اقتفاء أثر باشا ، رأت أن تذهب بنفسها للبحث عنه . وهكذا استقلت قطار المرضى الى الحدود المجرية حتى مدينة (ليسكى) التى تلقت منها آخر رسالة كتبها لها زوجها .

- ٤ -

كان قطار الصليب الأحمر يحمل المنح والهدايا لجرحى الحرب ، وهو قطار يجر عربات عتيقة بالية . وكان يحمل ميشا جوردن صديق زيفاجو ، الذى جاء مع المتطوعين ، قاصدا زيارة رفيق صباه ، الذى كان يعمل طبيبا فى ميدان القتال ، فى قرية مجاورة لذلك المكان الذى توقف فيه قطار الصليب الأحمر .

وكان سائق العربة التى حملته الى القرية ينطق اللغة لروسية نطقا غير سليم ، ومع ذلك فهو قليل الحديث وتلك عادة اعتادها الناس

خلال الحرب خشية الجاسوسية . شاهد جوردن فى طريقه آثار الحرب وويلاتها وسمع قصف المدافع ولمس لمسا زلازلها المروعة التى تثير الفزع وتدك معالم الحياة .

قرى خالية وأشلاء وأطلال تفرقت بينها عجائز من النساء راحت كل منهن تحتفر فى المكان الذى كان عليه منزلها قائما منذ وقت غير طويل . وكن ينظرن الى جوردن وهو يسير متسائلات بنظراتهن الكليلة الحزينة عن الوقت الذى تثوب فيه الانسانية الى رشدها ويرفرف السلام على ربوع الأرض .

ضل جوردون والسائق طريقهما فقضيا ليلة دون الوصول الى القرية التى يقوم فيها المستشفى . وفى الصباح استأنفت العربة سيرها فشم جوردن عبير البابونج ورائحة اليود سارية فى مروج الريف . وكان صاحبنا يعتزم أن ينفق ساعات يومه مع صديقه زيفاجو ثم يقفل عائدا بعد ذلك الى أصدقائه فى مقرهم بمحطة القطار ، غير أن الظروف اضطرته الى أن يقضى عنده سبعة أيام كاملة .

- ٥ -

تقدم الجند فى جبهة القتال غير أن العدو ما لبث أن ضيق الحصار على القوات الأمامية المتقدمة ، فقاتلت هذه غير انها لم تقو طويلا على القتال . وأسر الملازم باشا فيمن أسر . غير أن الناس ظنوه قد لقى حتفه ، وذلك تبعا لما سمعوه من صديقه جاليولين ، الذى كانت ظروف القتال المفاجئة تحمله على الاعتقاد بأن صاحبه استشهد ، وتحمل الناس على تصديق هذه الشائعة .

كان جاليولين قد رقى الى درجة الملازم بعد أن أبلى فى الحرب بلاء حسنا واستطاع أن يحسن التصرف فى المآزق . وكان يعرف باشا منذ أيام الصبا فى موسكو ، حينما أقام باشا فى بيت آل تيفرزن حوالى ستة أشهر خلال عام ١٩٠٥ . نعم كانا يلعبان سويا أيام الآحاد ، لكنه لم يعد يسمع عنه بعد ذلك على الاطلاق .

واذ تطوع باشا فى الحرب التقى بزميل صباه ، فأخذ جاليولين بما اعترى ذلك الصبى ، الذى كان فيه شىء من الانوثة ، من تطور خطير اذ صار شجاعا ذكيا ساحرا . كما راعه ذلك الطابع الحزين الذى يشع من نظراته ، اذا ما أطل من النافذة ، وظنه يفكر فى زوجته وابنته . نعم كانت بطولة باشا فى نظره أسطورة خلابة فى ميدان القتال . وها هو باشا قد مضى مخلفا لصاحبه أوراقه الخاصة وصوره. فاعتزم صديقه أن يرسلها الى زوجته كما يوافيها بالنبأ المفجع . غير أن الوقت لم يتسع لذلك . وها هو قد واتته الأنباء بأنها تطوعت لتكون ممرضة فى الميدان فلم يعد يعرف لها عنوانا .

- ٦ -

لما جلس جوردن الى صديقه الدكتور زيفاجو يتحدثان عن الحرب ، وويلاتها كان يدهشهما أن القرية التى يقوم فيها المستشفى سليمة لم تدكها القنابل ولم يحصدها الدمار ، نعم ان ذلك يعتبر معجزة من المعجزات .

واذ كانا يتحدثان سمعا دوى مدافع (البرتا) الألمانية تثير الرعب بقصفها وتدميرها .

وسأل الصديق ، الطبيب عن سر تلك الرائحة التى تملأ الحياشيم فأجاب بأنها رائحة أشجار القنب التى تتناثر بينها جثث الموتى .. فان أحدا لا يدفن موتاه فى هذه الأيام !

فلما خرج جوردن شعر أنه ليس من المثل الأخلاقية فى شىء أن ينظر الى الأشياء نظرة الخلى ، بينما يعانى الناس الويلات التى دفعتهم اليها شجاعتهم وعواطفهم النبيلة وجعلتهم يستهينون بالموت .

وسارا الى منطقة فى الغابة كانت المدافع قد حصدتها . وهال زيفاجو أن يطلع صديقه على تلك المشاهد التى ألفها هو وان كانت تمزق القلوب وتملأ النفس ألما بشعا .

حملت العربات الموتى والجرحى الى المستشفى . وصاح أحد الضباط فى وجه طبيب ولكن هذا نهاه عن الصياح فراح الضابط يلعن الصليب الأحمر والدنيا بأسرها .

حملت العربات رجلا أصيب اصابة فظيعة ، أخذ يرسل أنينا متقطعا حادا . ولم يكن هذا الأنين غير طلب للنجدة .. كان دعوة يدعو بها شخصا ليجهز عليه ويخلصه من آلامه التى لا تطاق .

وهرول نحوه جنديان جريحان .. فصاحت بهما الممرضة التى أدركت ما يعتزمان القيام به ، قائلة ان الجراح سيفعلها ! هذه مهنته ! وحمل الرجل وهو يئن وارتجف كل كيانه وما لبث أن قضى .

.. أما الممرضة فهى لارا . والمشاهدان لذلك المشهد الدامى هما الدكتور زيفاجو وجوردن .

أما الرجل الذى مات فهو والد الضابط وهذا الضابط هو جاليولين.

كل هؤلاء جمعتهم الحرب فى صعيد واحد .. منهم من لم يسبق أن لقى الآخر فى طرقات الحياة ، ومنهم من التقى برفاق له ، ولكنه عجز عن التعرف على أصدقائه القدامى . وكان على هؤلاء أن يصبروا حتى تكشف الامور وتميط اللثام عن شخصياتهم .

- ٧ -

تبدو فى أعماق الوادى محطة القطارات من بعيد .. وراح زيفاجو يمارس هوايته الشاعرية ويتأمل تلك المشاهد ، فالجبال بارزة بما حملت من أشجار الصنوبر والشربين ، بينما أمسكت قطع السحاب بقممها كأنما هى تلوح للصخور الرمادية التى ظهرت من بين الأشجار ظهور الثقوب فى قطعة قراء ضخمة الحجم .

كل شىء ينفث دخانا فى وجه السماء . القطار عند المحطة . والضباب الذى تزفره الحقول والجبال الرمادية . والغابات المظلمة والسحب الداكنة .

وتحدث الصديقان عن الحرب والصحافة التى بدأت تهتم بشىء جديد ، وكلمة جديدة أضيفت الى قاموس اللغة . لم تكن معروفة من قبل . انها كلمة الشعب . حتى القيصر نفسه رددها . ان القيصر كما

رآه زيفاجو أضعف من أن يحكم ويمنح الحياة والموت . انه أضعف من صورته التى ترسم على النقود .

وودع زيفاجو صاحبه عند نهاية القرية وبينما هو عائد أصابته شظية فسقط مضرجا بدمه فاقد الوعى .

- ٨ -

استلقى جاليولين وزيفاجو فى غرفة واحدة بالمستشفى حيث يعالجان . وكان الآخير يقرأ الصحف التى وصلت لساعتها بينما كان صديقه يطالع خطابات زوجته تونيا .

كانت النافذة مفتوحة والهواء يعبث بالأوراق فسمعت خطوات .

هى لارا جاءت الى الغرفة .

كان الدكتور زيفاجو وصاحبه يعرفان حقيقة شخصيتها ، بينما يظن كل منهما أنه الوحيد الذى اوثر بتلك المعرفة ولم يقدرا انهما تعرفهما معا .

وقال جاليولين - أنت لارا .. انى أعرف زوجك . كنا فى فرقة واحدة وحفظت مخلفاته هذه اليك .

فقالت : عجبا ! عجبا ! أتعرفه حقا ؟ يا للمصادفة ! قل لى عاجلا . ألم يقتل بشظية ودفن تحت دخان القنابل المتفجرة ؟! ها أنت ترانى أعرف كل شىء فصارحنى بالحقيقة ولا تبال .

وحاول أن يكذب ليخفف عنها اذ قال ان زوجها أسير لم يمت . وخرجت لتعود سائلة - كيف الحال .

وأراد زيفاجو أن يسألها عن سر ما أصابهـــا من اضطراب وان يصارحها كذلك بأنه يعرفها . فقد رآها مرتين من قبـل ، مرة وهو صبى فى المدرسة وآخرى وهو شاب فى الجامعة غير أنه خشى أن تسىء الظن بهذا التصريح . وفجأة انبعثت فى ذاكرته ذكريات ليـلة عيد الميلاد : جناز (أنا) منذ سنوات خلت ، والتابوت الذى احتوى الجثمان ، وزوجته تونيا التى أذهلها الخطب ولم يكف لها دمع ، ولمـا سألته لارا عن حاله أجابها بأنه طبيب يمكنه أن يعنى بنفسه فاعتراها الدهش لهذا الرد الجاف فليس فى كلماتها ما يسىء اليه . وراحت فى دهشها ذاك تتأمل أنفه الأفطس ووجهه الذى لا يثير الاعجاب .

كان الجو قلبا فى تلك الأيام ، تهب فيه رياح دافئـــة تهمس فى الليل برائحة الأرض الرطبة .

واضطربت المواصلات مرة بعد مرة . فهى تارة تعطل وتارة تسير . وراح النـاس فى كل مكان وفى كل ركن ، يتحدثون فى شـــئون السياسة .

وكانت أثناء نوبة عملها تزور حجرتهما وهى تتحدث الى نفسها (يا للمخلوق الغريب . شباب وعبوس ! لا يمكن أن يكلمه المرء وله هذا الأنف ! لكنه ذكى جدا ، له تفكير ساحر يجعله جذابا .. مهما يكن من أمره ، فهـو لا يعنينى فى شىء . وعلى أن انهى العمل الذى أقوم به لأرحل الى موسكو حيث ابنتى كاتيا ثم ننطلق معا الى يورياتن حيث أستأنف عملى فى المدرسة .

(مات باشـا ويجب أن أكف عن تمثيل دور البطولة فى ميـدان القتال) .

وبينما هى تخرج من الباب عجبت مرة أخرى اذ تصورت كاتيـا يتيمة ! فبكت بصوت مسموع .

لقد لاحظت تغيرا ظاهرا فى كل ما حولها ، كان الناس فيما مضى من الزمان يقدرون جميع ما تلزمهم به واجبات لها اكبارها وقداستها. ولكن أحدا اليوم لا يهتم بها . نعم تغير كل شىء فى برهة من زمن وبات الانسان لا يعرف ما الذى يجب أن يتبعه ويؤديه . ولم يعـــد هناك أصدقاء أو أقارب يؤثرون المرء بالنصح . ان على كل أن يجد طريقه وهدفه بعد أن اختلطت الطرق وضاعت الأهداف . أما هى فيجب أن يكون لها هدف ، وهدفها هو ابنتها كاتيا التى ستكرس لها حياتها .. نعم لم تعد هناك أهداف ومثل .

وعلم زيفاجو أن كتابا له نشر فى موسكو ولقى نجـــاحا يبشر بمســـتقبل أدبى كما واتته الأنباء بأن المدينـــة الكبيرة تعانى من الاضطرابات والقلاقل . فالجمـــاهير غاضبة والجو السياسى ينـــذر بعاصفة . وسمع زيفاجو الريح تئن شاكية مرددة : (تونيا ـ ساشا ـ انى أفتقدكما . أريد أن أعود) .

وتذهب الريح ، وهو ينام مرة ويستيقظ أخرى وقد تقاسمته النشوة والآلام والجو القلب والليل المضطرب . وتعرفت لارا على جاليولين .. زميل طفولتها . انها تذكر ذلك الطفل الذى كان يلعب معها فى ذلك البيت . نعم فى ذلك البيت نفسه . فى تلك الســنة ، نعم تلك

السنة بعينها .. سامحنى أيها الملازم اذ لم أفطن الى ذلك من قبل . صار الأطفال رجالا والتحقوا بالجيش . انهم هؤلاء القوم البسطاء الذين جاءوا من ذلك البيت ومن بيوت أخرى تشبهه ، ومن الريف أيضاء جاء أمثالهم .. كلهم جاءوا الى هنا . ما أعجب ذلك ! ما أعجبه !

وثب المرضى من فراشهم مهرولين وبعضهم سار متكئا على عصى وكلهم يصيح : اندلعت الحرب فى شوارع مدينة بتسبرج . انضمت حامية بتسبرج الى المتمردين . انها الثورة !

الفصل الخامس

وداعا أيها الماضى

تقع المدينة التى انتقل اليها المستشفى فى منطقة خصبة الانبات سوداء التربة ، ينتشر فيها التراب طوال النهار كأنه أسراب الجراد . كان الجند يسيرون فيها فى كل اتجاه ، منهم من يذهبون الى جبهة القتال ومنهم من يعودون منها . فصار من المستحيل التحقق مما اذا كانت الحرب قد وضعت أوزارها أو أن رحاها لا زالت بعد تدور .

وكان قد أنيط بكل من الدكتور زيفاجو وجاليلولين ولارا أعباء جديدة راحت تتكاثر وتتضاعف يوما بعد يوم كما تتكاثر الفطريات . كانوا هم وغيرهم من أبناء المدن يعتبرون من ذوى الخبرة والعلم فاختيروا لكل ماجد من أعمال اللجان فى المجلس البلدى ، ولتنظيم شئون الجند والصحة . وكانت هذه الأعمال لونا من الترويح فى أول الأمر غير أنها صارت من الكثرة بحيث حملتهم على التفكير فى العودة الى بلادهم لاستئناف حياتهم الطبيعية .

وكان زيفاجو ولارا يعملان معا على الدوام .

- ٢ -

أحال المطر التراب القاتم الى طين فى لون القهوة . وانتشر الوحل فى الطرقات التى لم تكن مرصوفة .

كانت المدينة صغيرة يمكن أن تكشف معالمها بالنظر اليها من نهاية أى طريق من طرقها ، فترى السماء القاتمة والريف الرحب الممتد وقد كدرت صفوه الثورة والحرب .

وكتب زيفاجو الى زوجته :

(كان على أن أهتم ببعض وحدات الجيش فى المنطقة . ان الأمور تزداد اضطرابا على الرغم من انهم يبذلون غاية جهدهم لاقرار النظم واصلاح الأمور .

(وفى حاشية هذا الكتاب أود أن أخبرك بأمر قد أكون أخطرتك به من قبل . وهو يتعلق بوجود سيدة تدعى (لارا) وهى من بنات موسكو وان كانت قد جاءت الى هنا من منطقة الاورال .

(أتذكرين الطالبة التى أطلقت الرصاص على النائب العام وما حدث خلال تلك الليلة المروعة التى توفت فيها والدتك ؟ أظن انه كانت هناك محاكمة بعد ذلك . أذكر أننى قلت لك أننى لقيتها مع ميشا فى أحد الفنادق الحقيرة حيث صحبنا والدك اليها فى ليلة شديدة البرد . كانت تلميذة اذ ذاك .

(حاولت مرات أن أعود اليكم غير أن الأمر ليس هينا وليست المشكلة فى كثرة الأعمال ولكن فى صعوبة الانتقال نظرا لقلة القطارات المسافرة ولصعوبة ركوبها فى هذه الأيام .

(ولكنى سأنتهز أى فرصة وقد أهبط عليكم فجأة وان كنت ساحاول ارسال برقية أخطركم فيها بحضورى) .

وتسلم رد زوجته تونيا وكانت فقراتها مضطربة ويبدو أنها كتبتها وهى تبكى فقد لمح أثر الدموع على الكلمات التى ترجوه فيها ألا يعود الى موسكو .

وانما عليه أن يصحب الممرضة الرائعة ذات الكفاح المجيد فى الحياة أما هى فلا تستطيع ، بوسائلها البسيطة ، أن تنافسها فى هذا الميدان . كما ترجوه أن يطمئن بشأن ولده ساشا فانها سوف تنشئه على المبادىء العظيمة التى درجت عليها ، وهى تعده بذلك وعدا صادقا .

وتردد زيفاجو ان يرد عليها قائلا : (انه لمن الخبل أن تعتريك مثل هذه الأوهام . فلولاك أنت ، ولولا ايمانى بك ووفائى لأسرتى لما كانت لى القدرة على الصمود أمام المحن التى لاقيتها خلال هذين العامين الرهيبين . لكن الكلمات لا تعبر عما أريد وسوف يلتئم الشمل قريبا وستبدأ حياتنا من جديد واذ ذاك يتضح ما غمض من الأمر .

(يبدو أن خطابى السابق كتب بطريقة مبهمة بحيث اضطربت المعانى فلم أحسن التعبير ولم تحسنى الفهم . ومن ثم يجب أن أعتذر الى لارا ، تلك الشخصية التى آذيناها بلا ذنب . أتعلمين أنه على الرغم من أننا نعيش تحت سقف واحد فاننى لا أعرف أين تقع غرفتها فى هذا المبنى) .

- ٣ -

شبت ثورة فى مدينة زابوشينو أعلنت على أثرها استقلالها وصارت جمهورية مستقلة عن روسيا ! وهذه المدينة الصغيرة تهتم بالقمح .

فهى من أخصب البقاع ، وفيها صناعة ، غير أنها تعتمد على غيرها من المدن .

وقام بالثورة رجل من رجالها انضم اليه جنود أحد الفيالق ممن عادوا من الميدان ، وأقام حكومة متأثرة بمبادىء تولستوى . ولا عجب فان زابوشينو كانت تعيش بالخرافات فهى مولعة بالأساطير منذ قرون ، تستوحيها من الغابات الكثيفة المحيطة بها .

وما لبثت أن أحاطت هذه الأساطير زعيمهم الجديد ومساعده بالأعاجيب فقيل عن هذا الأخير انه كان قد ولد أبكما ثم استطاع التخلص من آفته . وذلك بارادته التى دفعته الى التفوق فصار بطلا .

غير أن هذه الجمهورية التى استقلت عن روسيا لم يقدر لها أن تعيش غير خمسة عشر يوما .

- ٤ -

كان النزل الذى احتله المستشفى العسكرى ملكا لكونتيسة قبل الاستيلاء عليه ، وكانت تتخذه مصيفا حينا واستراحة حينا آخر .

ومن بين الشخصيات التى تركتهن الكونتيسة فى قصرها امرأتين احداهما (مودموازيل فلورى) التى انحدرت من أصل لاتينى ، وتستميلها المغامرات الغرامية فطاب لها أن ترسم لخيالها قصة حب تجمع بين لارا وزيفاجو . أما السيدة الأخرى فكانت سليطة اللسان تكيل الشتائم لهؤلاء الثوار ، وتعجب بنفسها وتعجب بها صاحبتها كذلك .

- ٥ -

لما ذهب زيفاجو الى حاكم المدينة الجديد ليحصل على بعض الوثائق التى تجيز له السفر الى موسكو أتيح له أن يلمس كيف أن الحاكم الجديد شاب غض الاهاب يملؤه الغرور ويصطنع الكبرياء ، وقد ارتدى زيا يكسبه من المظاهر ما يتفق مع غروره وكبرياءه ، كما أنه يسوق الكلمات المعسولة الجوفاء .

وكانت التعليمات تقتضى بأن تستدعى فرقة من الجنود القوقازيين الذين يعسكرون قريبا من المدينة ، كى تقوم بقمع بعض الثائرين الذين هجروا أعمالهم ورفعوا راية العصيان .

غير أن الحاكم الشاب المغرور رأى ألا ضرورة لذلك وأنه يستطيع أن يقنع هذا النفر من العصاة بالعودة الى أعمالهم وقال بلهجته المغرورة - ما هم الا بشر كسائر الناس ، وأنت تستطيع أن تؤثر فيهم اذا ما عرفت السبيل الى مخاطبتهم واثارتهم . سأذهب اليهم بنفسى وأحادثهم حديثا وديا وأقنعهم بالعودة الى أعمالهم . أتراهنون على أنى أستطيع ذلك ؟ سأقول لهم - أن يتخذونى مثلا فأنا وحيد والدى لكنى تخليت عن اسمى وعائلتى ومركزى فى سبيل الدفاع عن حريتهم ، وهى أعظم الحريات التى منحت للناس . ان العابثين يعبثون بعقولهم لكى يتخلوا عن واجباتهم فى الوقت الذى تنزف فيه البلاد دمها .

وضاق زيفاجو بما شاهد من مظاهر غبائه كما ضاق بنفاق من حوله وتأييدهم له فى كل ما يقول .

- ٦ -

الليل ، والقمر والمروج .. راح زيفاجو يتأملها ويتمثل صورها الرائعة . وقيل له أن لارا بحجرتها ولكنه خشى أن يوقظها من نومها . وفى تلك الليلة كان فياض العاطفة مشبوب الخيال .

ولقيها فى اليوم التالى وقد اهتمت بكى الملابس ، وحدثها عما ينتظر وقوعه من الأحداث ، وما قد يقع من شغب واضطراب غير ان صاحبته ما برحت منهمكة فى عملها .

وردت على قوله بأنها مرتحلة عن قريب ولن تهتم بشىء من هذا . قالت هذا وهى لا تزال تولى ما فى يدها عنايتها ، فضاق بما تفعل وأراد أن يحدثها حديثا فياضا عن مشاعره وأسرته وابنه وقصة الحب التى تجمع بينهما فى خيال مدام فلورى .

وتحدثا مرة أخرى عن ذلك التطور الضخم الذى انتهوا اليه والذى انطق الناس فى البيوت والأحجار بالحديث فى الفلسفة وفى السياسة . استيقظت روسيا وثارت ، وثار كل فرد فيها واجتمعت ثورة الجماعة وثورة الأفراد .

ارتعش صوته ينم عن مشاعره المضطربة ، فتوقفت لارا عن كى الملابس ، وبعد فترة صمت سادها القلق اندفع هو محدثا بما صادفه من كلمات (اننى أتوق فى هذه الأيام الى حياة شريفة مثمرة ، وكم أود أن أسهم فى هذا التطور الجارف المندفع غير اننى لا أصادف الا

نظرات حائرة تثير الأسى والحيرة . كأنها تطل على عالم غامض . ولكنى أراك من ناحية أخرى سعيدة بالحياة .. انى مهتم بك .. ويخيل الى أنه لو كان لك زوج أو صديق ونبهنى لكى أكف عن الاهتمام بك .. لو قال لى ذلك لما ترددت فى أن أدفعه وألقيه أرضا .. معذرة أنا لا أعنى ذلك .

خانه صوته فهز رأسه يائسا .. ووقفت لارا تاركة مكواها .. واقتربت منه وقد أولاها ظهره وقالت فى صوت رقيق كأنما تحدث نفسها ـ وقع ما كنت أخشاه .. لا يا يورى . لا يجب أن تفعل هذا .

قالت ذلك وهى تسرع الى مكواها التى تصاعد من تحتها دخان احتراق ! ولم يحاول أحدهما تفسير ما حدث . وبعد أسبوع كانت لارا قد رحلت .

- ٧ -

آن لزيفاجو أن يعود ولكنه يشهد أحداثا قبل أن يبدأ رحلته . سمع من مودموازيل فلورى بما كان من أمر ذلك الحاكم الشاب الغر الذى لم يستطع اقناع العصاة . فاستدعى الجنود القوقازيين ووقف متفخا متشامخا يحدثهم عن الواجبات الضرورية التى تجب عليهم . ولم تحرك الكلمات مشاعر الناس فقد سمعوها مرارا ومرارا .

سخروا منه وحاول أن يقوم خطيبا فيهم مرة أخرى فأخفق ومشى بينهم وجلا مصطنعا الكبرياء . كان الجند قد ضاقوا بسخفه وألفاظه المنمقة الجوفاء كما ضاق به عامة الناس فاتهموه ولعنوه . فهرول

متجها الى النهر بجوار المحطة وطاردوه حتى غرست قدمه فى الماء وأخيرا أنقذته رصاصة فى العنق من المأزق .

- ٨ -

عملت مدموازيل فلورى المستحيل لتعين زيفاجو على ايجاد محل له بالقطار ، وذلك بمعاونة صديق لها ممن يتصل عملهم بالمواصلات.

ويوم سفره كان الجو خانقا عاصفا ، وانتشرت حشود من الناس تحجب حشائش تلك البقعة المنبسطة من الأرض بجانب المحطة ، حشود تتلهف على السفر منذ أسبوع .

وكذلك امتلأ القطار السرى ، الذى كان يسير ويقف تبعا لتعليمات محددة ، ويقوم عليه حرس من الجند .

وبعد أحداث ومضايقات كان القطار يقترب من موسكو .

الفصل السادس

معسكرات موسكو

نعم كان القطار يجرى الى موسكو ولكن الزمن ساكن لا يتحرك .

وانثالت عليه صور الماضى والمشاعر تجتاحه وهو يجتاز حى (سمولنسكى) حيث كان الناس يتزاحمون فى السوق الذى صار لا بيع فيه ولا شراء .

ودق الجرس بقلب وجل مضطرب . لم يفتح الباب بعد . انه يزداد قلقا . هى تونيا التى فتحته . يا للمفاجأة ! ماتت على الشفاه الكلمات . ولكن الباب ـ وقد انبسط على مصراعيه أمامه ـ هو فى ذاته ترحيب، كأنه العناق . واستغرقت الدهشة برهة وانطلقا يتحدثان فى وقت واحد .

ـ أولا . هل الجميع بخير ؟

ـ نعم . نعم بخير . كتبت لك أشياء سخيفة . سامحنى . ولكن لنتحدث عن هذا فيما بعد . سيأخذ (ماركل) حاجياتك ربما أزعجك ألا تفتح لك الباب خادمتنا العجوز . انها فى الريف .

ـ تبدين نحيلة ولكن ما أروع شبابك وجمالك . لحظة واحدة سأدفع أجر العربة .

ـ الكل يسأل عنك

ـ كيف حال ولدنا ساشا ؟

ـ بخير . حمدا لله . لولا أنك آت لساعتك من تلك المناطق التى ينتشر فيها التيفوس لدعوته فورا للقائك .

ـ وهل والدك بالبيت ؟

ـ ألم يخبرك أحد ؟.. انه بمجلس المدينة يعمل من الصباح الى المساء .

ولقيه الخادم ماركل الذى كان قد ذهب لشراء بعض الدقيق ليقول ـ يا الله أهو أنت عزيزنا يورا بعينه ؟ ربما نسيتنا يا نور العين . اننا نصلى لك كل مساء . شرفتنا

وتجاذب الحديث مع الخادم العجوز الظريف ، وراح يسأله عن عائلته وأفراد أسرته وعن ابنته (مارينا) فيرد مثرثرا فى ود .

- ٢ -

ـ ما هذه اللفافة التى تنضح بالدسم ؟ انها تشبه الطائر . انها بطة . ما أبدعها . من أين لك بها ؟ أكاد لا أصدق عينى

ـ أهدانى اياها رفيق سفر صحبنى فى القطار . سأقص عليك ذلك فيما بعد . أين سنضعها ؟ أتركها بالمطبخ ؟

ـ نعم ستنظفها الخادمة . يقولون ان الشتاء القادم يحمل معه أهوال البرد والجوع

ـ هذا ما يرددونه فى كل مكان . منذ فترة قصيرة كنت أطل من نافذة القطار مفكرا وخيل الى أن أجمل ما فى الحياة هو ان يعيش المرء سعيدا مطمئنا مع أسرته . هذا ما نستطيعه أما غير ذلك فليس بيدنا .. ويبدو أننا سنواجه المحن ، وأود لو أرسلكم الى مكان أمين ، الى فنلندا مثلا ، أما أنا فسأبقى هنا كرجل يسهم فى الأحداث ..ولكنا لن نصعد الى المسكن أبدا . هيا بنا . كانما تسمرت أقدامنا على الدرجات .

كانت تونيا قد أفضت اليه بأنهم تنازلوا عن الطابق الأول من المنزل للأكاديمية الزراعية ، فأثنى زيفاجو على ذلك وذكر أنه ليس من الحياة السليمة فى شىء أن يكون للأغنياء مسكن بالغ الاتساع بينما هم فى غير حاجة اليه .

ـ عندى خبر هام نسيت أن أفضى به اليك . عاد خالك كوليا .

ـ خالى كوليا ؟ غير معقول ؟ أهذا ممكن ؟

ـ هذا صحيح . كان فى سويسرا وجاء عن طريق لندن وفنلندا .

ـ أيمكننى أن أراه الآن ؟ هل رأيته أنت ؟

ـ لا تكن عجولا فهو الآن فى الريف ووعد بالعودة قريبا . لقد تطور تطورا يدهشك . أصبح ثوريا . ولكن يبدو أننا لن ننتهى من ارتقاء هذا الدرج . اذا فقد سمعت أن الأزمات ستواجهنا .

ـ سنصبر ونشهد .. لن نموت على كل حال

ـ يقولون انه لن يتوفر فى البيوت ماء أو كهرباء . وستلغى العملة .

ولن يكون هناك تموين .. هيا لنصعد سريعا .. اسمع قيل لى أن هناك مواقد حديدية صغيرة ظهرت حديثا ويقال أن واحدا منها يمكنه أن ينضج الطعام باحراق أوراق جريدة من الجرائد .

- فكرة حسنة سنذهب لشراء واحد منها . لكن تصورى عودة خالى كوليا .

- سأقول لك ما أعتزم عمله . سنعد ثلاث غرف لنا فى سطح المنزل ونقيم بينها وبين الغرف الأخرى حاجزا . ونتنازل عن باقى المنزل . وبهذا يمكننا توفير الدفء فى ذلك الجزء المحدود من البيت . من يدرى فلعل الله يتيح لنا التغلب على هذه المصاعب .

- لا شك أننا سنتغلب عليها .. يجب أن نهيىء البطة وندعو خالى .

- سندعو الأصدقاء كلهم .. سأذهب لأنظر ولدنا ساشا وعندما ستعد لاستقبالك سأدعوك .

- ٣ -

أهم ما له فى المدينة هو ولده الصغير . فقد دعى (يورى) الى الحرب بعد مولده مباشرة فهو لا يكاد يعرفه .

نعم انه سمع صراخه اذ ولد فى المستشفى . وكان صوته يشبه صوت والد تونيا ، ولهذا ، وللاعتراف بفضل هذا الوالد أطلق على ابنه اسم جده مختصرا . ثم رأى صورة للصغير بعد ذلك كانت قد أرسلتها له زوجه وكان الولد يبدو فى الرسم بدينا قويا .

أخذ يورى ينظم أمتعته ولاحظ تغير الأثاث والأوراق التى تكسو الحائط .. كانت هذه الغرفة مخزنا فيما مضى من الزمان ، يلقى فيها بالمقاعد البالية . وكان الأطفال يلعبون فى أرجائها اذا ما ضاق بهم البيت فى أعياد الميلاد وأعياد الفصح .. وجعل يتأمل صور الزمن الخالى .

ثم دعته تونيا لرؤية ولده ساشا .

وكانت غرفته هى نفس غرفة تونيا أيام دراستها . ولاح الطفل جميلا كما كان فى الصورة غير أنه كان فى واقع الأمر صورة حية من (ماريا زيفاجو) والدة يورى .

- هذا بابا .. لوح له بيدك كما يفعل الأولاد الظرفاء .

وأمالت الصبى ليقبله زوجها ويحمله . وسمح الطفل للرجل أن يقترب منه ثم أمسك بثوب أمه باحدى يديه وضرب الأب على وجهه باليد الأخرى . وأزعجه ذلك فألقى بنفسه فى أحضان والدته وراح يبكى بدمع غزير .

قالت الأم معاتبة : انك ولد شقى . ما كان لك أن تفعل ذلك يا (ساشنكا) . ماذا يظن أبوك ؟ والآن هيا قبله .. لا تبك يا غبى .

وقال يورى - اتركيه يا تونيا ولا تزعجيه . أعرف السخف الذى تبادر الى ذهنك . ولكن ما فعله الطفل ليس مستغربا فهو لم يعرفنى من قبل وسنكون أصدقاء منذ الغد .

غير أن يورى شعر بالحزن والتشاؤم وهو يخرج من الحجرة .

- ٤ -

فى الأيام التالية شعر يورى بمعنى الوحدة حقا . الأصـــدقاء القدامى صاروا غرباء عنه . لم يحتفظ واحد منهم بدنياه وعالمه الذى كان له فيما مضى . ان صورهم التى احتفظ بها يورى فى ذاكرته هى أنضر حيوية مما هم فى واقع الأمر . وصار لا يرتاح الى أحد غير تونيا ووالدها واثنين أو ثلاثة من زملائه كانوا من عامة الناس ، ممن يمارسون أعمالهم العادية فى تواضع واستقامة دون لغط أو خطابة .

لما أعدت البطة كانت المائدة فاخرة حقا ، لندرة مثل هذا الطعام فى ذلك الوقت . لكنهم لم يجدوا فى الدار خبزا . وحتى الخمر ، التى حملها اليهم سرا صديقه جوردن فى زجاجة دواء ، أخذت تونيـــا تصبها فى كؤوس وتمزجها بمقادير مختلفة من الماء ، فصار مذاقهـــا باعثا على الاشمئزاز .

ولكنه كان حزينا لأن غيرهم من الناس لا يتوفر لهم مثل هـذا الطعام . فليس وراء نوافذ البيوت عبر الشارع غير الظلام والجـوع السائدين فى المدينة الكبيرة التى خوت حوانيتها وأقفرت .

ورأى أن أفضل وسائل الحياة انما تتحقق بأن يعيش المرء كمـــا يعيش ســائر الناس ، وان يندمج فى خضم الجمـاعة دون أن ينفرد بذاته فالسعادة التى لا تظل سائر الناس ليست هى السعادة المنشودة . وهكذا فان البطة وشراب الفودكا فقدا ما لهما من مذاق شهى ما دام الطعام مقصورا على فريق واحد دون عامة الناس .

كما ضاق يورى بأصدقائه الذين تغيروا عما كانوا عليه . وظهر تكلفهم واستيقن أنهم ليسوا كما كان يتصور .. نكات سخيفة ،وحديث لا طائل تحته فى الشعر والشعراء والأدب .

غير أن الحدث الذى راعه حقا هو رؤيته لخاله كوليـا الذى زاره قبل الحفل فى فندقه المتواضع ، كما كانت الفنـــادق فى تلك الأيام . وكانت لا تقبل النزلاء دون أمر من سلطات المدينة واستطاع كوليا أن يحصل على غرفة فيه بمعاونة أحد معارفه القدامى .

وخيل الى يورا أن الفندق الموحش المهجـــور مصحة للأمراض العقلية ، ترك لمرضاه أمر ادارته .

ولما أطل من نافذة غرفة خاله ، التى سادتها الفوضى ـ خيل اليه انه يطل على عالم الأحلام المفزعة المزعجة التى تعترى الانسان أثنـــاء الليل .

وكانت لحظة اللقاء بارعة رائعة وحادثا لن ينساه يورى . نعم انه أمام المعبود الذى عبده فى طفولته والأستاذ الذى استحوذ على أفكاره فى صباه .

انه يبدو أصغر سنا مما كان ، وعلاه شيب زاده روعة وجلالا .

وعجب يورى لخاله الذى انطلق متحدثا فى السياسة بلهجة هادئة متحررة ملؤها الثقة على خلاف المتحدثين الآخرين ، مما يظهر معـه أنه حديث عهد بالأمور الجارية . نعم كانت لهجته تلك أسلوبا باليا مضى زمانها . كما أنها لا تخلو من حرج لمن يستمع اليه .

وما أكثر الموضوعات التى طرقاها فى مسائل أخرى غير السياسة وساد الصخب والمرح، وراح كل منهما يضع ذراعه على عنق الآخر ، وهو يلهث مندفعا فى حديثه الشائق . نعم ان أوثق الروابط التى تجمع بينهما هى شغف كل منهما بالفنانين المبدعين . فعلى الرغم من أن صلة الرحم أحيت صور الماضى والذكريات القديمة ، وأطلقت لسان كل منهما ليتحدث عما صادفه من أحداث قريبة وقعت له ، الا أن اللحظات الحاسمة هى تلك التى لا يعرفها الا هؤلاء الذين يولعون بالأعمال الخلاقة . فى تلك الاويقات تلاشى الفارق بينهما ، فلم تعد تجمعهما صلة قرابة ، ولم تكن صلة بين الصغير والكبير ، وانما هما شخصان يتفقان تماما فى تقدير الطاقة المبدعة والمبادىء الأصيلة .

ولم يتوفر ليورى أن تحدث خلال العشر السنوات الماضية عن معنى الأدب ورسالة الكاتب بوضوح ، وهو موقن بأن من يستمع له يشاركه مشاركة وجدانية كاملة ، كما توفر له فى ذلك الوقت . كما أنه لم يجد من يفهمه ويدفعه ويشجعه خيرا من خاله ذاك .

هكذا كان اللقاء الأول مع خاله الذى اشتغل بالسياسة ودان بالمبادىء الثورية وحسب أنه يستطيع أن يكون مفكرا سياسيا يناقش المسائل فى أناة وريث ويطرق حديثها فى صالونات من طراز صالون مدام رولان بباريس .

وتحدث كوليا مع السكندر والد تونيا عن الأحداث الجارية فقال : انه لمن المخجل ألا تدرك هذا ، فالشعوب قد عاشت مدى العصور حياة لا تطاق . ارجع الى أى كتاب من كتب التاريخ . ومهما تكن ألوان

النظم السابقة فان الشعوب كانت تحيا حياة تأباها الطبيعة لما فيها من ظلم . وكان حدوث ما حدث متوقعا منذ زمن بعيد ، طالما ترقبته الدنيا وأعدت له .

ان ما حدث يشيع الضياء أمام الشعوب ويضع الأمور فى نصابها . ولذلك فان من العبث الاعتماد على البناء القديم ، بل يجب أن تصل الى تغيير الأسس وقد يختل البناء كله .. وهذا أمر سخيف حقا ولكن الخوف لن يحول دون وقوع الحدث . والمسألة بعد مسألة وقت . فكيف تنكر هذا ؟

ورد عليه السكندر وكانت لهجته محببة تغرى بالاستماع اليه .

ودخلت احدى الصديقات التى راحت تحيى يورى بكلمات ودية لا كلفة فيها . وتحدثت عن الثورة فقالت : ان الحرب أوجدت خلافا بين المحاربين وغير المحاربين . ويجب أن تحمى الفوارق . يجب أن نفيض بحر من الدماء يغمر كل انسان ويشمل هذا الذى لم يحارب ويجمع الكل فى وحدة . وهذا البحر الفياض هو الثورة .

وحين تقع يخيل اليك انها كالطوفان الذى لن يبقى على شىء . ولكن اذا امتد بنا العمر لنشهد تازيخ هذه المرحلة مدونا ، فاننا سندرك حقا أن لنا تجارب تفوق تجارب سائر الشعوب وستكون بلادنا أعظم البلاد فى نظامها الاشتراكى .

وحين هم الضيوف بالانصراف ، قال يورى لزوجه - تأخرنا كثيرا . هيا للنوم . أنت ووالدك أحب الناس الى .

- ٥ -

كان سبتمبر على الأبواب معلنا مقدم الشتاء ، وكانت النفوس منقبضة اذ تحتضر الطبيعة ، وتهامست جميع الشفاه بخوف مبهم .

يجب أن يتوفر الطعام والدفء ، ولكن المادة صارت فكرة مجردة، فى الوقت الذى طبق فيه المذهب المادى .

وما أشد بؤس سكان المدن الذين صاروا كالأطفال يواجهون أهوال المجهول ، ذلك المجهول الذى اكتسح كل المنافع ووضعها جانبا ولم يترك غير الفراغ .. مع ان ذلك كان عصر النهضة وانشاء المدن .

وتحدث الناس مخادعين أنفسهم ولم يفطنوا الى ما وراء هذه الحياة المضطربة والمصير المجهول ، غير أن يورى تبين الأمر على حقيقته ، وفطن الى ذلك المصير التعس ، فهم لن يلقوا غير النوائب بل قد يواجهون الموت .

وما أنقذه من تلك الهواجس غير حياته وعمله ومشاغله . ولم يجد خلاصه الا فى زوجه وولده ، وفى الحاجة الى الكسب، وفى ممارسته عمله اليومى المتواضع .

أدرك انه ليس غير قزم أمام عصر الآلات الذى يبشر به المستقبل، وكان يخشى الغد بقدر ما كان تواقا اليه ، بل انه شعر فيما بينه وبين نفسه بزهو لما سيأتى به ذلك الغد ، كان يرى ما حوله من شجر وسحب كما يرى عامة الناس الذين يسيرون فى الطريق ، مدركا أن

المدن الروسية الضخمة تصارع وسط المحن ، وكان يحس حيال ذلك باحساس المودع التارك ومع انه كان على استعداد لأن يضحى بنفسه فى سبيل الاصلاح ، لكنه عجز عن القيام بأى عمل .

كان يدهشه مشهد الناس ومشهد السماء وهو يعبر الطريق قريبا من منحنى الشارع بجانب صيدلية الجمعية الروسية الطبية .

عاد الى عمله بالمستشفى الذى كان لا يزال يسمى بالصليب المقدس مع ان الهيئة التى كانت تشرف عليه وتحمل هذا الاسم لم يعد لها وجود . اذ لم يفكر أحد بعد فى تسمية أكثر ملاءمة .

انقسم الذين يعملون بالمستشفى الى فريقين بالنسبة لزيفاجو ،فريق المعتدلين الذين أثاروه بتكتمهم وقد اعتبروه شخصا خطرا . أما الذين كانوا أكثر تأييدا للسياسة السائدة فقد اعتبروه شخصا لا يؤيدهم الى الحد الذى يرضيهم فأسقطوه من طائفتهم . وبالاضافة الى أعباء وظيفته العادية كلفه المدير بالاشراف على شئون الاحصاء بجميع أنواعه : نسبة الوفيات ، والأمراض ، والأجور ، والوعى السياسى فى الانتخابات ، وعدم توفر الوقود ، ومسائل الغذاء . والخدمات الطبية . كل هذا يجب أن يراجع ثم يرسل . وعمل يورى وأمامه الرسوم البيانية والجداول والاستمارات . وكان يستريح أحيانا لا ليدون ملاحظات طبية فحسب بل ليسجل فى مذكراته الكئيبة ذكرياته عن تلك الأيام ، وعن الرجال المقلدين (الماتيكان) .. واحتوت المذكرات على الشعر والنثر ، واصطبغ كل ما كتب باحساس قوى بأن نصف سكان الأرض تغيروا وراحوا يعملون . والله وحده يعلم حقيقة ما يفعلون .

ساد البرد والسحب الداكنة ، وظهر ما للسماء من سمت وارتفاع . وكان يتسرب اشعاع أزرق داكن من جهة الشمال فى الهواء الشفاف السائد بين الأرض والسماء . فتكتسب بذلك المرئيات والمسموعات جميعا وضوحا لم يكن لها من قبل . فالأصوات يحملها الهواء ، فى رنين بارد ، الى الفضاء الرحب الممتد . ويفتح الأفق عن الدنيا من أقصاها الى أقصاها كأنما تكشف عما سيحدث فى المستقبل . وما كان ليحتمل الانسان مثل هذا الضوء لولا أنه قصير الأمد ، وانه لا يحدث الا آخر النهار فى فصل الخريف قبل حلول الظلام .

هكذا كان الجو وهو يجلس الى مكتبه مدونا بقلمه ، بينما ألقت بعض طيور طائرة ، فى سكون وصمت ، ظلالها على يده وهى تسطر فوق الصفحات ، على المنضدة ، ثم لا تلبث هذه الظلال ان تنجاب .

ودخل معيد فى الكيمياء ليحدثه فى شأن المرضى ، وسأله عن شخص تعلم القتال فى الجيش وأصبح محاربا من الطراز الأول ،فهو يفعل كل ما يريد ويصل الى الهدف ولا يضيع وقته فى التفكير ، ولو كان فى غير هذا الزمان لما كان له ذكر . ولكنه بقدرته العملية على الوصول الى الهدف أصبح شخصية محاربة مرموقة .. هذه هى الفلسفة السائدة .

ثم سأله كيف وجد أخصائى الأفران الذى أرسله الى البيت لاصلاح الموقد فشكا يورى ذاكرا أن الموقد ما زال ينفث الدخان كما كان .

كان عامل الأفران حاصلا على دكتوراه فى الفلسفة من جامعة هيدلبرج .

بينما كان يورى يعبر الشارع بجانب (الطريق الفضى) وجد رجلا جريحا فاقد الوعى تحت المصباح فى تلك الليلة المظلمة القارسةالبرد . فاستدعى عربة وحمله الى المستشفى . وكان هذا الرجل شخصا هاما طالما أعان بطلنا فى الخروج من المآزق .

- ٧ -

اكتفت الأسرة بثلاث غرف فوق المنزل كما أرادت تونيا . ولكنهم لم يستطيعوا توفير الدفء . فقد كان عليهم أن يوقدوا الموقد ، الذى على الرغم من أنه لا يحتاج الى خشب ولا زيت الا أنه كان ينفث الدخان فتضيق به الأنفاس .

ونظر الخال كوليا خلال النافذة فرأى الحشود والرصاص ينهال . انها الحرب بين أنصار عهدين . وقال كوليا : « لا يجب أن نكون هنا . هيا يا يورى لنخرج ونشهد » .

ولم يثنهما عن المضى غير سماع أزيز الرصاص المنهمر وتوقف المواصلات .

وأصيب ساشا الصغير بالتهاب فى الحلق كما ارتفعت حرارته ولم يستطع والده فحصه الا بالحيلة والمشقة ، ورأى بعض نقط بيضاء تعتراه القلق . وبعد الفحص بالميكروسكوب ، الذى كان لدى أحد أصدقاء يورى ، حمد الله لأن الطفل لم يكن مصابا بالدفتريا .

واعترت ساشا فى اليوم الثالث نوبات تشنج وارتفعت الحـــرارة واحتبست أنفاسه . وظل (يورى) عاجزا عن احتمال النظر اليه وهو فى هذه الحال ، وحسبت تونيا أن الولد يحتضر .

واحتاجا لعلاجه الى بعض اللبن ومياه الصـــودا غير أن القتـــال فى الطريق كان على أشده ، فحتى لو نجح يورى فى اجتياز الطريق ، فانه لن يجد حانوتا مفتوحا فى الخارج ، اذ توقفت المدينة عن الحياة حتى ينجلى الموقف .

وشاعت أنباء انتصار العمال .

- ٨ -

غير أن القتال كان يستأنف بين الحين والحين ، وكان يتوقف فى بعض الأوقات فيدرك القوم أن مفاوضات تجرى بين الفريقين .

اندفع صبى يبيع الصحف معلنا انها تتضمن آخر الأنباء ، فطـار اليه .

وقال يورى : احتفظ بباقى المبلغ . وألقى اليه الصبى بصحيفة مبللة ثم اختفى .

وقف يورى تحت مصباح الطريق يقرأ العناوين . كانت آخر طبعة من الصحيفة التى طبعت على وجه واحـــد . انها تنشر اعلانا رسميا صادرا من بتسبرج بأن لجنة الشعب السوفيتية قد شكلت وهى تعلن قيام حكومة سوفيتيـــة تحكم باسم العمال . كما تضمنت أول قانون أصدرته الحكومة الجديدة وعناوين أخرى صغيرة .

كان الجو عاصفا ثائرا بالجليد ، ولم يكن ذلك هو الحـــائل دون الاستمرار فى قراءة الصحيفة وانما اجتاحت نفســـه هزة سرت فى كيانه فامتلأ وعيا بالحديث الجديد ودلالته ومعناه لدى أبناء القرون التالية .

وغابت عنه المرئيات ونسى موعد الصـديق الذى كان يعتزم زيارته ثم شغل بأمر له أهميته فى الحياة الجارية . فقد لمح بعض قطع خشب الوقود مكدسة فى الظلام أمام أحد المعاهد التابعة للحكومة .. وعليها جندى بغدارته يحرسها .

وفى الظلام وفى حذر غافله ليسرق بعض تلك القطع الخشبية .

- ٩ -

جاء الشتاء كما توقعوا .. شتاء مظلما جائعا باردا قدم ليشهد اختفاء كل ما كان مألوفا من حياة الناس ، وليغير الأسس التى تقوم عليهـا تلك الحياة .

وكانت انتخابات جديدة فى كل مكان . وكان الحكام المعينون فى البلديات والمتاجر والمصانع ممن يرتدون ملابس من الجلد ويمتازون بقوة لا حـــد لها ، ذوى ارادة من حـــديد ، وقد زودا بالشـــجاعة وبالمسدسات ، لا يحلقون ذقونهم الا نادرا ، ولا ينامون الا قليلا .

تغيرت أشياء كثيرة وسمى مستشفى الصليب الأحمر (بالاصلاح الثانى) وتغير بعض الذين يعملون فيه . وضاق كبار الأطباء الذين كانت لهم دالة على المجتمع فاستقالوا . أما زيفاجو فقد بقى فيمن بقى .

وراحت زوجته تفكر فى شئون طعامهم ، ولاحظت أنه يجهد نفسه مما يقلل من قدرته على مقاومة الوباء المنتشر . وكذلك يفعل والدها وهى تخشى أن يصيب أحدهما مكروه .

- ١٠ -

قاسوا مع من قاسوا من قلة الطعام الذى لم يكن شيئا آخر غير الشعير أو القمح المغلى ، وحساء السمك ، وقد بقى هذا كله طعام الكثرة لوقت طويل .

ودربت أستاذة من أساتذة الجامعة ، تونيا على اعداد خبزها فى الموقد . والغرض من هذا كله هو توفير بعض الخبز لتحصل بثمنه على وقود . وكان خبز تونيا طيبا ولكن هذا لم يوفر شيئا فى حقيقة الأمر . وخرجت تونيا (للصيد) ولم يكن الصيد الا الحصول على الطعام وعلى خشب للتدفئة . ووجدت شابا صحبها ، وهو يحمل حملا من الخشب. وأخذ صيوان الملابس ثمنا له . ولما علم يورى فيما بعد قال : ربما طلب البيانو ثمنا لبعض البطاطس فى المرة القادمة .

ودعا مريض الدكتور زيفاجو لعيادته بمنزله وكان الأجر المقترح لهذه الزيارة هو اما زجاجة من الكونياك الالمانى أو جوربا .

- ١١ -

استدعى مرة لعيادة مريض ، يسكن بمنزل بطل الشغب السابق ، العامل تيفرزن ، الذى صار بطلا شعبيا . وكانت الدار مقرا لاجتماعات

هيئة النساء العاملات . ورأى احدى الزعيمات .. وعرف انها أم صديق له . نعم هى أم جاليلولين وهمست فى أذن الطبيب ألا يذكره لأنه غير مرضى عنه فى النظام الجديد . ويحارب مناصرا العهد الذى كان . نعم هى أم جاليلولين . أما كبيرة الزعيمات فلم تكن غير أوليا العاملة صديقة لارا التى كانت تعمل بمصنع الملابس الذى كانت تمتلكه مدام جيشار فيما مضى من الزمان .

- ١٢ -

سقط زيفاجو من سوء الغذاء والجهد المضنى صريع ذلك الوباء الذى انتشر .. التيفوس .. وتراءت له الرؤى ، واضطربت فى خياله صور شاعرية .

لم تكن أشعاره تصف الموت أو البعث وانما تصف حالة مضطربة بينهما كما يدل على ذلك عنوان « الدوامة » الذى أطلقه على قصيدته .

وبقى ثلاثة أيام سويا ملتمسا وصف الأرض المليئة بالديدان وهى تصارع الموت فى سبيل الحب المجسد حتى عصفت الحياة بالموت فى آخر الأمر . نعم ثلاثة أيام سويا تخيل فيها الأرض الخانقة وقد تردد اعصارها الأسود بين الاقتحام والاستسلام . وبقى فى خاطره من تلك الصورة قوله :

(سعداء نحن بجوارك
و
للنهوض آن الأوان)

وكان قريبا منه بل كاد أن يمسه لهب النار والفســـاد والانحلال والموت كما كانت بجواره مريم المجدلية والحياة ! وحان زمن النهوض. النهوض والاشراق والبعث .

- ١٣ -

فلما أفاق لم يستطع ادراك الروابط التى تربط بين الأشياء ولم تكن المرئيات بقادرة على اثارة انتباهه .

كانت زوجته تطعمه الخبز الأبيض والزبد والشاى المحلى وناولته أقداح القهوة . وقد نسى أن مثل هذه الأشياء لم يعد لها وجود وباتت خرافية كالشعر أو جنيات الأساطير .

وسألها : من أين لك هذا ؟

قالت : وافانا به جرانيا .

- ومن يكون جرانيا هذا ؟

- جرانيا زيفاجو

- جرانيا زيفاجو ؟

- حسنا ! انه أخوك (يفجريف) من مدينة طمسك .. أخـــوك الغير شقيق .. انه يعبدك عبادة ، وكاد يموت جزعا عليك . أحضر لك هدايا نادرة : أرزا ، وزبيبا ، وسكرا . لا بد أن له صـــلات قوية . ونصح بأن نرحل بعيدا عن المدن الكبيرة مدة عام أو عامين . وقال :

عودوا الى الأرض . ورأيت أن نرحل الى تلك البقعة التى كان يتلكها جدى كروجر . نعم يمكننا أن نزرع الخضر فى الغـابة التى تحيط بالمكان . لا معنى لأن نموت كالأغنام دون أن نكافح .

وفى ابريل صحب زيفاجو العائلة كلها الى فاركينو قريبا من مدينة يوريانن التى تقع فى أعماق منطقة الاورال .

الفصل السابع

الرحيـــل

اعتزم آل زيفاجو الرحيل فى أواخر مارس .. فى الوقت الذى يمكن أن يسمى بالربيع الكاذب وكان يورى معارضا للرحلة التى قد لا يكون من ورائها جدوى . فانهم فضلا عن انهم يقصدون منطقـــة مجهولة ، فان كروجر جد تونيا ، والمالك السابق للأرض والغابات والمصانع فى فاركينو ، يعتبر عدوا للنظام الجديد .

غير أنهم اطمأنوا الى وجـود رجل مخلص كان يدير أعمـال كروجر ويقيم فى المنطقة .

- ٢ -

ذهب الى محطة القطارات ليجد وسيلة للسفر . فرأى النـــاس يقفون فى صفوف لا نهاية لها وكلهم يبغى الرحيل .. وعلى الأرض الحجرية استلقى قوم فى سترات رمادية تشبه ملابس الجند ، وكانوا يسعلون ويبصقون ، وفى أصواتهم حدة وارتفاع ، أكثر من المعتاد . كانوا ناقهين من مرض التيفوس وخرجوا من المستشفيات التى كان عليها ان تستقبل جرحى الحرب .

وأسر اليه حمال عليه مئزر .. أن عليه أن يحرز أسبقية فى حجز الأماكن ، فالقطارات نادرة ندرة الذهب والسفر نعمة لا يظفر بها الا

من واتاه الحظ . (وحك الرجل ابهامه باصبعين آخرين) ثم قال : قد يلزم بعض الدقيق . تعلم أن القطارات لا تسير بلا وقود (وقال وهو يحك رأسه) : ولن يمكنك أن تسافر دون بعض الفودكا .

- ٣ -

حصلوا بالمصادفة على بعض ما يحتاجونه فى رحلتهم وبينما ذهب الرجال الى المصـــالح الحكومية للحصـــول على الوثائق التى تسمح بسفرهم راحت تونيا تعد العدة ، وتهيىء الحقائب والأدوات اللازمة . كانت تفـــكر مرات قبل ان تستغنى عن شىء . وودت لو أنها قسمت المتاع قسمين . أحدهما يشتمل على ما يحتاجون اليه فعلا فى اقامتهم بمنطقة الاورال . وآخر يحتوى على ما يمكنهم بيعه للحصـــول على ما يلزمهم . وكانت تدير الأمر على وجوهه المختلفة وتحكم على قيمة الأشياء تبعا لما سمعته ممن سافروا من قبلهم .

وقيل لها : « ان المتاع يفتش فى الطريق ومن الخطورة أن يحمل المرء شيئا غير ملابسه . احذرى أن تأخذى حقائب كبيرة أو سلالا ، فلا يوجد حمالون . اعدى المتاع فى شكل حزم خفيفة يمكن للطفـل وللمرأة حملها فى غير عناء . ومن المفيد جدا أخذ كمية من الدخان والملح وان كان ذلك لا يخلو من خطر . وأصعب الأشياء التى يمكنك المحافظة عليها هى الوثائق .

وهكذا . وهكذا .

- ٤ -

وفى اليوم الموعود ثارت عاصفة ثلجية . فكانت السحب المنسوجة من الجليد تطير فى قلب السماء ، ثم تهبط الى الأرض كأعصـــار لتنطلق بعيدا فى الطرق المظلمة فتصبغها بلون أبيض ..

أعد المتاع ، وترك المسكن فى رعاية شخصين من كبار السن يمتون بقـــرابة للرجل الذى ســـاعدهم فى اســـتبدال الملابس والأثاث بالبطاطس وأخشاب الحريق .

لم يعد الخادم ماركل فى خدمتهم فقد انضم الى احدى الجمعيـات السياسية ، دون أن يتهم سادته بأنهم امتصوا دماءه ، وانما اتهمهم بأنهم تركوه أعمى يتخبط فى ظلمات الجهل .

أزاحوا المقاعد والمناضد الى جانب الحائط وأزالوا الستائر وتكدست الحزم فى الأركان . وكانت الغرف العـارية التى نزع عنهـــا دثار الشـــتاء ، والعاصفة الثلجية التى تهب خلال النوافذ العـــارية تثير أشجان الذكرى فاستعاد يورى ذكرى موت أمه ، أما تونيـا ووالدها السكندر السكندوفتش فتذكرا جناز أنا . وبلا وعى تسرب الى النفوس شعور بأنهم يقضون آخر ليلة فى بيتهم ، وأنهم لن يروه مرة أخرى ، وحبسوا الدموع وهم يسترجعون صور الحياة التى قضوها تحت ذلك السقف . ولكى تخفى تونيا حقيقة مشـــاعرها راحت تروح وتجىء متحدثة مع بعض النساء .

- ٥ -

تركوا الدار حين لاح الفجر ، وتصايح السكان مودعين . وتسربوا

من الباب الخلفى يرتجفون تحت ستراتهم الرخيصة التى ارتدوها .

وجاء ماركل الخادم السابق مخمورا وعرض أن يأتى بعربة ، ولكنه شعر بالاهانة اذ قوبلت مساعدته بالرفض .

ولا زال الفجر ، والرياح تهب ، والجليد أشد كثافة مما كان فى الليلة الماضية .

أفواج المسافرين تحتشد لتملأ الأرصفة . وكان عليهم أن يسيروا طويلا لأن القطار لن يصل اليها .

وسألت تونيا زوجها عن نوع أوراق الســفر وقال لهم رجل يعنى بشكليات الأمور ان الخاتم الذى ختمت به الأوراق يبيح لهم السفر فى العربات الفاخرة .

وضحك صوت ساخرا : عربات فاخرة !

فاخرة حقا ! ستكون محظوظا لو وجدت مكانا على المربط الذى يربط بين العربات . فرد عليـــه الرجل الأول : صحيح أنه ألغيت القطارات الخاصة ولم يعد يوجد غير نوع واحد من القطارات للجميع : للمحاربين ، والمساجين والحيوانات وعامة المسافرين .. ولكن يجب أن تحترم شعور الناس .. تكلم ولكن بهدوء .

فأجاب الرجل الثانى : ما أعظم هـــذا الذى قلته عن العـــربات الخاصة !. يجب أن تنظر مليا الى من تحدثه .. كيف يمكن لرجل له مثل هذا الوجه أن يركب فى العربات الخاصة ؟ ان هذه العربات ملئية بالبحارة ، والبحار له عينان يقظتان ومعه غدارة . ينظر اليه فمـــاذا

يرى ؟ يرى رجلا من طبقة الملاك أو من الطبقـــة الراقية . فيسحب غدارته وقل عليه السلام .

وكان بين المسافرين فريق ممن فروا من الجبهـــة وحكم عليهم بالأشغال الشاقة وهم يساقون الى المناطق التى ينفذ فيها الحـــكم فى حراسة شديدة .

- ٦ -

استمر الجو باردا ، وقضوا ثلاثة أيام بالقطار ومع ذلك لم يبتعدوا كثيرا عن موسكو .

وكان من حظ آل زيفاجو أن حصلوا على أسرة قريبا من ســقف العــربة الى جانب نافذة كبيرة معتمة لا تظهر منها المشــاهد ولا ينفذ منها ضوء . وهكذا اجتمع شمل الأسرة فى سفرها .

ولم يسبق لتونيا أن سافرت فى عربة من عربات البضائع التى بدت لها مرتفعة عن الأرض وذات أبواب تنزلق . وعندما ارتقى النســاء فراشهن كان يورى يحملهن فى أول الأمر ثم اعتدن الصعود بأنفسهن بعد ذلك .

لم تكن العربة فى نظر تونيا أكثر من حظيرة ماشية تجرى عــلى عجلات . وتوقعت أن تنقلب بهم منــذ الهزة الأولى .. وها هى قــد اهتزت ثلاثة أيام .. وكانت هزاتها من هنــا الى هناك ، وبين اليمــين واليسار ، كلما غير القطار من سرعته أو تحول عن اتجاهه . وللعجلات قرقعة سريعة من تحتهم كالعصيان التى تدق على طبلة دمية من الدمى ،

دقا آليا متصلا وكان القطار يجر ثلاثا وعشرين عربة ، فاذا ما وقف فى محطات القرى فانه لا يصل الى الرصيف الا العربات الوسطى أو عربات المؤخرة .

احتل البحارة عربات المقدمة وتلتها عربات الركاب ثم عربات ثمان فى المؤخرة تحمل السجنـــاء الذين لا يقل عددهم عن خمسمائة يجمعون بين مختلف الحرف ومختلف الأعمار والظروف .

- ٧ -

فى المحطات التى يقف فيها القطار كانت تونيا تجلس بحذر حتى لا تصطدم رأسها بالسقف وتنظر من ثنايا باب العربة لترى ما اذا كان من الملائم أن تهبط فيها . كانت تقدر ذلك تبعا لضخامة بناء المحطة وتبعا للوقت الذى يقفه القطار فيها .

وصادف أن استيقظت مرة والقاطرة تهدىء من سرعتها ، وكان عدد الاشارات والمعابر الحديدية التى مروا بها تنبىء عن وجود محطة كبيرة .

ومسحت عينيها وربطت شعرها وراحت تدلى يدها فى حزمة من المتاع لتخرج منشفة طرزت عليها أشكال تمثل الديكة وأطواق الخيل وعجلات . وكان يورى قد نهض هو الآخر فساعدها فى النزول . ولاحت (أكشاك) الاشارات ، وعلامات المرور المضيئة من باب العربة ، تتبعها شجرات تلوح مرحبة هى الأخرى بمناشف نسجها الجليـــد عليها . وقبل أن يقف القطار بوقت طويل قفز البحارة الى الأرض

التى كساها الثلج . وتسابقوا الى ذلك الركن من أركان المحطة حيث تتجمع الريفيات عارضات للبيع بعض الأطعمة بطريقة غير مشروعة .

وكانت ملابس البحارة السوداء وسراويلهم وقبعاتهم ذات الأشرطة المتطـــايرة تضفى على سرعتهم مظهر الطيش . فيفسح النـــاس لهم الطريق .

وانتحت الريفيات جانبا من المحطة وتوارت كل منهن خلف الأخرى، وقد جاشت بنفوسهن انفعـــالات كتلك التى يشعرن بهـــا وهن فى حضرة عراف يقرأ الغيب . انتظمهن صف واحد تحت مكان مسقوف، واحتمين بحائط من حوائط المحطة وكن يبعن الخيار ولونا من الجبن، وطعاما من لحوم الأبقار المسلوقة ، وفطيرا من الشـــعير يضعنه فى مناشف ليبقى ساخنا . احمرت وجوههن خجلا لما يسوقه البحارة من نكات . وان كن فى أعماقهن جزعات مذعورات لأن هؤلاء هم الذين يوكل اليهم عادة أمر الرقابة على السوق السوداء . وأنقذهن من ذلك الحرج المثير أن ســائر الركاب قصدوهن مع من قصـــد فانتعشت تجارتهن .

مرت تونيـا تلقى نظرة على السلع ، ومنشفتها على كتفهـا كما لو كانت تبغى بعض الجليـــد من خلف المحطة لتغتسل به . وناداتهـــا امرأة منهن .

– هاى ! ماذا تريدين نظير منشفتك ؟

غير أنها استأنفت سيرها ، وزوجها يرقبها عن كثب . وفى نهـاية الصف وقفت امرأة عليهـــا دثار قرمزى اللون ، وما رأت المنشـفة

حتى توقدت عيناها وتلفتت فى حذر واتجهت الى تونيا وكشفت عن سلعتها وهمست :

– انظرى هذا . أراهن أنك لم ترينه منذ أمد طويل . ألا تشتهينه؟ لا ترددى والا نفد . أتبادلين منشفتك نظير نصف واحدة ؟

ولم تسمع تونيا اللفظ الأخير

– أقول أعطيك نصف واحدة فى نظير المنشفة . لم تحـدقين فى هكذا . انه ليس من لحم الكلاب . ان زوجى صياد . وهذا أرنب برى لا عيب فيه .

وتبادلا السلعتين وكل منهما تحسب نفســـها الرابحة . وأحست تونيا بشىء من الخجل لأنها خدعت القروية غير أن هذه الأخيرة ، وقد طابت لها الصفقة ، راحت تنادى صـــديقة لها كانت قد باعت ما لديها ، وسارتا معا فى طريقهما الى القرية وراحتا تعبران الطريق المكسو بالجليد الى القرية القائمة هناك على مدى الأفق .

فى تلك اللحظة صاحت امرأة فى الحشـــد ، كانت نقودها قد سرقت ، واستنجدت بالرجال ، غير أن أحدا لم يستطع أن يتقدم .

وقالوا : اذهبى وراءه . انه يتمنطق بحزام عريض، ومعه رصاص . طارديه فستجدين انه هو الذى يطاردك .

- ٨ -

وكان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة صنوفا متباينة من الناس ..

طفل جاء يزور عمه السجين فأخطأ باب الغرفة المقصودة وولج بابا آخر ولم يلبث ان وجد نفسه مع آخرين فجاء الجند وساقوهم مع سائر المساجين . ولا حيلة تنفع ولا سبيل الى الاقناع .

- ٩ -

وتحدث زيفاجو مع رجل من الزراع ، ذكر له أن الفلاح يعرف جيدا ما الذى يريده ، مهما اختلفت العهود ، وعندما ظن أن أحلامه تحققت ، وأنه سوف يحيا على هواه يفلح أرضه بيديه وقد تحرر ، خابت آماله . والريف ليس سعيدا كما تظن .

وذكر له زيفاجو ان له أسرة وأنه يجب أن يعيش من أجلها وانه ليس هو الذى غير التاريخ انما التاريخ هو الذى يقول ان تغيرا قد وقع . فمن أصدق ؟ وأقول الريف سعيد فتقول لا فأين السعادة ؟. من أصدق وبمن أؤمن ؟ ولكن لى أسرة ويجب أن أحيا .

- ١٠ -

خلال هذه الرحلة شاهد زيفاجو أحداثا ودمارا .. قرى كاملة مدمرة تئن بين الجليد والاطلال . انها الحرب . انه القتال . انه قائد عنيف ذلك الذى ينتقم للشعب من القرى والجماعات التى لا تدين بالطاعة وتتقاعد عن امداد السلطات بالمعونة .. وهذه آثار انتقامه .

رجل رهيب . رهيب

اسمه يتردد كالاسطورة السوداء . يتردد فى القرى ويطوف على الشفاه مرتعدة . انه (سترلنكوف) !

وفى احدى هذه القرى .. وبين أطلالها كان على القطار أن يبقى طويلا حتى ينظف الرجال الجليد من فوق القضبان ويمهدون الطريق لسفرهم .. وقسم الرجال الى فرق . واحتلت فرقة يورى مكانا جميل المشاهد ، ففى أعماق الوادى من الشرق مروج مبسوطة ثم تنهض تلال متماوجة على مدى الأفق .

وفى قمة تل انتصب بيت من البيوت يلفحه الهواء من كل جانب . ربما كانت الأشجار التى تحيط به قادرة على أن تظله بظلالها أثناء الصيف أما الآن فهى لا تستطيع أن تمنحه ظلالها ، ما دمت عارية ، الا من الجليد الذى كساها .

أيعيش سكان البيت فيه الآن ؟ ترى ماذا دهاهم ؟ أين هم القوم الذين اتخذوه دارا ؟ هل ولوا الادبار أم تراهم لاقوا حتفهم ؟

وراح مشهد البيت يثيره بأسراره كأنما يسخر منه .. ولبث حزينا فى صمته .

- ١١ -

مشاهد . وشخصيات . مشاهد حزينة وشخصيات تنسج الأحداث على نحو لم يعتده زيفاجو ولا أسرته وكان عليهم أن يعتادوه .

كان البرد والصقيع ، ثم تغيرت المشاهد فجأة وسرى الدفء ولاح وجه الطبيعة وضاحا غير أن الغابات بقيت مستلقية فى نوم الشتاء وهنا وهناك أطل غصن ينفض الصقيع متحررا من حمله .

- ١٢ -

وصلوا الى منطقة المناجم فكثرت المحطات وكثر الوقوف فيها وتضاعف عدد الصاعدين والهابطين الذين كانوا يفضلون المقاعد المجاورة للباب. وفهم يورى أن رجال الجيش الأبيض أحرزوا انتصارات فى هذه المنطقة بفضل القائد جاليولين ، صديقه الذى رآه آخر مرة فى المستشفى العسكرى حيث كانا مريضين فى غرفة واحدة .

- ١٣ -

ومرة أخرى سمع يورى عن قائد حكومة العمال الذى كان يستدعى فى المهمات الخطيرة .

ووقف قطارهم ليفسح الطريق لقطار آخر، وطال انتظارهم، وعلموا أنه قطار خاص مسلح .

انه سترلنكوف جاء . ذلك الذى لا يعرف الرحمة لمن يعادى حكومة الثوار .

جاء مسرعا فى قطاره المسلح الخاص لينتقم وليخضع جاليولين .

ولم يستطع الرجل العامى الذى يسوق الحديث ان ينطق باسم جاليولين فقال جاليفوف .

فقال آخر : لعله الأمير جاليفوف

فرد عليه الآخر قائلا :

ـ انقضى عهد الأمراء !

- ١٤ -

جاء الدفء وهل الربيع فسال الجليد وانتفضت الحياة وبدأت الغابة تورق .. وظهر الطير فى السماء . وراح يورى والسكندر يقطعان بعض الأخشاب .

قال يورى : اننا نبتعد ونبتعد والاقليم كأنه يعيش فى دوامة ، ولا ندرى من الذى سيكون له السلطان حين نصل الى هناك ، ولذلك أرى أن نستقر على رأى حتى يمكننا تجنب المآزق .

وقال السكندر : سررت أيما سرور باعلان النظام الجديد غير ان المثالية لا تبقى الا فى البداية ، وفى عقول الأشخاص وخيالهم .

وسألت تونيا عما اذا كان وقت وصولهم الى القرية سيكون مناسبا لزرع الخضر فقيل لها انهم لن يزرعوا ليتجروا ، وانما يريدون ما يسد الرمق .

- ١٥ -

وفى الظلام وجد فوهة غدارة مصوبة اليه . قالوا : من تكون ؟

فأجاب : طبيب من موسكو ومعى عائلتى وها هى أوراقى .

قالوا : نصحبه معنا الى رئيسنا .

وقال له صياد كان غير بعيد : انك لمجدود اذ يصحبوك الى رئيسهم فقد يكون فى هذا انقاذ لك . لا يجب ان توجه لهم اللوم فهم ينفذون الأوامر . فالشعب يحكم اليوم . وربما كان ذلك خيرا . بل ان هذا

هو الأفضل على الدوام . هم يقتفون أثر رجل خطير جدا منذ أيام وقد حسبوك هو . انه خطأ . هذا كل ما فى الأمر . يجب أن تصر على مقابلة الرئيس ولا تمنحهم فرصة للحديث معك . واذا قالوا تعالى معنا لا تفعل بل قل انك تطلب مقابلة الرئيس .

وعرف من الصياد أن ذلك النهر الذى يبدو أمامه هو نهر (رينفا) الممر المائى المشهور ، وأن مدينة يورياتن ليست بعيدة عن ذلك المكان ، فالمنطقة تعتبر ضاحية من ضواحيهـــا . وعرف أن عربات القطارات التى تقف قريبا هى مركز قيادة الجند ، وواحدة منها خاصة بالقائد سترلنكوف .

- ١٦ -

وارتفعت ضحكات وأصوات حركة من داخل العـــربة غير أن الأصوات تلاشت حين دخل الجنديان يصحبهما زيفاجو .

وقاداه الى ممر العربة ، ووقف أمام باب غرفة بدت مرتبة وفيهـا أسباب الراحة وفيها رجال من ذوى الأناقة اللامعة يعملون فى صمت. فعجب يورى ، لأنه لم يتصور أن يعمل شخص كسـترلنكوف فى مثل هذا الهدوء . فلا شك أن مقر عمله فى غير هذا المكان . وما هنا الا مسكنه أو مكان نومه . وساد سكون كأنه سكون المستشفيات حيث يسير الناس على أرض مفروشة بالفلين والكل يرتدى خفا لا يحدث صوتا .

وأدرك ان هذا المقر كان فيما مضى عربة من عربات الطعام قسمت الى حجرات فيها مكاتب ومناضد .

وقال الضابط الشاب الذى كان مكتبه مجاورا للباب : لحظة واحدة

نطق بذلك وهو شارد اللب يفكر فى أمر آخر ، وانصرف الحارسين وسمعت قرقعة غدارتيهما وهى تدق المسامير المعدنية فى أرض العربة، وبعد ذلك نسوا يورى ولم يعره أحد اهتماما .

واستطاع من مكانه عند مدخل الباب أن يلمح أوراقه ملقاة عـلى مكتب فى نهاية الحجرة جلس اليه ضابط أكبر سنا من الآخر ، كأنه كولونيل من طراز عتيق . وكأنه هو خبير الاحصاءات الحربية ، وكان يطلع على كتب المراجع ويدرس الخرائط الخاصـة بميدان القتال ـ يراجع ويقارن . وبعد أن أدار رأسه فى الغرفة قال : سيكون الجـو حارا . كما لو كان وجود الآخرين وحده هو الذى أوحى اليـــه ودفعه الى هذا الاستنتاج .

وكان عامل الكهرباء الجندى منهمكا قريبا من الأرض يصـــلح سلك كهربائيا . وجلس فى جانب آخر كاتب على الآلة الكاتبة يصلح آلته وقد ارتدى سترة من الجلد . وقام الضابط الشاب والكولونيل العتيق الطراز وشغلوا جميعا بآلة الكتابة .

واطمأن يورى قليلا اذ شاهد هذا ، وعجب لشأن هؤلاء الرجال، الذين يعرفون مصيره أكثر مما يعرفه ويشغلون أنفسهم بمثل هـذه الأمور دون النظر فى قضية اتهام خطيرة .

وقال لنفسه : ومع ذلك فمن يدرى ؟ لم لا يبـــدون اهتماما ؟ الغدارات محشوة . والناس تقتل . وها هم قد انهمكوا فى التنبؤ بالجو

لا بوطيس القتـــال . ربما كانوا قد رأوا الكثير فى حياتهم وبلوا من ويلاتها ما بلد مشاعرهم .

ولكى يشغل نفسه بشىء ما راح يجيل الطرف من النافذة عبر الغرفة .

- ١٧ -

رأى مستودع العربات ، ولمح المحطة فوق التل والضاحيـــة .. وللحوانيت لافتات وواجهات . كان لا يعرف ما اذا كانت الحوانيت لا زالت تستخدم هذه الواجهات التى تعلن بها عن بضاعتها .. ها هو يقرأ اللوحات الكبيرة الظاهرة التى أخفت تلك البيوت الصغيرة ذات الطابق الواحد . كأن هذه الأخيرة أطفال من أبناء الريف يتوارون مرتاعين لرؤيتهم ذؤابة مدلاة من غطاء رأس والدهم . وعلى بعد ميل أو ميلين من تلك الضاحية لاحت فى الأفق ، مدينـة فى حجم عاصمة من عواصم الأقاليم . وقـــد أفصحت الشمس المشرقة عن ألوانها . ووضحت مشاهدها وبدت بيوتها وطرقها والكنيسة الضخمة التى تتوسط رأس ذلك التل والتى كان منظرها كلوحـة ملونة من تلك اللوحات الرخيصة التى تمثل صومعة فى الصحراء أو تمثـــل (مونت آتوس) ، كل هذه بدت كحلقات تتعلق بقمة التل .

« هذه هى يورياتن المدينة التى طالما سمعت عنهـــا من أنا والدة تونيا ، حيث عاشت بين أملاك أبيها الواسعة أيام صباها . وهى أيضا المدينة التى سمعت عنها من الممرضة لارا انتيبوفا . ما أغرب وأعجب أن يقع نظرى على تلك المدينة فى مثل هذه الظروف .

فى هذه اللحظة تحول اهتمام الضـابط الذى كان بداخل الحجرة الى شىء آخر . فما أن انتهوا من اصلاح الآلة الكاتبة حتى راحـوا يطلون من نوافذ أخـرى . ونظر يورى بدوره . فوجـد فريقا من المساجين يسـاقون تحت الحراسة الى المحطة . ومن بينهم صبى فى رداء المدرســـة جريح الرأس . وكان قـد أسعف بالرباط غير أن دمه لا زال ينزف خلال رباطه . فراح يمسح وجهه الأسمر الناضح بالعرق بيـــده . آثار الاهتمام بما يبدو عليـــه من عزم . اذ احتفظ بغطاء الرأس الذى عليـــه شعار مدرســـته ، وكان الرداء ينزلق على الجرح . وبدلا من أن يخلعه ويحمله فى يده أصر على أن يبقيه وان اضطر لأن يبعـده بيده عن موضع الاصابة مما يلوث الجرح . وود يورى لو استطاع ان يحدث الصبى بالكلمات التى تثور فى صدره ويقول له : « ان التحرر لا يكون بالاحتفاظ بالشـعائر والرموز بل بالتخلص منها » .

ووجه نظره وجهة أخرى ليجد سترلنكوف وقد سـار بخطوات واسعة عنيفة ليقف وسط الحجرة . وعجب كيف انه ، وهو طبيب له آلاف مؤلفة من المعارف ، لم يتح له أن يقابل مثل هذه الشخصـــة البارزة من قبل ؟ ألم يلتقيا على الاطلاق ؟ ألم تجمع بينهما السـبل أبدا ؟

ولسبب غامض خيل اليه أن هـذا الرجل لم يخلق الا من ارادة حديدية . كان ثابت الجنان تماما ، يظهر بمظهر الشخصية التى أراد أن يحققها لنفسه ، وهذا واضح من كل شىء فيه فهو متناسق التكوين ، أنيق الرأس ، فى خطواته طموح ، وحذاؤه الذى يصل الى ركبتيه ،

والذى علق به الطين يبدو نظيفا على الرغم من ذلك ، وقميصه الرمادى الذى ربما كان باليا يلوح كما لو كان مصنوعا من التيل الفاخر ، الذى خرج وشيكا من يد الكواء .

كانت شخصيته نتيجة حتمية لذكائه المتوقد . ويسيطر على الموقف ببساطة ، مهما تكن الظروف التى تحيط به . وربما صاغ لنفسه تلك المقدرة الخارقة . ففى تلك الأيام كان الجميع يصوغون شخصياتهم فى قالب شخصيات أخرى .. فيقلدون من كانت لهم فى التاريخ بطولة ، أو أبطالا اجتذبوا الجماهير بما كسبوه فى القتال من نصر أو يتشبهون بشخصيات لها مكانة كبيرة فى قلوب الناس ، ولعلهم قلدوا هذا أو ذاك ممن لهم مميزات خاصة .

ولم يبد سترلنكوف دهشته ولم يفصح عما يكون قد خالج نفسه من اضطراب لمرأى يورى . واصطنع لهجة هادئة فى الحديث .

وخاطب رجاله الذين يعاملونه كما لو كان فردا منهم قائلا : أهنئكم . حملناهم على التقهقر . ويبدو اننا نلهو بلعبة الحرب ولسنا فى معركة حقيقية ، لأننا وهم أبناء وطن واحد . غير أنهم يدينون بمبادىء واهية .

ان قائدهم كان صديقا لى ، وهو أقرب الى طبقة العمال منى . نشأنا معا فى بيت واحد وله على أفضال كثيرة وانى مدين له بما أسدى . وهأنذا أبتهج لأننا حملناهم على التقهقر الى خلف النهر وربما الى ما هو أبعد من ذلك .. هيا يا رجل أصلح التليفون ، ان الاتصال بواسطة التلغراف أو عن طريق الرسل لا يكفى .. لا توجد حرارة ! حسنا يمكننى أن أستريح ساعة .. أوه .. نعم »

ونظر الى يورى ، وكأنه تذكر أن عليه أن يهتم بأمر تافه هو مصير ذلك الرجل الذى يقف أمامه . وقال وهو ينظر اليه نظرة فاحصة :

- هذا ؟ كلام فارغ ! هو لا يشبهه . يا للأغبياء . وضحك وقال ليورى : أعتذر لك أيها الرفيق . لقد حسبوك شخصا آخر . أنت حر طليق السراح لكن أين دليل العمل ؟. زيفاجو .. زيفاجو . دكتور زيفاجو . موسكو .. الأمر سيان . أيمكننا أن نذهب معا الى غرفتى لحظة ؟ هذه هى السكرتارية وحجرتى هى المجاورة لها .. من هنا . لن أستبقيك طويلا .

- ١٨ -

من هو سترلنكوف ؟

كان من العجيب ان يصل الى هذا المنصب . فهو لم يكن رجل سياسة اذ نشأ فى مدينة موسكو وكان مجهولا تماما . ومارس التدريس بعد تخرجه فى الجامعة مباشرة وزاول مهنته فى الأقاليم . وأسر فى الحرب كما جاء فى التقرير الا أن الناس ظنوه قد لقى حتفه . وقد أيده وسانده (تيفرزن) الذى كان عاملا فى السكة الحديد والذى عاش سترلنكوف فى طفولته بين أسرته فترة غير قصيرة . وأعجب به من بيدهم الأمر اذ كانت روحه المتعصبة تلائم ذلك العصر المغالى الى أبعد الحدود ، فهو لم يستعر شخصه اذا . ولم يكن سلوكه أمرا عارضا . وانما لاءمت شخصيته عصره ، وتطورت وفقا لظروف الحياة الجارية .

وقد حقق أنه جدير بالثقة فحارب ، وأحرق القرى العاصية وأدب

العصاة فى القرى الأخرى ، وألقى دروسا على الجند الذين خرجوا على الطاعة . وكانت انتصاراته فى كل مرة تثير الدهشة الى أبعد حد .

وأطلق عليه الناس : الجلاد .

كان أسير حرب فى ألمانيا وعاد يوم علم بقيام الثورة . كانت له قدرة خارقة على التفكير المنطقى ، وكان أيضا محبا للمثالية الأخلاقية مولعا بالعدالة . وقد آمن بأن ما يفعله انما هو لتحقيق مثله وفقا لمبادىء عامة . وكم كان فى حاجة الى قلب بعيد عن هذه المبادىء المجردة ، قلب يؤثر شخصا ما أو أشخاصا بالذات لأنه يحبهم .

كان فى صباه يجرى وراء الآمال الساذجة وينظر الى العالم الواسع متصورا أن الناس يجب أن يسعوا الى الكمال وأن يخضعوا للقوانين والمبادىء . ولما لم يجد الحياة فى واقع الأمر على هذا النحو لم يخطر بباله أن يبسط تلك المبادىء ويجعلها أكثر اتفاقا مع طبيعة الحياة .

وراح مع أحزانه وآماله المثالية الضائعة ، يتلىء طموحا ليكون بيده هو الفيصل بين الحياة وبين القوى المظلمة التى تعكر صفوها . وينشد أن يكون بطل الحياة الذى ينتقم لها من تلك القوى .

وفى غمرة الشعور بالمرارة والأسى للآمال الضائعة أوتى المنصب وأوتى السلاح !

- ١٩ -

وقال سترلنكوف : زيفاجو تاجر أو أحد أبناء الطبقة الراقية ؟

أواجهها بوجودكم عندى ؟ أنا لا أفهم هذا . لا أفهم شيئا ولن أفهم هذا أبدا .

وقالت زوجته : انى أتساءل هل تدرك انك تجلس على فوهة بركان .

فرد الرجل : لحظة يا هلن . ان زوجتى مصيبة فيما تقول . فأنا بين نارين : بين هؤلاء الحانقين لتأييد ولدى للنظام الحاضر وهؤلاء الذين يعارضون هذا النظام .. اننى لا أرضى أحدا ولا أجد من يظاهرنى أو من ألجأ اليه . وتريدون أن أعدم بالرصاص من أجلكم ؟

- كن عاقلا بحق السماء .

وبعد قليل هدأت ثورته وقال : لا معنى للتحدث فى الفناء هيا الى الداخل . ولكنى لا أرى فى حضوركم خيرا على الاطلاق ، هذا ظاهر للأعمى . غير أننا لسنا ممن لا شهامة عندهم . لن نعيدكم الى الغابة لتلتهمكم الدببة .. أيمكننا أن نهيىء لهم حجرة النخيل المجاورة لمكتبى أيتها العزيزة هلن ؟ وفيما بعد نتدبر أمر اسكانهم فقد نجد لهم كوخا فى الفضاء المجاور . هيا أدخلوا . احضر المتاع يا باكوس وساعد الضيوف .

واذعن باكوس للأمر قائلا :

- بحق العذراء ! لا يزيد متاعهم على متاع الحجاج .. حزم صغيرة ليس فيها حقيبة واحدة .

- ١٠ -

أمسى الجو باردا فى تلك الليلة . واغتسلوا وأعدت النسوة مكانا

لا عمل فى مصانع سنتيورنجا »

ـ هيا يا فيودور .. أتنوين الانتحار ؟ (اخوة الغابة) بجوارنا . لا يوجد هنا غيرهم هيا .. هيا يا فيودور اسرعى والا اقتنصونا . وسألوه ان كان هو الحداد باكوس فأجاب بأن الآخر مات منذ عامين !

وهو يستحث الدابة قائلا متعجبا : يا ملائكة الصين !.. يا أمنا العذراء !

- ٩ -

لقوا آل (ميكولتسن) فى فناء الدار .. وكان مشهدا صامتا يثير الأسى فى أول الأمر ثم ما لبث ان انقلب الى أصوات مرتفعة ولغط . جاء الرجل حاملا غدارته لينظفها وليقابل زوجته فى عودتها بعد نزهتها المسائية ، وكانت الشمس قد ألقت على زوجته هيلين أشعة ذهبية فى لون شعرها فخلفت وراءها ظلا طويلا مديدا .

قوبل القادمون بوجوم وصمت ، فأحسوا بالألم والخجل المميت .

وقال (ميكولتسن) : أنا لا أفهم شيئا ؟ ماذا يدور بخلدكم عن هذا المكان ؟ أترونه منطقة من مناطق الجنوب حيث للحكومة البيضاء سلطان ونفوذ وحيث الخير والطعام ؟ لم وقع اختياركم علينا دون غيرنا ؟ وعلى هذه البقعة دون غيرها من أرض الله الواسعة ؟

وقالت زوجته : ألم تحسبوا حسابا لما يمكن أن يحدث لزوجى من أضرار بوجوكم هنا ؟

فقال : لا تقاطعين يا هلن . انك محقة . ألم تتصوروا أى أعباء تحملوننى ؟

قال السكندر السكندوفتش : يا الله ! أنت لا تعرف ماذا نريد . لا جدال فى أننا مصدر قلق واضطراب لك ولكنا لن نكون عبئا عليك . فقد جئنا ننشد بقعة من الأرض تفيض عن حاجة الجميع ، وبذلك لن نسبب خسارة لأحد . سنغرس فيها ما نحتاج اليه . لسنا نطلب الكثير . أترانا نثقل عليك حقا ؟

ـ لا . ولكن الأرض واسعة . وما نحن وما تريدون ؟ لم وقع اختياركم علينا لننال هذا الشرف ؟ نحن من دون خلق الله !

ـ لأننا سمعنا عنك آملين أنك تعرفنا فنحن لا ننزل بساحة شخص غريب عنا تماما .

ـ أهذا لأجل كروجر ؟ لأنكم أقاربه ! بل كيف تصرحون بهذه الصلة فى مثل هذه الأوقات ؟

كان ميكولتسن محبا للتحرر منذ فجر الشباب ، كان من أوائل الثائرين وها هو يعيش الآن منبوذا مهجورا بعيدا عن مركز الأحداث. وخيل اليه أن هؤلاء الضيوف الثقلاء أقارب كروجر يقصدونه ليجعلوا من تاريخه سخرية ما بعدها سخرية . فأصبح يحمى أبناء أعداء الحرية ! فيا له من فخ مدبر وطعنة لتاريخه الطويل ، فقاض كأسه وصاح :

ـ هذا أمر لا يخطر بالبال ! هل خطر لكم مدى المصائب التى

قرن من الزمان . ولكن لا ترفعى صوتك حتى لا تجرحى شعور العجوز

- لن يسمع شيئا فهو أصم .

فيصيح السائق العجوز بفرسه أن تغذ فى السير . قائلا : هاى .. فيودور ! ما ألعن الحرارة .. كأنها الجحيم الفارسى الذى نسمع عنه فى الحكايات .. هيا أيتها الشيطانة المدهشة

وكان أحيانا ينطلق على سجيته مرددا مقاطع أغنية شعبية قديمة ، لعلها ألفت خصيصا لمصانع كروجر فيما مضى من الزمان ، فكان يقول :

« وداعا يا فناء المصنع وبابه
وداعا يا صحاف الحديد والتبر
فخبز سيدى مر المذاق فى فمى
وعافت نفسى شرب الماء .
ان بجعة تسبح بعيدا عن الشاطىء
تعمل بقدميها لا بالذهب .
والنبيذ لا يسكرنى
انما أنتشى من غابة سيبريا البكر الشاسعه
ان تكن أنت جنديا
فلا تحزن يا (ماشا) فلست أنا بالغبى
نعم أنا لست غبيا ولا مهرجا
فأنا ذاهب الى المدينة

- ٨ -

كان السائق ناصع البياض كالبوم الروسى، يرتدى ملابس مهلهلة. وجرت العربة فرس شقراء بجانبها مهر صغير ولدته حديثا وهو مجعد الشعر ، أسود كالليل ، راح يتعلق بأقدام أمه .

انقضى اليوم بسلام ، وتحققت الأحلام .

وترقرق شعور بالطمأنينة فى نفوسهم .. وأمامهم مشاهد الطبيعة باذخة الفتنة .. هكذا أحسوا ، والعربة تهتز بهم وهم يمسكون بحافتها عند اهتزازها .

سارت بهم حينا فى الغابة وحينا آخر بين الحقول المنبسطة الأديم ، وكان كل منهم يمسك بالآخر فيتجمعون وسط العربة اذا ما ألم بهم ظلام الغاب ، لينفرط عقدهم عند الحقول فيجلسوا مرة أخرى متأملين وقد أرسلوا لهذه الطبيعة المنطلقة تحية من أعماق القلوب . كل شىء يبعث السرور والدهشة وخاصة سائق عربتهم العجوز الذى لم يكف عن الثرثرة . وكانت الفرس تقف اذا ما تخلف صغيرها عن السير لتشير اليه ملوحة بعنقها فيمضى الصغير ببلاهة على قدميه الطويلتين المتقاربتين ثم يثنى رقبته الطويلة ويرفع رأسه الدقيق تحت العربة ليمتص ثدى أمه .

وصاحت تونيا بيورى : أهذا باكوس الذى كانت أمى تحدثنا عنه ؟ أتذكر حديثها الذى أثار عجبنا وأعجابنا ؟

- كلا .. انها اسطورة والوالدة كانت تقصها على أنها حدثت منذ

العصاة فى القرى الأخرى ، وألقى دروسا على الجند الذين خرجوا على الطاعة . وكانت انتصاراته فى كل مرة تثير الدهشة الى أبعد حد .

وأطلق عليه الناس : الجلاد .

كان أسير حرب فى ألمانيا وعاد يوم علم بقيام الثورة . كانت له قدرة خارقة على التفكير المنطقى ، وكان أيضا محبا للمثالية الأخلاقية مولعا بالعدالة . وقد آمن بأن ما يفعله انما هو لتحقيق مثله وفقا لمبادىء عامة . وكم كان فى حاجة الى قلب بعيد عن هذه المبادىء المجردة ، قلب يؤثر شخصا ما أو أشخاصا بالذات لأنه يحبهم .

كان فى صباه يجرى وراء الآمال الساذجة وينظر الى العالم الواسع متصورا أن الناس يجب أن يسعوا الى الكمال وأن يخضعوا للقوانين والمبادىء . ولما لم يجد الحياة فى واقع الأمر على هذا النحو لم يخطر بباله أن يبسط تلك المبادىء ويجعلها أكثر اتفاقا مع طبيعة الحياة .

وراح مع أحزانه وآماله المثالية الضائعة ، يتلىء طموحا ليكون بيده هو الفيصل بين الحياة وبين القوى المظلمة التى تعكر صفوها . وينشد أن يكون بطل الحياة الذى ينتقم لها من تلك القوى .

وفى غمرة الشعور بالمرارة والأسى للآمال الضائعة أوتى المنصب وأوتى السلاح !

- ١٩ -

وقال سترلنكوف : زيفاجو تاجر أو أحد أبناء الطبقة الراقية ؟

حسنا .. طبيب من موسكو ذاهب الى فاركينو . غريب ، لم تترك موسكو فى هذه الظروف ؟ كم تريد أن تكون بعيدا ؟

وقال يورى : هذا بالضبط هو ما أريده . أن نكون فى مأمن .

– يا للعجب . ما هذا الخيال ! فاركينو ؟ أعرف معظم الأماكن هناك .. لا أظنك تمت الى كروجر الذى كان يمتلك المزارع هناك بصلة ؟ أأنت وريثة ؟

– لم السخرية ؟ انى لا أذهب لأننى وريثة . صادف ان زوجتى هى فى الواقع ...

– حسنا . لكن اذا كنت تؤيد الحكومة البيضاء فدعنى أقضى على آمالك . لقد طردناهم من المكان .

– ألا تزال تسخر منى ؟

– ثم أنت طبيب . طبيب بالجيش . ونحن فى حالة حرب . هذا واجبى حقا . أنت هارب . أنت من العناصر الانحلالية . تريد أن تختبىء فى الغابات . ما هى أسباب ذلك ؟

– جرحت مرتين ولم أعد صالحا للخدمة

– ثم تخرج لى شهادة من اللجنة الشعبية للتعليم أو للصحة لتشهد بأنك « مؤيد لنا » .. اسمع هذه ظروف عصيبة . انها الحد الفصل . هذا زمن الملائكة الذين يحملون أسلحة تنفث الحمم والوحوش الكاسرة المجنحة وليس هذا زمن المؤيدين والأطباء الموالين . قلت لك أنت طليق السراح ولن أتراجع فى قرارى . ولكن تذكر أننى أطلق

الفصل الثامن

الوصول

كان قطارهم لا يزال واقفا لا يتحرك وقد حجبته القطارات الأخرى. وشعروا فى ذلك الصباح لأول مرة أن صلتهم بموسكو قد قطعت وانهم قد أصبحوا فى اقليم آخر له عالمه المحلى الخاص . ومن الواضح أن القوم فى هذا الاقليم يعيشون متآلفين أكثر مما هم فى موسكو أو فى مدينة بتسبرج . فسرعان ما يتعارفون ويتبادلون التحيات ، كما أنهم يتميزون عن سكان العواصم الكبرى وفى أساليب الحديث والملبس والطعام والعادات .

وراح يورى يفكر : كيف يعيشون وما هى مواردهم وكيف استطاعوا التغلب على مصاعب الحياة دون أن يقعوا تحت طائلة العقاب !؟

- ٢ -

لما صحبه الحارس ليرشده الى القطار كانت غدارته تصطدم بالقضبان .

وكان اليوم حارا كموقد البخار ، وخيل الى يورى ان القضبان والعجلات سوف تنصهر . وتألقت الأرض التى سودها الزيت ، وكان لها وهج أصفر كأنه مموه بالذهب .

وقال الحارس : لقد اعتدل الجو الآن وصار صالحا . لبذر بذور الحنطة والشوفان والذرة الدخن . نعم هذا هو الفصل الذهبى للزراعة.

سراحك هذه المرة فقط . وأشعر اننا سوف نلتقى مرة أخرى وسأكلمك اذ ذاك بطريقة أخرى .

ولم يهتز يورى للتحدى والوعيد فقال :

- أعرف ما تظنه بشأنى . فمن وجهة نظرك أنت محق . أما من ناحيتى فان المسألة التى تريد مناقشتى فيها فقد ناقشتها مع شخص خيالى يمثل الاتهام ، ناقشته مرارا ، وباستمرار دون جدوى .. كل ما هناك انى لا أستطيع أن أعبر بالكلمات . فاما ترانى بريئا فانصرف هادئا ، واما ترانى مذنبا يستحق ما تراه من عقوبة .

وأمر سترلنكوف بأن يصحب الجندى زيفاجو الى قطاره .

- ٤ -

وتحدث مع سادفياتوف عن وصف الحريق الذى اندلع بالمدينة وعن خبرته وكان فخورا بالأرومة التى انحدر عنها والتى كان من بينها امراء !

ولاح الوادى غير بعيد وامتدت أعمدة التلغراف على مدى الأفق واتسع طريق عريض يختفى حينا ليظهر حينا آخر ملتويا متعرجا .

واستطرد الرجل فى حديثه عن المدينة وعن أهمية هذا الطريق الذى يفخر به أبناء المنطقة ، ولا غرو فهو يمتد حتى سيبريا .. وتحدث عن منافع المدينة ومزاياها وناديها الذى يقوم فى الهواء الطلق .

فقال يورى : ولكنا لن نعيش فى المدينة . نحن ننشد فاركينو .

- أعلم هذا . سمعته من زوجتك . والأمر سيان . فلا شك انكم سوف تقصدون المدينة لأعمالكم . لقد أدركت من تكون زوجتك . هى صورة حية لكروجر العجوز . نفس الأنف والاذن والجبهة..نعم هى صورة طبق الأصل لجدها .. الكل هنا يذكرونه .

وبدت مستودعات ضخمة حمراء للزيت على مدى البصر وظهرت لافتات خشبية كبيرة تحمل أسماء آلات زراعية .

وقال محدثه : كانت هذه مؤسسة نافعة للآلات الزراعية الهائلة .

- لا أستطيع أن أسمع ما تقول . ماذا قلت ؟

ولكن موسم زراعة الحنطة السوداء لم يحن بعد . وفى بلدتنا يبذرون الحبة السوداء فى عيد (اوكلينا) . لست من هذه الناحية ولكنى من (مورزهانسك) بجوار مدينة (تامبوف) . أيها الرفيق الطبيب لولا هذه الحرب الأهلية وما كان للثورة من أعداء لكان حريا بى أن أسعد فى بلدى بغرسى وحصادى . لقد قامت بيننا حرب الطبقات كالهرة السوداء التى يزعمون فى الأمثلة الشعبية ان مرورها بين شخصين يثير بينهما الشحناء والبغضاء .

- ٣ -

قالت تونيا - حمدا لله على عودتك وقد علمنا انك بخير كنا جزعين وقضينا وقتا عصيبا كدنا نفقد فيه عقولنا . وها هو أبى ، مستغرق فى نومه بعد أن اطمأن عليك . كأنما يسترد قواه بعد الترقب واللهفة . تعرفنا بمسافرين عديدين وهم يهنئون بسلامتك . سأعرفك بهم . ها هو واحد منهم . ولاح (سادفياتوف) يحمل قبعته عن رأسه وراح يقتحم الحشد بجسمه ويرفع رأسه فوق الرؤوس . (سادفياتوف) ! خيل ليورى أن الاسم مستعار من أساطير الرقص الشعبى القديم . وقالت زوجته انها تحدثت معه وأنه شخصية بارزة، ويعرف كل شىء (وقد سمع عنك وعن والدك وأظنه يعرف أيضا لارا المدرسة . وهو مخلص للمبادىء السائدة فلاحظ ذلك) .

وذكرت انه قال لها ان محطة يورياتن الرئيسية لن تستطيع استقبال القطار اذ احترق جزء منها فى الاضطرابات ولذا فيتحتم عليهم النزول بعيدا عنها أو على الأضح فى ضاحية من ضواحيها .

- ٥ -

وقال يورى : أظنك تعرف هذه المنطقة جيدا ؟

ـ أعرفها كما أعرف فناء بيتى . أنا وكيل قضايا ، كما تعلم . ولى خبرة عشرين سنة فأنا دائما على سفر بسبب أعمالى .

ـ والآن ؟

ـ أواصل أعمالى بالطبع

ـ وأى نوع من الأعمال يمكن أن يتوفر الآن ؟

ـ كل ما يخطر ببالك . صفقات على الطريقة القديمة وعمليات تجارية وعقود . لدى منها الكثير الذى يجعل شعر رأسك يقف دهشة .

ـ ولكن ألم تمنع هذه الأعمال ؟

ـ طبعا منعت فى الظاهر ولكن توجد ضروات تبيح المحظورات . وفى مثل هذه الأوقات يقصد من كان داهية مثلى .. الناس تعتمد على والهيئات الرسمية تحتاج الى . ففى فاركنيو يحتاجـــون لى لشراء الخشب ، وسأذهب الى هناك يوما ما . لا تستطيع الذهاب الى هناك الا على ظهر حصان .. ما هذا ؟ وقف مرة أخرى ؟ ويسمى نفسه قطارا ! قد أستطيع أن أؤدى لك خدمات فى فاركنيو .

ـ أتعرف لم نذهب الى هناك ؟

ـ تقريبا . أستطيع أن أتصور أنكم عائدون الى الأرض ، النـداء الخالد لامنا الطبيعة . حلم البشر ، بأن يأكلوا من عرق جبينهم .

ـ أقول مؤسسة نافعـــة . أتسمع ؟ كانت شركة محددة الأسهم وكان والدى مسهما فيها .

ـ تقول ان والدك كان يدير فندقا .

ـ كان يديره حقا ولكن هـذا لم يمنعه من اقتنـاء الأسهم . كان داهية فى اســتغلال أمواله . وأســهم كذلك فى مشروع (السينما الكبيرة) .

ـ تبدو فخورا به .

ـ فخور بأن أبى كان أريا .

ـ ولكن المبادىء التى تؤمن بها ضد الاستغلال .

ـ ما للمبادىء وهذا ؟ هذه مبادىء اقتصادية وهى علم بذاتها .

ـ هذه المبـادىء علم ؟ لا أحب أن أخاطر بمناقشـة رجل لا أكاد أعرفه . ولكنى أقول لك أن هذه المبادىء ليست علما . فهى تفتقر الى دعائم العلم وبراهينه . فالعـلم أكثر اتزانا وتعقلا . ثم انكم تربطون بين نظريتكم الاقتصادية وروح العلم الموضوعية . ولكنى لا ألمس فى مبادئكم الا بعدا عن الموضوعية الواقعية . واذا كان الدهمـــاء يرون ضرورة اختبـار نظرياتهم وآرائهم بمحك الواقع ، وان يتعلموا من التجارب ، فان هؤلاء الذين بيدهم السلطة يصبون الى اقامة عالم قائم على أساطير دون النظر الى واقع الحياة وتجاربها . ان السياسة لا تعنى شيئا بالنسبة الى ولكنى لا أحب القوم الذين يغفلون عن الواقع .

وحيا (ساديفيادوف) كلمات يورى مبتسما .

- ٦ -

« جاء ميكولتسن الى هذا الاقليم منذ خمسة وعشرين عاما وكان طالبا فى المعهد التكنولوجى ، ووقع فى مأزق ثم أرسلوه الى هنا تحت حراسة رجال الأمن . والحق بمصانع كروجر كمدير لها ، ثم تزوج. وكان لزوجته أربع شقيقات ، أى بزيادة شقيقة واحدة عن مسرحية تشيكوف (يعنى مسرحية الاخوات الثلاث) .

« ورزق بغلام هو ليبريوس أوليبى باختصار ولما كبر الولد كانت طباعه لا تخلو من خشونة ، فزور تاريخ ميلاده حتى أمكنه التطوع فى الحرب . فماتت أمه من هول الصدمة » .

« وعاد ليبى مع السلام .. عاد بطلا حائزا على ثلاثة أنواط ، وكان قد آمن بالمبادىء الثورية منذ كان فى جبهة القتال .. أسمعت عن (اخوة الغابة) ؟

ـ أخشى أننى لم أسمع عنها .

ـ انها فرقة متطوعين يعيشون فى الغابة حيث يدربون عسكريا ويلتحقون بالجيش الجديد . وهذا سر أهمية هذا الطريق البرى الممتد أمامك . وزعيم هذه الطائفة هو أحد أبناء هذه المنطقة . انه (ليبى) الذى يقود فرقة (اخوة الغابة) ألا تعرف هذا حقا ؟

ـ أصدقك القول انى لم أسمع بذلك من قبل .

ـ حسنا بعد أن ماتت زوجة ميكولتسن تزوج امرأة أخرى تدعى هيلن ، كانت تلميذة وانتقلت من المدرسة الى بيت الزوجية فجأة . ولا

ـ وهل فى هذا ما يضر ؟ يبدو أنك غير موافق عليه ؟

ـ انه سذاجة وفراغ . ولكن لم لا ؟ وفقكم الرب . كل ما هناك انى لا أؤمن بها . انها ضرب من الحياة الخيالية .. مثل كل الفنون والحرف .

ـ وكيف تتصور أن يكون استقبال ميكولتسن لنا ؟

ـ سيحاول طردكم وهو محق فيما يفعل . فالمصانع معطلة والعمال هجروا العمل ، والحياة شاقة اذ لا يوجد طعام ، ومع ذلك تقصدونه هو بالذات . اذا قتلكم فهو محق .

ـ انك تدين بالمبادىء السائدة وها أنت تقر بما يحدث . ليست هذه حياة . انها جنون . انها كابوس .

ـ أرى ذلك ولكن هذا ما كان وهكذا كتب التاريخ ولا مفر من مواجهة الواقع .

ـ ولكن الأمور لا تسير بالعنف . وهذا هو ما حولنى عن تأييد مبادئك . اذا صح رأيك فيما يتعلق بميكولتسن فهو ما لم نكن نتوقعه . ويجب أن نولى وجوهنا وجهة أخرى .

ـ هراء . أولا ليس (ميكولتسن) وعائلته هم وحدهم الذين يعيشون على ظهر الأرض الواسعة . ثم ان قلوبهم تنطوى على الخير لدرجة الافراط والجنون فمهما يعبسوا فى وجوهكم أول الأمر فانهم كرماء يمنحون آخر كسرة خبز لديهم لمن يسألهم . سأقص عليك قصة ميكولتسن مرة أخرى .

زالت الى اليوم تبدو بمظهر الفتاة الغريرة فاذا جلست اليها سألتك ـ متى ولد (سوفوروف) ؟ وكيف يساوى ضلعى المثلث ضلعه الثالث ؟ فاذا لم تستطع الاجابة انطلقت تضحك سعيدة .

« وللعجوز طباع غريبة فقد كان يزمع أن يصير بحارا ودرس الهندسة البحرية . وهو دائما حليق الوجه ولا يخرج غليونه من فمه ويتحدث من بين أسنانه فى صوت منخفض محبب . وقد انتخب عضوا فى جمعية (الثورة الاجتماعية) التى قضى عليها النظام الحاضر .

ـ هذا خطر حقا . تعنى أن السياسة جعلت الأب والابن عدوين ؟

ـ هذا ما يبدو من الناحية النظرية ولكن الحقيقة انه لم تقع معارك بين (الغابة) وبين سكان فاركينو .. وهناك الآن ثلاث شقيقات بعد ان تزوجت الكبرى . وأذكاهن وأنشطهن هى (جلاشا) التى تزاول جميع المهن وهى نشطة لماحة الذكاء ، ويقال أن ليبى يشبهها

وهناك (سيما) ، وهى متعلمة وتقرض الشعر وتناقش فى مسائل الفلسفة ولكنها منذ الثورة أصيبت بهوس دينى فهى تجمع الناس لتخطب فيهم عن نهاية العالم .

- ٧ -

نزلوا حيث قدروا ولوح لهم المسافرون مودعين . وراعهم السكون والخلاء والوحشة ، وكانت الغابة تحيط بالمحطة فتضفى عليها جوا رطيبا ، وكذلك كانت الطيور تشدو بصوت رطيب . ولاحت لهم

الحياة بين الأشجار من أقصى الغابة الى أقصاها ومن أطرافها وأعماقها ، صريحة عارية كأنها البراءة .

كانت تونيا جزعة اذ حسبت أن سترلنكوف ، وقد أطلق سراح زوجها ، لن يلبث أن يلقى أوامره الى مساعديه بالتليفون ليسوقوهم جميعا الى السجن . غير أنها ما لبثت أن اطمأنت ، وتأثرت لذلك تأثرا عميقا فصاحت والدموع فى عينيها ـ ما أبدع ذلك !

وجاء رجل يعرض خدماته ويسأل هل السيدة ترغب فى الحصول على بعض المنبهات من مخزن الأدوية بالمحطة ؟

فأخبره زوجها ان ما حدث لها كان نتيجة لمتاعب الرحلة وانها لا تلبث أن تسترد هدوءها .

وكان (ساديفياتوف) قد اتصل بهذا الرجل وطلب اليه أن يقدم لهم المساعدة . وفطن الرجل الى ان تونيا هى حفيدة كروجر المليونير القديم وحذرها ناصحا ألا تصرح بذلك . وأعد لهم عربة قادها شخص يدعى باكوس .

باكوس ! الاسم الذى طالما رددته (أنا) أم تونيا فى حديثها عن ذكريات صباها فى هذه الربوع . باكوس الرجل الاسطورى الذى فقد أمعاءه فصنع لنفسه أمعاء من حديد ، ربما أمكنه أن يفعل ذلك لأنه كان حدادا !

أيكون هو باكوس الخرافى الذى سمعوا أسطورته فى صباهم مرات ومرات ؟

قرن من الزمان . ولكن لا ترفعى صوتك حتى لا تجرحى شعور العجوز

– لن يسمع شيئا فهو أصم .

فيصيح السائق العجوز بفرسه أن تغذ فى السير . قائلا : هاى .. فيودور ! ما ألعن الحرارة .. كأنها الجحيم الفارسى الذى نسمع عنه فى الحكايات .. هيا أيتها الشيطانة المدهشة

وكان أحيانا ينطلق على سجيته مرددا مقاطع أغنية شعبية قديمة ، لعلها ألفت خصيصا لمصانع كروجر فيما مضى من الزمان ، فكان يقول :

« وداعا يا فناء المصنع وبابه
وداعا يا صحاف الحديد والتبر
فخبز سيدى مر المذاق فى فمى
وعافت نفسى شرب الماء .
ان بجعة تسبح بعيدا عن الشاطىء
تعمل بقدميها لا بالذهب .
والنبيذ لا يسكرنى
انما أنتشى من غابة سيبريا البكر الشاسعه
ان تكن أنت جنديا
فلا تحزن يا (ماشا) فلست أنا بالغبى
نعم أنا لست غبيا ولا مهرجا
فأنا ذاهب الى المدينة

- ٨ -

كان السائق ناصع البياض كالبوم الروسى، يرتدى ملابس مهلهلة. وجرت العربة فرس شقراء بجانبها مهر صغير ولدته حديثا وهو مجعد الشعر ، أسود كالليل ، راح يتعلق بأقدام أمه .

انقضى اليوم بسلام ، وتحققت الأحلام .

وترقرق شعور بالطمأنينة فى نفوسهم .. وأمامهم مشاهد الطبيعة باذخة الفتنة .. هكذا أحسوا ، والعربة تهتز بهم وهم يمسكون بحافتها عند اهتزازها .

سارت بهم حينا فى الغابة وحينا آخر بين الحقول المنبسطة الأديم ، وكان كل منهم يمسك بالآخر فيتجمعون وسط العربة اذا ما ألم بهم ظلام الغاب ، لينفرط عقدهم عند الحقول فيجلسوا مرة أخرى متأملين وقد أرسلوا لهذه الطبيعة المنطلقة تحية من أعماق القلوب . كل شىء يبعث السرور والدهشة وخاصة سائق عربتهم العجوز الذى لم يكف عن الثرثرة . وكانت الفرس تقف اذا ما تخلف صغيرها عن السير لتشير اليه ملوحة بعنقها فيمضى الصغير ببلاهة على قدميه الطويلتين المتقاربتين ثم يثنى رقبته الطويلة ويرفع رأسه الدقيق تحت العربة ليمتص ثدى أمه .

وصاحت تونيا بيورى : أهذا باكوس الذى كانت أمى تحدثنا عنه ؟ أتذكر حديثها الذى أثار عجبنا وأعجابنا ؟

– كلا .. انها اسطورة والوالدة كانت تقصها على أنها حدثت منذ

لا عمل فى مصانع سنتيورنجا »

ـ هيا يا فيودور .. أتنوين الانتحار ؟ (اخوة الغابة) بجوارنا . لا يوجد هنا غيرهم هيا .. هيا يا فيودور اسرعى والا اقتنصونا . وسألوه ان كان هو الحداد باكوس فأجاب بأن الآخر مات منذ عامين !

وهو يستحث الدابة قائلا متعجبا : يا ملائكة الصين !.. يا أمنا العذراء !

- ٩ -

لقوا آل (ميكولتسن) فى فناء الدار .. وكان مشهدا صامتا يثير الأسى فى أول الأمر ثم ما لبث ان انقلب الى أصوات مرتفعة ولغط . جاء الرجل حاملا غدارته لينظفها وليقابل زوجته فى عودتها بعد نزهتها المسائية ، وكانت الشمس قد ألقت على زوجته هيلين أشعة ذهبية فى لون شعرها فخلفت وراءها ظلا طويلا مديدا .

قوبل القادمون بوجوم وصمت ، فأحسوا بالألم والخجل المميت .

وقال (ميكولتسن) : أنا لا أفهم شيئا ؟ ماذا يدور بخلدكم عن هذا المكان ؟ أترونه منطقة من مناطق الجنوب حيث للحكومة البيضاء سلطان ونفوذ وحيث الخير والطعام ؟ لم وقع اختياركم علينا دون غيرنا ؟ وعلى هذه البقعة دون غيرها من أرض الله الواسعة ؟

وقالت زوجته : ألم تحسبوا حسابا لما يمكن أن يحدث لزوجى من أضرار بوجوكم هنا ؟

فقال : لا تقاطعين يا هلن . انك محقة . ألم تتصوروا أى أعباء تحملوننى ؟

قال السكندر السكندوفتش : يا الله ! أنت لا تعرف ماذا تريد . لا جدال فى أننا مصدر قلق واضطراب لك ولكنا لن نكون عبئا عليك . فقد جئنا ننشد بقعة من الأرض تفيض عن حاجة الجميع ، وبذلك لن نسبب خسارة لأحد . سنغرس فيها ما نحتاج اليه . لسنا نطلب الكثير . أترانا نثقل عليك حقا ؟

ـ لا . ولكن الأرض واسعة . وما نحن وما تريدون ؟ لم وقع اختياركم علينا لننال هذا الشرف ؟ نحن من دون خلق الله !

ـ لأننا سمعنا عنك آملين أنك تعرفنا فنحن لا ننزل بساحة شخص غريب عنا تماما .

ـ أهذا لأجل كروجر ؟ لأنكم أقاربه ! بل كيف تصرحون بهذه الصلة فى مثل هذه الأوقات ؟

كان ميكولتسن محبا للتحرر منذ فجر الشباب ، كان من أوائل الثائرين وها هو يعيش الآن منبوذا مهجورا بعيدا عن مركز الأحداث. وخيل اليه أن هؤلاء الضيوف الثقلاء أقارب كروجر يقصدونه ليجعلوا من تاريخه سخرية ما بعدها سخرية . فأصبح يحمى أبناء أعداء الحرية ! فيا له من فخ مدبر وطعنة لتاريخه الطويل ، ففاض كأسه وصاح :

ـ هذا أمر لا يخطر بالبال ! هل خطر لكم مدى المصائب التى

أواجهها بوجودكم عندى ؟ أنا لا أفهم هذا . لا أفهم شيئا ولن أفهم هذا أبدا .

وقالت زوجته : انى أتساءل هل تدرك انك تجلس على فوهة بركان .

فرد الرجل : لحظة يا هلن . ان زوجتى مصيبة فيما تقول . فأنا بين نارين : بين هؤلاء الحانقين لتأييد ولدى للنظام الحاضر وهؤلاء الذين يعارضون هذا النظام .. اننى لا أرضى أحدا ولا أجد من يظاهرنى أو من ألجأ اليه . وتريدون أن أعدم بالرصاص من أجلكم ؟

- كن عاقلا بحق السماء .

وبعد قليل هدأت ثورته وقال : لا معنى للتحدث فى الفناء هيا الى الداخل . ولكنى لا أرى فى حضوركم خيرا على الاطلاق ، هذا ظاهر للأعمى . غير أننا لسنا ممن لا شهامة عندهم . لن نعيدكم الى الغابة لتلتهمكم الدببة .. أيمكننا أن نهيىء لهم حجرة النخيل المجاورة لمكتبى أيتها العزيزة هلن ؟ وفيما بعد نتدبر أمر اسكانهم فقد نجد لهم كوخا فى الفضاء المجاور . هيا أدخلوا . احضر المتاع يا باكوس وساعد الضيوف .

واذعن باكوس للأمر قائلا :

- بحق العذراء ! لا يزيد متاعهم على متاع الحجاج .. حزم صغيرة ليس فيها حقيبة واحدة .

- ١٠ -

أمسى الجو باردا فى تلك الليلة . واغتسلوا وأعدت النسوة مكانا

للمبيت ، وأحس الطفل (ساشا) بخيبة أمل اذ لم يثر صياحه الصبيانى اهتمام أحد ، ولما نهته أمه عن الصياح اندفع يبكى خشية أن يعيدوه الى حانوت بيع الدمى ، وهو المكان الذى يصور له خياله أن والديه التقطاه منه ! وبكى الطفل الذى شعر بأن طفولته قد أهينت اذ رأى الكل مشغولا عنه .

وقال السكندر السكندوفتش وهو يقف مع يورى فى الشرفة :

ـ أول ما نفعله فى الصباح هو أن نذهب الى الكوخ الذى أشار اليه ، فاذا رأيناه صالحا أخذنا فى اعداده من فورنا . وحين ننتهى من ذلك يكون قد حل موعد تهيئة الأرض للزراعة . هل سمعته يقول أنه سيعطينا بذور البطاطس ؟

ـ وعدنا بذلك كما وعد ببذور أخرى . سمعته يقول هذا باذنى هذه .. واذا تبين لنا أن تلك البقعة من الأرض كانت حديقة فيما مضى فان ذلك يعنى انها كانت تسمد بأكوام كبيرة من السماد .

وقالا انهم قوم ظرفاء ولكن يبدو أن الزوجة تنطوى أعماق نفسها على سر تخشاه ولذلك فهى كثيرة الثرثرة مما يجعلها أكثر سخافة مما هى فى الواقع .

وعادا حيث كان القوم مجتمعين لتناول الشاى .

وقال يورى : ياله من مكان جميل يثير الالهام .

ـ أتفضل الكوب أم الفنجان ؟ أتريده مركزا أم خفيفا ؟

ـ ياله من بسويت لذيذ ! هل صنعته بالسكارين ؟

ـ ومن أين لنا السكارين فى هذا المكان النائى .. أقسم أنه سكر . ألم ترنى أضعه فى الشاى ؟

- وهذا أيضا أظنه شايا حقيقيا ؟

- بالتأكيد . أنه شاى فاخر

- وكيف بالله حصلتم عليه ؟

- لدينا سجادة سحرية تأتينا بكل ما نريد ! هو صديق لنا متصل بالسلطات . يأخذ خشبنا ويستبدله بالدقيق والزبد بمعاونة أصدقائه .. والآن هم لكم أن تخبرنى عن تاريخ وفاة كروفيدوف ؟

- ولد فى ١٧٩٣ أما تاريخ وفاته فلا أذكره تماما .

- أأصب شايا مرة أخرى ؟

- كلا شكرا .

- والآن قل ما هو تاريخ توقيع معاهدة (نيمويجين) ؟

- يا عزيزتى لا تزعجيهم فهم لم يكادوا يستريحوا من عناء الطريق.

- وما علاقة هذا بالأمور التى أريد الاستعلام عنها ؟ كم عدسة توجد هناك وهل الصور فى الوضع الطبيعى أو معكوسة ؟

- كيف أتيح لك أن تلمى بعلم الطبيعة كل هذا الالمام ؟

- انه مدرس ممتاز للعلوم فى مدرسة (يورياتن) كان يدرس فى كل من مدرستى البنين والبنات . لا أستطيع أن أصف لكم مدى عظمته . كان متزوجا ومع ذلك هامت به التلميذات . لقد تطوع فى الحرب وقتل . وقيل أن القوميسار (سترلنكوف) ليس هو الا باشا أنتيوف المدرس ! هذا مستحيل . ومع ذلك فكل شىء ممكن . أأصب لك قدرا آخر من الشاى ؟

الفصل التاسع

فاركينو

كان يورى قد بدأ يكتب مذكرات يومية منذ الشتاء ، وقد بدأها بأبيات من (تيوتشيف) مطلعها :

« يا للصيف يا للصيف !

« انه حقا لسحر

« أتساءل كيف جاء

« للغافلين دون نداء ؟

ثم كتب يورى : « هكذا شعرت أثناء الصيف الماضى . ويا للسعادة التى يجدها الانسان فى عمله منذ الفجر حتى الغسق وهو يكافح من أجل أسرته ومن أجل نفسه ويبنى لهم بيتا يعيشون تحت سقفه . ويفلح الأرض ليطعمهم ، ويخلق بيديه عالمه الذى يعيش فيه كأنه روبنسن كروزو . مستوحيا فى ذلك عمل الخالق ، ويعنى بنفسه كما لو كان هو الأم التى تعنى بوليدها . ان النفس والعقل يفيضان بالأفكار بينما تشقى يداه بالعمل . وقد يكون من الخير أن ينسى المرء هذه الأفكار التى تعرض له دون أن يدونها . ان المدينة التى تتلف أعصاب الرجال وخيالهم بالقهوة السوداء الثقيلة والتدخين ، لم تهتد الى أنجع دواء أعنى به الصحة الجيدة وضرورات الحياة . وأنا لا أدعو الى اعتناق مذهب تولستوى المنادى (بالعودة الى الأرض) كما انى لا أحاول

أن أجد حلا للمشاكل الزراعية وقصور الانتاج الزراعى وعدم كفايته واختلاط الأمور الاقتصادية » .

« ان استغلالنا الحالى لأرض فاركينو أمر غير قانونى . وكذلك الخشب الذى نحصل عليه من الغابة . واذا كان ميكولتسن يغض الطرف عنا فلأنه يستغل الأرض بنفس الطريقة . ونحمد الله على أننا فى هذا المكان النائى بعيدا عن المدينة والا كشف المستور .

« كففت عن مزاولة مهنتى لأنى لا أريد أن أحد من حريتى ، غير أنه كثيرا ما يأتى الناس من مكان ما وقد سمعوا بوجود طبيب فى فاركينو فيسيرون عشرين ميلا من أجلى . ويحضر بعضهم دجاجة أو عددا من البيض أو بعض الزبد كأجر لى ، وأنا لا أستطيع أن أرفضها فى النهاية لأن الناس لا يؤمنون بتأثير العلاج الطبى مالم يكن نظير أجر . وهكذا فان مهنتى تدر على القليل . ولكن سندنا الحقيقى هو ميكولتسن ومنجمنا هو سامدياتوف وهذا الأخير شخصية غريبة التكوين . ولا أستطيع أن أكشف حقيقتها فهو مؤيد للتطور الجديد ويستحق ثقة الهيئة التى تمثله فى يوياتن ، وبسلطته يستطيع الاستيلاء على كل ما تغله غابات فاركينو من أخشاب ، وأنا وميكولتسن لن نستطيع الا احناء الرأس أمام رغباته . وحتى لو أنه استغل منصبه فى الحصول على ما لا يستحقه فانه يمكنه أن يملأ جيوبه ذهبا دون أن يستطيع أحد أن يهمس بكلمة ، وكل شىء أمامه سهل ميسور وهو غير محتاج لرشوة أحد من الناس واقتسام الغنيمة معه . فلماذا اذن يهتم بى وبميكولتسن وبناظر المحطة وبكل أبناء المنطقة

تقريبا ؟ هو على الدوام يأتى الينا حاملا هداياه . وأحسب انه لو لم يكن كريما سخيا لما كنا نظن انه شخصية محيرة يصعب معرفتها تماما .

- ٢ -

وكتب يورى فيما بعد « نسكن فى غرفتين خشبيتين فى الطرف الخلفى للمنزل ، وفى طفولة أنا ايفانوفا (أم زوجته) كان والدها كروجر يخصص هذا المكان لبعض خدم المنزل ، مثل الحائك ، والمشرفة على المنزل ، والمربية العجوز .

« كان الكوخ لا يصلح . ولكننا أعددناه فى فترة قصيرة . واستطعنا بمعاونة من توفرت لهم الخبرة أن نصلح الموقد الذى يدفىء الغرفتين معا . كما هيأنا الأنابيب فأضحت أكثر صلاحية لنقل الحرارة .

« واذا كانت زراعتنا قد أخفت معالم الحديقة القديمة فان الشتاء ما لبث أن جاء ليقضى على مظاهر الحياة ويكشف عن الموتى ، وهكذا ظهرت أطلال الزمن الخالى ولاحت آثار الحديقة وقد كساها الجليد على مدى البصر . ومن سعد طالعنا أن الخريف كان جافا دافئا فتوفر لنا الوقت لكى نحفر لاستخراج البطاطس قبل هطول الأمطار وحلول الفصل البارد . واذا لم نحسب حسابا لما أعطيناه لميكولتسن من البطاطس ، فان لدينا عشرين جوا لا منها ، وضعت فى الخزانة وألقينا عليها الأغطية القديمة وبعض القش . وكذلك أعددنا برميلين من الخيار المملح . كما تلوح من بين قضبان السقف أزواج من ثمرات الكرنب . ووضعنا كمية من الجزر فى الرمال الجافة . أما كميات

الفول والبازلاء واللفت فقد حفظناها فى الخزانة . وتوفرت لنا أكداس من الأخشاب أمام الدار تكفينا حتى الربيع » .

« وكم أحب الأنفاس التى تنفثها الخزانة التى اختزنا فيها هذه الثمار وهى تشيع رائحة الأرض . ويسرنى ان أرى جذور النباتات وقطع الجليد التى اصطدم بها بمجرد مغادرتى الكوخ فى بواكير الصباح. فاذا ما خرجت قرقع الباب فى الظلام ، وقد أعطس وأنا أهشم بقدمى قطع الجليد فتهرب الأرانب البرية المتجمعة فى حظيرة الكرنب مولية الادبار تاركة آثارها على الثلج . ومن بعيد يتطرق الى سمعى نباح الكلاب الذى يستمر وقتا طويلا حتى يهدأ وتكون الديكة قد انتهت من صياحها وينبلج الفجر .

« وكما يمتلىء الوادى الجيلدى بالأرانب البرية كذلك توجد آثار أقدام الفهود وهى منتظمة الأشكال كحبات المسبحة ، فالفهد يمشى كالقطط ويضع مخلبا خلف الآخر فى سيره . ويقال انه يقطع عدة أميال كل ليلة .

« والناس ينصبون لها الفخاخ غير ان هذه لا تصيد الا الأرانب البرية المسكينة التى نعثر عليها مدفونة فى الصباح وقد تجمدت فى الجليد .

« مرت بنا أوقات عصيبة فى مستهل حياتنا . وكان علينا أن نكافح خلال فصلى الربيع والصيف للتغلب عليها . وآن لنا أن نستريح فى أمسيات الشتاء . وشكرا لسامديفاتوف الذى أحضر لنا كمية من زيت البرافين فاستطعنا أن ننعم بضوء المصباح . وراحت النساء يحكن

ويرتقن الملابس . أما أنا والسكندر السكندرفيتش فقد واصلنا القراءة بصوت مسموح . وكان على أن أطفىء الموقد فى الوقت المناسب حتى لا يضيع الدفء هباء بعد ان يأخذ الكوخ كفايته من الحرارة . فاذا ما صادفتنى جذوة من الخشب المحترق تنفث الدخان وتفسد الجو حملتها لألقى بها فى الخارج فوق الجليد فكان يسمع لها صوت ثم لا تلبث نارها أن تخبو .

- ٣ -

وكتب يورى فى بواكير الربيع :

« أعتقد ان تونيا حبلى . أخبرتها بذلك ويبدو أنها غير مصدقة . ولكنى على يقين من الأمر فالاعراض الأولى واضحة ولا أحتاج الى معرفة الاعراض المتأخرة للتأكد من حملها .

« يتغير وجه المرأة فى هذا الوقت فتبدو كأنها فقدت التحكم فى نظراتها فهى تحت رحمة المستقبل الذى تحمله فى احشائها بعد أن صارت شخصين فى فرد . وفقدانها القدرة على توجيه نظرها الى مظهرها يجعلها تبدو خشنة كابية الوجه ، وتفقد بشرتها نعومتها ، وتشع عيناها بريقا غير مألوف دون ارادة منها . كأنها أهملت كل هذه الأمور وباتت لا تهتم لها .

« كانت العلاقة بينى وبين تونيا تقوم على التآلف التام وقد قوى العام الذى قضيناه فى كفاح مشترك من روابط الألفة بيننا . فتبينت كم هى خفيفة الحركة قادرة على العمل دون كلل ، وكم هى ماهرة فى تدبير

أعبائها بحيث لا تضيع وقتها سدى فى الانتقال من أداء هذا الى القيام بذاك .

- ٤ -

« قرأنا (ايوجين اونجن) وأشعارا أخرى لبوشكين . وحضر سامديفاتوف محملا بهدايا عديدة وبزيت للمصباح . وكان الفن موضوع حديثنا .

« وأرى أن الفن ليس قاعدة عامة واحدة تنطبق على جزئيات من أفكار متعددة وظاهرات كثيرة . بل العكس فى نظرى هو الصحيح ، فالفن شىء مركز محدد تحديدا تاما ، فهو روح تسرى فى كل عمل فنى ، والفن قوة ينطق بها العمل الفنى . وهو الصدق الذى يتجلى فى الأثر الفنى . ولم أر أبدا أن الفن شكلا من الأشكال، ولكنه جزء خفى من العمل الفنى .. هذا واضح فى ذهنى وضوح النهار . وأشعر بهذا الشعور فى أعماق نفسى . غير أنه من أصعب الأمور ان أعبر عن ذلك بألفاظ .

« ويمكن للعمل الفنى أن يستهوينا بمختلف الوسائل سواء بفكرته ، أو بموضوعه ، أو بأوضاعه أو بشخصياته . ولكنه - قبل كل شىء - لن يثير اعجابنا الا بوجود عنصر الفن حاضرا متمثلا فيه . ان المرء يعجب بوجود عنصر الفن فى قصة (الجريمة والعقاب) أكثر مما يجدها فى جريمة راشلكنوف التى هى جريمة من واقع الحياة

« ولا يعرف الفن الثنائية ، فالفنون البدائية والفن المصرى والاغريقى

وفننا ، تتضمن جميعا عنصرا واحدا من الفن مهما اختلفت العصور . ويمكن أن يقال عنه أنه فكرة أو نظرة معينة للحياة ، وكل هذه متداخلة فيه بحيث لا يمكن أن ينفصل منها جزء عن الآخر . وليس للكلمات أن تبين عن هذا الانفصال .

- ٥ -

« أحسست برعشة خفيفة وربما كانت درجة حرارتى مرتفعة قليلا وأنفاسى لاهثة وأشعر بالتهاب وثقل فى الحلق . وهذه أعراض سيئة . لا بد أننى مصاب بداء القلب بالوراثة عن أمى . وهى التى أمضت عمرها تعانى وتتألم منه . أهو داء القلب حقا ؟ هكذا سريعا ؟ لو صح ذلك فما أقصر العمر .

« شممت رائحة احتراق وتونيا تكوى الملابس وقد اصطدمت المكواة بغطائها فأحدثت صوتا مثل اصطكاك الأسنان . انه يذكرنى بصوت آخر يشبهه ولكنى لا أعرف على التحديد ما عساه يكون .

« عندما تتحسن صحتى سأذهب الى المكتبة العامة بالمدينة التى يقولون عنها أنها أصبحت أكثر استعدادا وأعيد تنظيمها بما توفر لها من هبات سخية .

« يلازمنى الصداع ويشتد بمرور الأيام . نمت نوما مزعجا ، وحلمت حلما مضطربا مهوشا لا يخرج عن تلك الأحلام التى لا يلبث المرء أن ينساها . وكل ما علق بذهنى من ذلك الحلم هو صوت امرأة ، سمعته بوضوح فى نومى وكان له صدى بعيدا . تذكرت

ذلك الصـــوت ، ورحت أنصت له وهو يتردد مرات فى خاطرى . وأخذت أقارنه بأصوات صديقات العائلة لعلى أهتـدى الى من تكون صاحبة ذلك الصوت العميق ، الرطب ، الحزين الناعم . حسبته صوت تونيا وقد عجزت عن تمييزه لشدة ألفتى له وكثرة تعودى سماعه . فحاولت أن أنسى أنها زوجتى وان أراها عن بعد لا تحقق هل هو صوتها حقا . لكنه لم يكن صوتها . وبقى الأمر غامضا بلا تفسير .

« يزعمون أن المرء يحلم بالأشياء التى تؤثر فيه تأثيرا عميقا خلال يومه . ولكن الحقيقة كثيرا ما تكون على العكس من ذلك . والواقع اننا نحلم بالأمور التافهـــة التى لا نعيرها اهتماما فى يقظتنا ، فنحن نسترجع مثل هذه التوافه فى أحلامنا وقد تمثلت فى أشخاص . ان مثل هذه الأمور تدفع الانسان الى التفكير فيها ما دام يهملها فى يقظته .

- ٦ -

« قرأنا بوشكين وناقشناه ، ورأينا أنه استـــطاع أن يجعل من موسيقى شعره تعبيرا عن الهواء والضياء وأصوات الحياة ، وســـائر الكائنات الواقعية التى نصادفها فى الشارع والتى تنبض بها صـــوره الشاعرية نبضا يجعلنا نحس انها وثبت الى شـــعره من الطريق عبر النافذة .

- ٧ -

« أريد أن أنفع الناس بعملى كطبيب وعملى كفلاح . وأريد فى نفس الوقت أن أقوم بعمل خالد ، وكم أرغب فى أن أكتب كتابا فى

الفن أو العلم فما الذى يمنعنى من ذلك ؟ ليس المانع هو هذه الحياة القلقلة التى لا تستقر ، وانما الذى يحول حقـــا بينى وبين ما أريد تحقيقه هو تلك الصيغ اللفظية التى نسمعها فى حياتنا اليومية ، تلك الصور البلاغيـــة الجوفاء مثل (فجر المستقبل) و (حملة مشـــاعل الانسانية) و (تشييد عالم الغد) التى يخيل اليـك اذ تسمعها لأول مرة أنها ترجع الى خيال خصب . والحقيقة أنه لا خيال هنـــاك لأن الخيال ليس ضروريا لمن يتشدقون بهذه الألفاظ .

« ان الذى يثيرنا فى الحقيقـة هو الواقع الذى يجرى فى حياتنـا اليومية وقد مسته يد العبقرية . وخير مثال لذلك هو بوشكين ،الذى كان مهتما الى درجة كبيرة بتصـــوير العمل الشريف والواجب وما نلمسه فى الحياة . واذا كان اصطلاح (الطبقة الوسطى) من الكلمات غير المرغوب فيه اليوم الا أن بوشكين تغنى بها قائلا :

« لأن يكون لى ربة بيت فذلك أجمل أحلامى

« ولأن تتوفر لى حياة مطمئنة

« وآنية عميقة من حساء الكرنب

« فذلك منتهى آمالى

- ٨ -

« بشائر الربيع ... ذوبان الجليد . الهواء الناعس يحمل رائحة فطائر العسل والفودكا من الضاحية القريبة . وشمس غافية متثاقلة كالزيت تختلس سبيلها الى الغاب ، وأشجار البلوط الغافية تطرف بأوراقهـا

المدببة كالأهداب ، وغدران صفحاتها كالزيت تتألق فى الظهيرة . ان الريف يتثاءب ويتمطى ، ثم يمضى الى رقاده .

« فى الفصل السابع من اونجين أونجن نجد منزل اونجن خاويا لغيبته ، وقبر ليسكى الى جانب الجدول ملقى تحت أقدام التل ، واذ ذاك يقول الشاعر :

« والعندليب عاشق الربيع

ينفق الليل غناء

فتتفتح زهور البرارى » .

« لم ذكر كلمة عاشق؟ أهو اللفظ المناسب؟ أو لعله يقصد العندليب الذى اختطف القلوب . فى قصة رقصة الباليه (العنـــدليب الذى اختطف) حيث يقول :

« عندما أرسل العندليب صفيره

مناديا غابته الوحشية

انتفضت الحشائش مرتعشة

وتظللت الزهور بأوراقها

وأحنت الغابة السوداء هامتها الى الأرض

وجميع أهل الخير سقطوا صرعى » .

« لما حللنا بفاركينو فى الربيع الباكر انبتت الخضرة فى الشجر بمجرد أن أرسل ذلك العندليب تغريده .

« ورحت أتأمل الفارق بين صوته وأصوات سائر الطيور ، والبون الشاسع بينها وبين ذلك التغريد السخى الفريد .

- ٩ -

« الربيع فصل الغرس

« زارنى مريض وألح كى أفحصه ، فاضطررت الى أن أظهـر بعض الأدوية التى أهدانى بها سامدياتوف خلسة .

« رأيت عربة أخرى فى الفناء . لعله مريض آخر ، غير أن الزائر الجديد لم يكن الا أخى غير الشقيق (يفجريف) الذى احتفى الجميع بمقدمه . لا أدرى من أين جاء ، فهو يراوغ دائما فى الاجابة كلمـا سئل عن ذلك . أقام بيننا أسبوعين . ويبدو أنه قوى النفوذ . ولـكنى لم أستطع أن أعرف طبيعة المركز الذى يشغله . وعلى كل فهو شخص خطير فهو أقوى نفوذا من ساميفاتوف : ترى ما هو سر قوته حتى استطاع أن يعدنا بتسهيل وسائل العيش .

« من الغريب أن يكون أخى دون أن أعرف شيئا عن حقيقته .

« ها هو يتقدم للمرة الثانية لينقذنى ، ويذلل لى جميع الصعاب . وربما كان من الضرورى لكل انسان أن يلتمس قوة مجهولة ، قوة رمزية تهبط عليـــه دون أن يستدعيها لتنقذه وتخلصـــه . ان أخى (يفريجريف) هو مخلصى ومنقذى .

- ١٠ -

بدأ يورى يذهب للمكتبة العامة ، وكان يعود قبيل المساء .

كان يقرأ وخلال النافذة رأى المشاهد التقليدية المعبرة عن طبيعة الحياة فى المدينة .

- ١١ -

كانت أمينة المكتبة شخصية كثيرة الاضطراب ، سريعة الغضب . وبينما هو يقرأ لمح (لارا) . وكانت تهدىء من روع الأمينـــة ، وابتسم القراء لها مما يدل على ما لها من منزلة فى قلوبهم . وأيقن أن ذلك الصوت الذى حلم به هو صوت لارا دون النساء جميعا !

- ١٢ -

تبادر الى ذهنه ان يتقدم اليها ويحدثهـا . فحال دون ذلك خجله واضطرابه النفسى الذى يخالجه على الدوام حين يلقى الناس .

تشاغل عنها بالقراءة فلم يفهم ما يقرأ ونظـــر فاذا لارا بارحت المكتبة .

واستدل من بطاقة استعارتها على عنوانها وهو (شارع التاجر أمام البيت التجارى) . فاستفهم عن معنى ذلك وعرف أن العادة جرت بين أهالى مدينة يورياتن على نسبة المساكن الى موقعها من البيت التجارى ، كما كانت عادة أبناء موسكو أن يسموا الحى تبعا لاسم الكنيسة التى توجد فيه .

واهتدى الى ذلك البيت ، وهو مبنى عتيق أمامه تمثال لالهة الشعر . كان قـد بناه أحد التجـار فى القرن المـاضى ليكون مسرحا خاصـا

به ، ولكن ورثته باعوه الى نقابة التجار التى أطلقت اسمه على الشارع ثم أطلق على الحى بأكمله فيما بعد . أما اليوم فتشغله اللجنة الحزبية للمدينة .

- ١٣ -

فى يوم من أوائل مايو أمضى يورى ساعات فى القراءة بالمكتبة ثم عقد العزم على زيارة لارا .

كانت تسكن فى جانب من شارع التجار فى بيت مقـــابل للبيت التجارى ، المعتم ، ذى الزرقة الحائلة .

كان للمسكن مدخلان أحدهما من الشـارع الكبير والآخر باب يطل على فناء خلفى . ومن هذا الباب دخل يورى فألفى لارا بالفنـــاء تحمل دلوين مملوءين بالماء . وعبثت الدجاجات بأقدام يورى .

كان شعرها مهملا وعقدت رأسها بمنديل . وها هى تهم بالدخول الى مسكنها حاملة الماء وقميصها مطوى بين ركبتيها .

وما لبث الهواء أن طوح بالمنديل فوقع على الأرض فانحنى يورى يلتقطه ليعيده اليها .

وصاحت : زيفاجو ؟

– لاريسا فودورفا (يعنى الاسم الكامل لها)

– بالله ماذا جئت تصنع ؟

ـ ضعى الدلوين سأحملهما عنك .

ـ انى لا أتوقف أبدا فى منتصف الطريق . لا أترك ما بدأته دون ان أتمه . ترى هل جئت لتراني ؟

ـ طبعا جئت لاراك .

ـ وما أدراني ؟

ـ دعيني أحمل عنك الماء . فأنا لا أستطيع أن أقف ساكتا وأنت تحملين هذه الأعباء .

ـ وهل هذه أعباء ؟ دعني . سوف يتساقط الماء على الدرج اذا حملته أنت . أليس من الأفضل ان تخبرني لم جئت الآن وأنت هنا منذ عام ؟

ـ وما أدراك ؟

ـ الأخبار تنتشر فى كل مكان . ثم انى لمحتك فى قاعة المطالعة بالمكتبة .

ـ ولم لم تتحدثى ؟

ـ وأنت ؟ أظنك ستقول انك لم ترنى

سارت قليلا ثم قالت ـ سأرشدك خلال الممر الداخلى الى البهو الأمامى فهو أسطع نورا . عليك أن تنتظر قليلا وسآخذ الدلولين الى الدرج الخلفى وأصلح هندامى وأعود . لن تنتظر طويلا . انظر الى سلمنا الحديدى المفتوح الدرجات . ان المبنى عتيق فضلا عن تأثره بالقنابل . أترى الى هذه الكوة بين أحجار البناء ؟ هنا نترك أنا

وكاتيا مفتاح المسكن اذا خرجنا . تذكر هذا فقد تحضر دون أن تجدنا فتستطيع أن تدخل وتستريح حتى أعود . أنظر . ها هى الكوة . لا يوجد فيها المفتاح الآن وسأذهب لا فتح الباب من الداخل . ان ما يزعجنا حقا هو الفيران . يوجد منها عدد هائل ولا يمكننا التخلص منها فالجدران قديمة .. حاولت أن أسد أبواب جحورها دون جدوى .. ربما تستطيع معاونتى يوما ما فى القضاء عليها . ما قولك ؟ ابق هنا وسأصعد أنا وسأدعوك بعد قليل . فكر فى طريقة تتخلص بها من هذه الجرذان .

وبقى ينتظر متأملا الجدران المتداعية وقال لنفسه (رأيتها فى قاعة المطالعة بالمكتبة وكانت مخلصة تماما للعمل الذهنى ، وها أنا أراها تؤدى عملا يدويا شاقا بنفس التحمس والاخلاص . فهى تحمل الدلو الذى ملأته من البئر بنفس الرشاقة والانطلاق . هناك تناسق وبساطة فى كل ما تؤديه كما لو كانت قد حملت منذ طفولتها على مواجهة الحياة فأصبحت مهيأة لعمل كل شىء . يبدو هذا كله واضحا فى انحناءات ظهرها وفى ابتسامتها اذ تنفرج عنها الشفاه فتستدير ذقنها . كما يبدو فى كلماتها وأفكارها) ونادت لارا من الطابق الأعلى ـ زيفاجو !

وأخذ يصعد الدرج .

- ١٤ -

ـ هات يدك وخذ يدى . علينا أن نجتاز الغرف المظلمة حيث توجد أكداس من الأثاث ، وقد تصطدم بقطعة منه فتصاب .

ـ ظلام معتم ما كنت لأجد طريقى فيه وحدى . لم هذا ؟ أكنت تعيدين طلاء المسكن فكدست الأثاث ؟

ـ أوه .. السبب لا علاقة له بشىء من هذا القبيل . فالأثاث لأصحاب الدار الذين تركوه وأنا لا أريد استخدامه . لما تم الاستيلاء على مبنى المدرسة أعطونى جزءا من هذا المبنى . لا تسحب يدك من يدى والا ضللت . ها نحن . استدر الى اليمين . خرجنا من الظلام ، وصلنا .

ووقع نظره خلال شباك الحجرة على اللافتات الكبيرة التى كان قد رآها من نافذة القطار والتى تعلن عن مصانع الآلات الزراعية .

وتذكر ما حدث له عندما كانوا فى طريقهم من موسكو الى يورياتن .. وأفضى اليها بما حدث أثناء مقابلته لسترلنكوف كما ذكر لها ما سمعه من شائعات تزعم أن ذلك الرجل هو بعينه باشا انتيبوف زوجها . فتأثرت تأثرا عميقا بحديثه وقالت :

ـ أنت رأيته ؟ ما أغرب ذلك . ولكنى لن أحدثك عنه الآن . وسوف تسمع من حديثه عجبا . يخيل الى انه من المقدر لكما أن تلتقيا . غير انك تبدو معجبا به ؟

ـ كان يمكنه أن يقبض على .. وكنا قد مررنا بالمناطق التى أخضعها وبالقرى التى أحرقها ودمرها فتبادر الى ذهنى أننى سألتقى بمهرج .

ـ يقولون انه لا ينتمى للحزب السياسى .

ـ ولذا فانى أتوقع له شرا .. ان عمله كقائد هو عمل مؤقت وهو

يجد فيه خلاصه مما قاسى من ظروف الحياة وأهوالها . لكنه لا يتفق مع نوع ثقافته . أنا لا أعرف مفتاح شخصيته الغامضة . فلا بد أن وراءه سرا . على كل فانه سرعان ما ينتهى من مهمته ويصبح غير مرغوب فيه .

ـ تظن ذلك ؟

ـ بل أؤمن به .

ـ يمكنه أن يختفى .

ـ لم يعد الاختفاء ممكنا .

ـ أثرت أحزانى عطفا عليه . لكنك لم تكن ساخطا على الأمور السائدة كما أنت الآن .

ـ لم نر خيرا فيها فنحن نعيش فى دوامة لا استقرار لها ولا يوجد من درب على حمل الأعباء ـ يعدون للمستقبل ونحن نريد أن نعيش الآن . ولكن دعينى أسألك عما حدث هنا فقد جئنا فى وقت كانت فيه المدينة مضطربة أشد الاضطراب .

ـ كان وقتا عصيبا ساده الفزع والرعب .. وكنا قد اعتدنا ذلك فأنت لا تدرى ماذا حل بنا على يد الجيش الأبيض . القتل والانتقام والوشاية . أهوال بمعنى الكلمة ! ولكنى لم أحدثك عن صديقنا جاليولين الذى صار قائدا عاما .

ـ لقد سمعت عنه .. هل قابلته أنت ؟

ـ كثيرا . ولا أظنك تقدر عدد الأرواح التى أنقذتها ، كان رجلا

مهذبا . ساعدنى كثيرا فهو صديقى منذ الطفولة وكم لعبنا معا ، كنا فى حى يسكنه عمال السكة الحديدية حيث نشأت بين أترابى من أبناء العمال أمثال جاليولين . ولهذا فان للثورة فى نفسى معنى يختلف عن معناها بالنسبة لك . كثيرا ما ذهبت الى لقائه وتحدثنا عنك .

وجاءت كاتيا ابنتها وابنة باشا ، وقدمتها له فقال ـ اننى أعرفها من الصورة التى كنت تحملينها فى جبهة القتال . غير أن كاتيا أكبر الآن مما كانت فى الصورة .

وقالت الأم : حسبتك بالخارج فأنا لم أسمعك تدخلين .

ـ نظرت فى كوة المفتاح وكان بها فأر كبير هكذا .

وارتسمت على وجهها امارات تثير الضحك فقالت الأم : والآن هيا . سيبقى عمك يورى للعشاء فاخرجى الطعام من الموقد .

ـ شكرا . كم أود أن أبقى غير أننا نتناول عشاءنا فى السادسة ولا أريد أن أعود الى فاركينو متأخرا . فالطريق يقطع فى ثلاث بل فى أربع ساعات تقريبا . على أن أرحل على الفور .

ـ يمكنك أن تبقى نصف ساعة .

ـ ما أحب ذلك الى نفسى .

- ١٥ -

« والآن وقد صارحتنى فدعنى أصارحك . ان سترلنكوف الذى قابلته ليس غير زوجى باشا أنتيوف . باشا الذى ذهبت الى جبهة القتال باحثة عنه والذى لم أصدق خبر موته .

ـ هكذا سمعت غير أنى لم أصدق ولهذا أفضيت اليك بالخبر دون اكتراث . ولكنى ـ وقد رأيته ـ فأنا لا أستطيع تصور وجود رابطة ما تربطك به . ولا أرى أى شبه أو اتفاق يجمع بينكما .

ـ مهما يكن رأيك فالحقيقة أنه هو بعينه زوجى باشا أنتيوف . وكاتيا تعلم بذلك وهى فخورة بأبيها . أما سترلنكوف فهو اسمه المستعار كما يستعير كبار الرجال أسماءا لهم فى هذه الأيام وهو الذى استولى على يوريانن وألقى قنابله عليها مع علمه بأننا نعيش فيها . ولا لوم عليه فى ذلك ما دام يؤدى واجبه .

« رحل الآن الى سيبريا وقد سمعتهم يوجهون اليه اتهامات يقف شعر الرأس لفظاعتها . ذهب على رأس حملة من أهم الحملات ليلتحم فى قتال مع جاليولين صديق طفولته الذى يعرف حقيقة شخصيته والذى كان يعلم أننى زوجته ولكنه لم يشر الى هذه الحقيقة مطلقا .

« كان باشا يأتى الى مركز القيادة قريبا من هذا المكان غير أنه لم يذهب لزيارة والده الذى يقطن غير بعيد . كما انه لم يحضر الينا فهل تتصور ذلك ؟ أما والده فلم يجد غضاضة فيما فعل ما دام ابنه يفضل ان تظل شخصيته الحقيقية غير معروفة . هذه قلوب من حجر لا قلوب بشر . وانه لحرى بباشا ألا يخضع للمثاليات المجردة البعيدة كل البعد عن العواطف والمشاعر الشخصية . وأولى بمن يحررون الناس ان يتحرروا من الأوهام والانطواء الذاتى . نعم لم يأت الينا . قد تظن أنه راغب عنا كاره لنا . ولكن هذا غير صحيح فأنا أعرفه على حقيقته وأعرف تماما أنه يصبو الى الحصول على ما فيه الخير لنا ولم

يحتمل العودة الينا خالى الوفاض . يريد ان يرجع الينا بطلا فاتحـــة مكللا بالمجد ، ويضع أمجاده تحت أقدامنا . كأنه طفل !

- ١٦ -

قفل يورى عائدا الى يورياتن ، وقد اعتاد الطريق الذى اجتـــازه مرات ومرات ، فلم يعد يحفل بما اعتاد ولم يكن شديد الحـذر كما يفعل الغريب الذى لم يألف المكان .

ها هو يعبر الغابة فى طريقه الى القرية ، سيصل الى مفترق السبل عند الغروب .

أخذ يتردد على لارا خلال الشهرين الماضيين ، وكثيرا ما أمضى الليالى عندها ، معتذرا لأسرته بأن بعض الأعمـــال تضطره للمبيت بالمدينة بفندق سامديفياتوف .

أصبح ينادى لارا باسمها الأول بدلا من (لاريسا) وأصبحت هى تناديه بيورى بدلا من زيفاجو رفعا للكلفة التى لا تكون بين العشاق والأحباء .

وهو يخفى عن تونيا سر ذلك الشعور الجارف الذى يجتاح نفسه .

وعلى الرغم من ذلك فهو كلف بتونيا ، ويود لو ظلت حياته هادئة لا يكدر صفوها . فهذا أهم ما يجب توفره . كما أنه على استعداد لأن يجنب تونيا ما يسىء الى كرامتها . ويدافع عنها أكثر مما تدافع هى أو والدها . بل لا مانع لديه من القتال والموت فى سبيل صيانة عزتها . غير انه يقترف فى الوقت نفسه ما يسىء الى عزتها وكرامتها .

وأنه ليشعر بائمه اذا ما استقر بداره ، فان كتمانه لما بين جوانحه يعذبه ويضنيه ، واذا ما تحدث الى شخص شرد ذهنه متصورا هول ما يقارف من اثم .

فتقول تونيا : ماذا دهاك ؟ لا بد أنك سمعت أخبارا ســـيئة فى المدينة . قل لى ولا تخش أن تدفعنى أخبارك الى اليأس والقنوط . صارحنى وسترى انك تتخفف من همومك بما تقول .

أكان سبب خيانته لها أنه يفضل امرأة أخرى عليها ؟ مطلقا . فهو لم تتح له فرصة المفاضلة والاختيار . وهو لا يؤمن بالعشق المتحرر من التقاليد ، كما لا يؤمن باطلاق العنـــان للنزوات والأهواء . ولو انه سمع حديثا يدور حول هذه الأمور لأحس من فوره بمدى ما فيه من الضعة والهوان .

لم يؤمن أبدا بالمغامرات العاطفية كما أنه لم يعتقد انه الانسان الكامل الذى يبيح لنفسه حقوقا وامتيازات ليست لسائر الناس . وها هى نفسه تسحق سحا تحت وطأة الشعور بالاثم .

وراح يسأل نفسه : وماذا بعد ؟

كأنما ينتظر ظروفا غير متوقعة تحل له المشكلة . وفى هذه اللحظة تغيرت الأوضاع اذ كان قد اعتزم قطع هذه العلاقة . وانه ليعود الى بيته وقد حسم أمره والتمس لنفســه مخرجا من محنته . ســيعترف لتونيا بكل شىء ويطلب اليها الصفح واعدا اياها ألا يلقى (لارا) مرة أخرى .

والآن وقد استقرت الأمور كما يجب أن تستقر ، فانه يرى انه لم يكن واضحا كل الوضوح اذ أخبر لارا بأنه سيعترف لزوجه وانهما يجب بأن يضعا حدا لعلاقتهما .. ها هو يرى ان الأمور لا تزال مهوشة لم تحسم حسما قاطعا .

انه أوضح للارا مدى ما يلقى من اليأس والشقاء ولكنها لم تشأ أن تثير عاصفة تؤجج غضبه ، بل حاولت الاصغاء لحديثه معها - وهما فى احدى غرف مسكنها المطلة على الشارع - فبقيت هادئة هدوء السحاب وفاضت الدموع على وجنتيها دون وعى منها . وأخذت تردد « افعل ما تراه خيرا ، لا تلق بالا الى فأنا سرعان ما أنسى » ..

كانت حرارة ايمانها بما تقول واضحة ولم تتظاهر بنبل الخلق . وما تنبهت الى أنها تبكى ولم تحاول ان تكفكف دمعها الهتون .

ولما تبادر الى ذهنه أن لارا ربما أساءت الفهم ، وانه قد تركها تعلل النفس بأمان زائفة ، فانه ما لبث أن لوى عنان جواده معتزما ان يعود اليها ليصارحها بما لم يذكر ، وليقوم بواجب أهم من ذلك وهو أن يودعها وداعا أكثر حرارة ورقة ، وداعا لائقا بالفراق الأخير . ولكنه كبح جماح نفسه فى غير يسر وانطلق فى المسير .

وفى طريقه ذاك رأى الشمس فى الأفق وكأنها ترفض أن تغيب ، واذا بعندليب يغرد وكأنه يقول « تيقظ .. تيقظ » كما يرددون فى صلوات الأحد يوم عيد الفصح حيث يقال « تيقظى ، أى روحى ، لم الاغفاء » . وفجأة دهش يورى اذ واتته فكرة غاية فى البساطة . فيم العجلة ؟ انه حقا سيذهب ، كما يقضى العهد الذى قطعه فيما بينه وبين

نفسه وسوف يعترف ولكن من الذى قال ان هذا كله سيتم اليوم ؟ هو لم يذكر شيئا لتونيا بعد . وسيكون حديثه مع لارا فيه من عمق المشاعر ودفئها ما يرضيه وما يأسو جراحها .

ما أروع ذلك وما أبرعه . من الغريب حقا انه لم يخطر على باله من قبل .

واذ تصور أنه سيلقى لارا مرة أخرى أخذ قلبه يتراقص فرحا وراح خياله يهفو ويحلم باللقاء الموعود .

وقفل عائدا اليها .

وأمام تلك اللافتات الخشبية التى تعلن عن الآلات الزراعية التى رآها من قبل.. قفز الحصان . فقد اعترض طريقه ثلاثة رجال مدججين بالسلاح وعليهم أحزمة محشوة بالرصاص . تقدم الفارس وهو رئيسهم شاهرا السلاح قائلا :

- لا تتحرك أيها الرفيق الطبيب . انك سالم ما أطعت . فان لم تفعل أطلقنا عليك رصاصنا . ان الجراح الملحق بوحدتنا قتل وعلمنا أنك طبيب . ترجل عن جوادك وأعطه لهذا الشاب . ودعنى أذكرك اننا سنشهد مصرعك ان حاولت الفرار .

- أأنت الرفيق ليبريوس ابن ميكولتسن ؟

- لا بل أنا كبير ضباط الاتصال بفرقته .

الفصل العاشر

الطريق الرئيسى

تقع على الطريق الرئيسى المدن والقرى ودساكر أبناء القوقاز ـ كان ذلك هو الطريق البرى الرئيسى فى الزمن القديم ، كما كان أعظم طرق سيبريا على الاطلاق . وكان يمر بالمدن فيشطرها شطرين كالسكين الذى يشطر رغيفا من الخبز .

اجتازه فى العصور الخوالى الرسل الذين يحملون البريد كما عبرته القوافل المحملة بالشاى والخبز والحديد فى حراسة الحراس الذين كانوا يقطعونه سيرا على الأقدام ، وهم يجرون أذيالهم ، وقد أحسوا بالشقاء والضياع ، ومن حولهم أصوات الغابة السوداء البكر التى لم تطأها قدم .

وكان هؤلاء القوم الذين يعيشون على جانبى الطريق يشعرون بأنهم أبناء أسرة واحدة بعد أن جمعت بينهم علاقات المودة والتزاوج ، وكانت مدينة خود سكوى التى يلتقى عندها الخط الحديدى بالطريق الرئيسى مركزا هاما ففيها حوانيت لبيع قطع غيار آلات ، وورش أخرى معدة لاصلاح الطريق الحديدى ، وهناك يعيش أفقر الفقراء ، الذين سرعان ما يمرضون ويموتون . أما المساجين السياسيون الذين أمضوا مدة عقوبتهم دون عصيان والذين أوتوا حظا من الدربة على الآلات ، فكان يسمح لهم بالاستقرار فى تلك المدينة كأنها منفى اختيارى وكانوا يعتبرون من العمال المهرة .

وكم من عجائب تقع فى ذلك الطريق ، وكم من شخوص بائسة ، وكم من فظائع تسببها الحرب بين هؤلاء الذين سبق أن جمعت بينهم أواصر المودة والتزاوج .

كان يحتل المدن هذا الفريق أو ذاك من الجيشين المتحاربين ، ويتناوبان على احتلالها . فتكون المتناقضات والمآسى المفجعة التى سمعها بورى أو رآها .

الفصل الحادى عشر

أخوة الغـابة

ها قد انقضى عامان منذ أن حمل يورى على مغادرة أهله ، واضطر اضطرارا لأن يلتحق طبيبا بالجيش . وشعر بشـعور السجين دون سجن ولا أسوار ولا حراس . وكان الجيش دائب الانتقال . وكان رجاله يمتزجون امتزاجا تاما بأهل القرى التى يمرون بها .

وخيل اليه أن ما يصوره لنفســـه سجنا لم يكن غير وهم من الأوهام ، ومع ذلك فانه لم يتخلص من الاحساس بالقيود تقيـــده وتحد من حريته .

وكان الجيش يمضى قـدما الى الشرق ليقضى على الجيش الأبيض الذى كان بقيادة جولشـــاك ، والذى كان ممتد السلطان فى غرب سيبريا . غير ان التقدم المذكور لم يستمر . فكثيرا ما حدثت هجمات مضـادة . ولم يكن يورى راضيا عما يشهد ، بل لم يجد لهـذا كله معنى .

كانت القرى التى تقع على الطريق الرئيسى تتقاسمها النزعات تبعا لنوع الجيش الذى له الغلبة فيها فى وقت من الأوقات . وكان من الصعوبة بمكان أن يلمس المرء بوضوح حقيقـــة ميول الجماهير فى مثل هذه الأحوال المضطربة .

والجنود الريفيون اذ يتقدمون فى منطقة من المناطق كان كل شىء

يبدو صغيرا بالنسبة اليهم ، فتتضاءل المنازل على جانبى الطريق وتكاد تتكمش ، بينما ركاب الخيل ، والخيل نفسها ، والبنادق ، كل هؤلاء يلوحون ، وهم يخوضون مياه المناقع وطينها ، أكثر ارتفاعا من البيوت القائمة .

ولقى يورى يوما (بلاجيا تايجنوفا) وهى ممن كانوا يسافرون فى القطار الذى نقله وعائلته من موسكو . كان ذلك فى يوم دعى فيـــه هو والكيمائى للاستيلاء على مواد طبية تركها الجيش الأبيض مكرها وهو ينسحب .

لم يبق من الطـريق ، الذى دكته الجيوش بمرورها دكا ، غـير مناقع وطين ، ولمح يورى المرأة عن بعد وهى تنظر اليه تلك النظرة التى تشجع على التحية .. لم يذكرها فى بادىء الأمر غير أنه فجأة عرفهـــا . بين عربات البضـــائع والعمال المسخرين وحراســهم ، وبين النسوة اللواتى أرسلن جدائل شعورهن حتى أكتافهن ، توهجت فى خياله صورة أسرته . وتذكر تفاصيل رحلته السابقة ، كما تألقت فى ذاكرته صور أولئك الأحباء الذين يتحرق شـــوقا للقائهم دون أمل .

أشار اليها فقابلته فى ناحيـــة من الطريق حيث توجد أحجـــار جانبيه .

وقصت عليه كثيرا عما لقيته خلال العامين الماضيين ، وعن الفتى فاسيا الذى كان صبوح الوجه والذى صحبهم فى عربة القطار وكيف أنه اضطر للالتحاق بالمقاتلين فى سن مبكرة ، وأشارت الى أنها قضت

فترة في قرية (فترنكى) حيث طابت لها الحياة ولم يعكر صفوها الا كونها أجنبية عن القرية فى نظر القرويين . وها هى تستقر بالبلدة الصغيرة . حيث وجدت عملا بعد أن اضطرت الى ترك القرية لاتهامها ظلما بوجود علاقة آثمة بينها وبين رجل من رجالها . وشكت له وحدتها بعد ما فقدت من أصدقاء ، وأشارت الى ما نزل بآل الفتى فاسيا من تشريد وتعذيب وما أصاب بيتهم من حريق . ويقال أن واحدا من الأسرة لقى حتفه ، أما الفتى الصغير الحدث ، الذى لم يكن فى سن تسمح له بالتمييز بين الخبيث والطيب والذى كان قد رأى فى الهرب نوعا من البطولة الصبيانية فان مصيره لم يعرف بعد ، ولعله سيق الى السجن أو اعدم بالرصاص .

كان من بين ما وجده من الأدوية آنية بأكملها مليئة بالكوكايين وكان عليه أن يتسلمها مع الأدوية الأخرى .

- ٢ -

ما أكثر الذين سقطوا ضحية للتيفوس فى الشتاء ، وللدسنتاريا فى الصيف .

وكانت الفرقة التى يتزعمها ليبريوس ابن ميكولتسن قد تضاعفت عشر مرات بما انضم اليها من هؤلاء القرويين الذين مرت الفرقة بقراهم . وكان فيمن التحق بها عدد من المساعدين منهم لاجوس المجرى ذو الميول الثورية وكان يتحدث الى يورى بالألمانية .

- ٣ -

تحتم اتفاقية الصليب الأحمر الدولية ألا يشترك من يزاولون المهن الطبية فى العمليات الحربية . ولكن يورى اضطر للخروج على هذه القاعدة ذات مرة اذ حدث هجوم مفاجىء ، وكان عليه أن يشارك المدافعين مصيرهم .

ففى الجبهة دهمتهم قذائف العدو ، وكان خط القتال محددا بنهاية الغابة . فألقى يورى بنفسه أرضا الى جانب عامل التليفون . كانت الغابة خلفهم ، بينما ينبسط أمامهم حقل من الحقول . ومن ذلك الموقع المكشوف أخذ فريق من الجيش الأبيض فى مهاجمتهم . اقتربوا من يورى بحيث استطاع أن يلمح وجوههم . كانوا صبية من أبناء المدن المتطوعين ومعهم رجال أكبر سنا جىء بهم من الجيش الاحتياطى . وكان التحمس باديا على الفتيان المهاجمين وهم ليسوا الا طلبة التحقوا حديثا بالجامعات أو تلاميذ فى المرحلة الثانوية .

انهم يذكرون يورى بأصدقائه فى الدراسة ومن يدرى فلعلهم أشقاء أولئك الأصدقاء ، وانه ربما التقى بهم من قبل بين جماهير المسارح التى تردد عليها أو فى الطرق التى سار فيها .

ان الحماس والشعور بالواجب تملكهم ، فاندفعوا فى جنون متقدمين على خط مستقيم ، لم يولوا الأدبار ولم يلقوا بأنفسهم أرضا حين تنبهوا الى الطلقات التى أخذت تنهال عليهم من ناحية الغابة . وفى وسط ذلك الحقل العارى نهضت شجرة جافة ، ربما كانت

المعارك الماضية قد أصابتها فسلبتها معالم الحياة ، فاحتمى الفتية خلف تلك الشجرة .

أما ذلك النفر القليل من جيش الفلاحين الذين صحبهم يورى فقد كان عدد الطلقات التى لديهم محدودا فضلا عن ان التعليمات تمنع مهاجمتهم للفرق الكبيرة .

ولم يحمل يورى غدارة ما ، وكان يشارك أولئك الفتيان المهاجمين حماسهم ويتمنى نجاحهم اذ شعر بأنهم يشتركون معه فى نوع الثقافة ويؤمنون بنفس القيم التى يؤمن هو بها ، وتبادر الى ذهنه أن يجرى ليلحق بهم غير أن فى ذلك الخطر بل الهلاك المحقق لأنه سوف يصبح هدفا لطلقات كل من الطرفين المتحاربين لو تقدم رافعا يديه كما كان يعتزم .

تطور الموقف ولم يعد مسألة تتعلق بطرف من الطرفين ، وبما يؤمن به كل منهما وانما بات الحكم للظروف القهارة الغلابة . لم يعد الوقوف على الحياد شيئا مستطاعا ، وعليه ان يسهم فى القتال مع الفريق الذى يقف الى جانبه وان يرد على الرصاص بالرصاص .

كان عامل التليفون قد أصيب واستلقى أرضا فتناول يورى حزام طلقاته وغدارته واعتزم أن يكون رحيما بالفتية المهاجمين . فلا تصيبهم طلقاته ما دام يصوبها تجاه الشجرة الميتة متخيرا الوقت الذى الذى لا يكون بجوارها أحد . غير أنه حين أمسك الزناد لم يفكر الا فيما يجب أن يفعله من تعلم اصابة الهدف ، وأطلق ، ويا للأسف بالرغم من أنه كان يعتزم أن يطيش الرصاص فى الهواء الا أنه رأى

بعينيه اثنين منهم جريحين وما لبث أحدهما أن سقط بجانب الشجرة فخيل اليه أنه يعانى سكرات الموت .

وأخيرا تحققت قيادة الجيش الأبيض من فشل الهجوم فأصدرت أوامرها بالانسحاب . وانحنى يورى على عامل التليفون راجيا ان يسعفه . ولكنه وجد القلب قد توقف عن النبض .. وما كاد يكشف ليتحسس موضع الاصابة حتى عثر حول جيد القتيل على تميمة كتبت على قصاصة ممزقة حائلة من الورق ، وملفوفة فى قطعة من النسيج . فقرات من الصلوات السلافية الشعبية ونصها « لتعش فى حراسة الرب الأعلى . لا تخش السهم الذى يمرق فى ضوء النهار».

لقد اعتقد الميت أن هذه الصلوات تقيه الموت . وقصد يورى الشجرة حيث الصبى الذى أصابه ، وراح يتساءل فيما بينه وبين نفسه ـ لماذا قتلته ؟. وانحنى عليه ليجد اسم الفتى وقد طرز على قميصه . لعل أمه طرزته ! ووجد يورى معه كذلك تعويذة أخرى تشبه ما كان يحمله عامل التليفون ، فالغاية منهما واحدة وهى الوقاية من الموت .

فى تلك اللحظة سمع الفتى يرسل أنينا فعاد يورى اليه ووجده لا يزال على قيد الحياة ، لقد حالت التميمة الموضوعة على صدر ذلك التلميذ بين صدره وبين الرصاصة . وكان مغمى عليه . فما عسى يورى أن يفعل ؟

كان زمنا وحشيا لا يعرف الرحمة فلم يكن الاسرى يساقون الى

المعتقل بل تجهز السكاكين على جرحى العدو . وكان الفتى بملابسه تلك يعتبر عدوا !

نزع يورى ملابس عامل التليفون الميت وألبسها للغلام ! وعالجوه وما كاد يشفى حتى اعتزم الفرار لينضم الى فرقته مرة أخرى .

- ٤ -

وكان (ليبريوس) زعيم الفرقة يشرك معه يورى فى خيمته ، ولكنه أمضى الليلتين الماضيتين فى ثرثرة بغيضة حالت بين شريكه وبين النوم ، فضاق يورى ذرعا وصار منهكا راغبا عن الكلام . غير أن قائد الفرقة يستأنف حديثه ويؤنبه على تعاليه على الفلاحين ، ويقرعه على عدم اهتمامه بنصرة الطبقات العاملة . فيرد الطبيب ذاكرا مدى جهل من يتشدقون باعادة تنظيم الحياة ، وعدم توفر الخبرة الكافية بشئونها . فالحياة ليست مادة حتى يمكن اعادة تشكيلها وصياغتها، وقانون الحياة يقتضى التجديد الدائم لنفسها ، فهى دوما فى تطور . وهى بهذا كله تعلو على رأى كل منهما فهى أكبر من أن تخضع لنظرية معينة .

وأخيرا قال له : ان مصدر الداء انك تشعر بوجود عدو لك ، وبدلا من أن تعالج أمره بحكمه تقسو وتعنف .

وأخذ يورى يتامل الرجل الذى اختطفه عنوة واقتدارا وحد من

حريته وضايقه بأحاديثه فوجده سعيدا بذلك كأنه يتشفى فيه ، ثم بعد هذا كله يحدثه عن الحرية فثار غضبه .

فقال ليبريوس : انك غاضب ومعنى ذلك تبعا لما قلته انك على خطأ ما دمت لا تعالج الأمر بحكمة .

فأجابه : لا تستنتج ان من يفعل هذا الأمر لا بد ان يفعل ذاك . لا تذكر أمامى هذه الحكمة السوقية فأنا لا أطمئن اليها . واذا كنت محبا للأمثال فدعنى أخبرك انه فاتك مثل شائع وهو (انك تستطيع أن تقود الحصان الى الماء ولكنك لا تستطيع أن تضطره اضطرارا للشرب منه) ومهما يكن من أمر فقد سمعت ان بعض الغرباء أغاروا على منطقة فاركينو حيث يوجد أهلى وأهلك الذين سلبوا ونهبوا . ويقال أن أفراد أسرتينا استطاعوا الهرب ولكن المنطقة شاع فيها القتل والدمار . فهلا صارحتنى بما عندك من أخبار .

- هراء . كله كذب .

- اذا كنت كريما متسامحا مع من يعملون معك ، وهو ما أوصيت به فى محاضرتك ، عن خلق المحارب فهلا كنت كريما وسمحت لى برؤية أسرتى ؟ فأنا لا أعرف أين تقيم بل لا أعرف ما اذا كان أفرادها ما زالوا على قيد الحياة . فان لم تفعل هذا فهل يمكنك ان تسكت ولا تحدثنى فى أمر آخر فانه لا يهمنى . دعنى أنام . أليس من حقى أن أنام ؟

وراح يورى يدفن رأسه فى وسادته والقائد يمنيه بانتصارهم على العدو بعد وقت قصير . وبذلر تنتهى الحرب وتستقر الأمور .

وقال يورى لنفسه : عليه لعنة الله . يمضغ الكلام ويعيده ! كأنه (اسطوانة الحاكى) ما أشد كرهى له .

(تونيا ! حبة قلبى . وولدى المسكين ! أين أنتما ؟ أعلى ظهر الأرض ! يا الهى ! يوم جئت كانت على وشك أن تضع وليدها فآلام صارت الأمور ؟ أولد هو أم فتاة ؟ تونيا انى ألوم نفسى على الدوام من أجلك . أما أنت .. يا لارا ! كم أخشى أن أنطق باسمك فتزهق روحى . يا الهى ! يا الهى ! ومع ذلك فان ذلك الحيوان المجرد من العاطفة ما زال يتكلم ! آه لو أتيح لى ان انفرد به بعيدا عن هذا المكان لقتلته . نعم سأقتله يوما ما .

أصيب (باليك) ، أحد رجال الفرقة البارزين بهوس وجنون وراحوا مع الطبيب يتحدثون فى الأمراض النفسية وأثر الحرب فيها .

وذات يوم كان يورى يستريح فى جانب من الغابة فسمع همسات متآمرين يدبرون تسليم ليبريوس الى العدو .

سمع ، وارتعد وتجمدت أطرافه فان حركة منه كفيلة بأن تقضى عليه . ولكنه عجب أن من بينهم أقرب الناس الى ليبريوس .

الفصل الثانى عشر

ثمار تحت الجليد

سيق المتآمرون وقد أحاطت بهم فرقة من الجند وأفراد الحرس الخاص بليبريوس ، ثم التفوا حولهم فى شبه دائرة ، وقد شهروا غداراتهم .

وسئلوا واهينوا وحقروا .

صوب الجند بنادقهم . وكان أحدهم صديقا حميما لزعيم المؤامرة وعلى الرغم من أن الجندى كان من أمهر الرماة الا أنه أطلق ثلاث طلقات على الحراس بدلا من تصويبها على المتهمين ، وكان يرتجف وارتجفت يده وهو يصوب . وكذلك كان سائر الحراس .. وأخيرا أصاب أحدا الرجال فى قدمه فصاح ، وقادوه الى حيث يلقى المصير .

وكان جالوزين الولد الصغير ضمن المتآمرين فركع على قدميه مرددا - يا زملائى اغفروا لى . انى آسف . لن أفعل ذلك مرة أخرى. أستحلفكم ألا تقتلونى فأنا لم أحى بعد . أريد أن أعيش فترة قصيرة أخرى وانظر الى أمى مرة واحدة . أطلقوا سراحى . واغفروا لى فأنا لم أسىء اليكم . سأقبل مواطىء أقدامكم . حنانيك يا أماه . حنانيك . دنت النهاية !.

وقال ثان - أيها الزملاء الطيبون الرحماء . كيف يمكن هذا ؟ اشتركنا فى حربين جنبا الى جنب ! حاربنا معا ووقفنا معا نقاتل من

أجل هدف واحد . دعونا . سنجزيكم على حنانكم ورحمتكم مدى الحياة . سنبرهن على هذا بأعمالنا . ماذا ؟ أأنتم صم لا تسمعون ؟ لم لا تجيبون ؟ يا الهى ان قلوبهم لا تعرفك .

وقال آخر - اذا كنا خونة فأنتم خونة كذلك . حلفتم يمين الولاء لنا ونكثتم بالعهد . لا تنسوا ان تقبلوا شيطانكم ليبريوس قبل أن تخونوه ! ستخونوه بلا شك !

وقال آخر وكان أشيب الرأس، مرتفع الهامة - لا تحقروا أنفسكم ولا ترجوا من هؤلاء الجلادين شيئا وسيروى التاريخ الحقيقة. سنموت شهداء فى عصر الحرية .

وانطلقت عشرون طلقة أودت بمعظمهم ، ثم جاء عشرون آخرون من الحراس يعيدون الكرة ... وقاوم الصبى جالوزين طويلا ثم ما لبث أن ارتمى ساكنا .

- ٢ -

كان الموقف سيئا للغاية بالنسبة لفرقة ليبريوس فقد أحاط الجيش المعادى بالمنطقة ، كما حال الشتاء دون تغيير موقعها ، وصار الانتقال مستحيلا . وبدأ اليأس يتطرق الى قلوب الرجال .

لم تكن ملابس الشتاء كافية . فتقرر أن تقتل جميع كلاب المعسكر لتستخدم جلودها فى الملبس وذلك بمعاونة من لهم خبرة فى صناعة الفراء . وعانى المعسكر كذلك من نقص الدقيق والبطاطس .

ولم يسمح ليورى بالانتقال بالعربات لجلب الجرحى لأنها كانت تستخدم فى أعمال أخرى . ولم يكن لديهم من الدواء الا أقله .

- ٣ -

وكان من بين أفراد المعسكر رجل يعيش مع أسرته ، كما كان يفعل الكثيرون من أبناء الريف الذين التحقوا بالفرقة وكانوا يحيون وسط الأهوال والمحن .

والأسرة تتوقع المصائب والبلاء والرجل متشبث بأولاده . وكم كان سعيدا فى بادىء الأمر اذا استطاعت أسرته ان تلحق به . ولكن ها هو شارد اللب كاسف البال حين يتصور الخطر المحدق بهم ويحتضن أولاده مداعبا مبتسما ، وراح يسرى عنهم بصنع دمى خشبية بمنجل الحصاد .

- ٤ -

قبل حلول الشتاء مباشرة كانت الأحوال سيئة للغاية فالجيش الآخر حاصر المكان وضيق عليهم الخناق شيئا فشيئا . فاعترتهم المخاوف وذاع القلق أكثر من قبل وساد الاضطراب وعم الهلع .

كما كان تصرف النسوة المهاجرات اللواتى الحقن بالفرقة باعثا على العجب .

- ٥ -

كان رب الأسرة المهاجرة يعيش مذعورا هلعا وأصابه الجنون أو

ما هو أشبه ، فهو دائب التشبث بأولاده وزوجته خشية أن يهجم العدو فجأة فيفرق بينهم . انه يريد ان يشتركوا فى مصير واحد . يريد أن يتعذبوا معا ويموتوا معا .

وأخذت امرأة تتحدث ببساطة عن العيش الساذج والحياة وصروفها كما تحدثت عن الحب على نحو غير مألوف . وليس هناك ما هو أقرب الى النفوس من الكلمات التى تمس الحب . وكلما ازددنا حبا خيل الينا أن من نحبه انما هو شهيد من الشهداء . وحب الرجل للمرأة يفوق جميع الأوصاف فهو يرفعها فى خياله عن العالم الملموس الى مكانة غريبة كل الغرابة عن الحياة الواقعية .

وتذكر لارا ... لكن لم حملته هذه الفكرة السامية ودفعته دفعا الى التفكير الواقعى ؟ ومرت بذهنه صور غريبة . لارا وقد أولته جانبها الأيسر وكان صدرها عاريا من تحت الثياب . ان ذراعها هو الذى كشف عن جانب الصدر ، كشف عن جراح روحها فتنهدت بما تضمر من أسرار .. وطافت به ذكريات عن مدن غريبة وطرق وحجرات ، ومشاهد ريفية تمر وتمر كشرائط ملفوفة من الصور تظهر لتمضى .

ما أعظم ما يحمله قلبه لها من الحب ، وكم هى قادرة على اثارة الهوى ، تماما كما كان يتصور ويتخيل ويحلم ويتمنى .. ولكن ما الذى سواها فى تلك الصورة المثيرة للهوى على هذا النحو ؟ أهو شىء ما يمكن ان يحدد بعدد من الصفات ؟ لا وألف لا ! فهى بما وهبها الخلاق من مميزات أحاطت بهيكلها احاطة بسيطة سريعة قد

لا تتفق تماما مع مقاييس التناسق ولكنها فاتنة . ما أشبه تلك الخطوط المبدعة التى تحيط بصورتها بمنشفة بيضاء يلتف بها الطفل بعد استحمامه .

ولكن ماذا حدث له وأين هو الآن ؟ هو فى غابة فى أعماق سيبريا مع تلك الفرقة التى يتربص بها الهلاك . وعليه أن يشارك أفرادها مصيرهم .. وانه ليشهد حوله ضبابا يكسو الكائنات ويرى اقتحام المقتحمين ويسمع دويا عاليا . وقد تعلقت فى الهواء ، من أقصى الغابة الى أقصاها ، صورة بالغة الضخامة مذهلة رائعة ، لرأس يتحدى ، وبكى الرأس . وقبله المطر وبلله ! وقال للمرأة التى كانت تتحدث عن الحب والحياة وتشكو له أمر بقرتها التى لا تدر لبنا ـ لقد سحرت بقرتك يا أجاثا .. سحرتها . عليك أن تبتهلى للعذراء .

- ٦ -

وانتظروا الهجوم

وسمعت أصوات قتال غير بعيدة عن الغابة .. طلقات تدوى قريبا منهم وهب القوم مذعورين يلتمسون طريقهم الى خنادقهم أو عرباتهم . ليأتى كل بسلاحه .

وكان هجوما كاذبا !

غير أن حشدا احتشد قريبا من مصدر الطلقات . ووجد القوم رجلا ينزف دما وقد قطعت ساقه اليمنى ويده اليسرى . كان مما لا

يخطر على البال أنه استطاع السير بنفسه الى حيث جاء . وان ذراعه وساقه مربوطتان برباط خلف ظهره الذى علقت عليه لوحة خشبية كتب عليها تهديد فى أسلوب كله سب وقذف ، فالعدو يعلن أن كل من يقع أسيرا فى قبضته سيلقى نفس المصير ، وان على جميع أفراد الفرقة المرابطة فى الغابة أن يستسلموا فى موعد معلوم .

ومع أن الرجل المسكين كان يعانى سكرات الموت الا أنه استطاع أن يخبرهم بصوت مرتجف خافت عن ألوان العذاب التى لقيها .. وكيف عوقب بقطع ساقه وقدمه وسيق الى حيث هو ليلقى على أفراد الفرقة درسا ويثير فيهم الهول والرعب والفزع .

وحملوه الى حدود المعسكر وطلبوا اليه أن يتكلم .

لم يستطع أن يحرك شفتيه الا بشق النفس ، وانحنى جمع الرجال الملتف حوله ليتبينوا كلماته .

وسألوه عن قوة الأعداء ؟.. والاستعدادات الضخمة التى تجرى؟

وقال الرجل ـ ان هناك كمينا ـــدو يريد مفاجئتكم .. لن أستطيع الكلام . انتهيت .

ـ دعوه يسترح قليلا . الكلام ضار به .. أيها الجزارون .

واستأنف الرجل حديثه قائلا ـ قال لى ذلك الملعون « ستغتسل بدمائك مالم تقل لنا من أنت » فكيف أقول له اننى لست منهم لأننى منكم وأريد أن أنضم اليكم .. نعم كنت فى طريقى اليكم .

ـ قل لنا من هم الذين عذبوك ؟

ـ دعنى أتنفس قليلا .. سأقول .. العدو ، لا تعلمون بما يجرى هناك . المدينة كلها تغلى . انهم يضعون الأحياء فى الماء المغلى .. يقطعونهم اربا اربا ، يسوقون الناس الى أقفاص حديدية فى عربات البضائع .. أكثر من أربعين شخصا فى القفص الواحد ويجذبون أول من يصادفهم .. يذبحون الناس كالدجاج . يشنقون البعض وآخرين يضربون بقضبان حديدية . ومنهم من يوجهون اليه أسئلة ويضربون ويمزقون أجسامهم . يضعون الملح على الجراح .. واذا ما تقيأ المرء أو قضى حاجة اضطروه الى ابتلاعها .. والنساء والأطفال .. يا الهى .

نطق الجريح بآخر كلماته ، وصاح ثم قضى . دون أن ينتهى من قصته .. وفطن الجميع الى ما يعنيه ورفعوا قبعاتهم وراحوا يرسمون علامة الصليب .

وفى المساء كانت الأنباء أكثر بشاعة ! سمعوا بحادث بطله رب الأسرة الذى كان سعيدا بوجود أولاده الذين أحبهم كل الحب ، وضمهم الى صدره على الدوام خشية ان يفرق بينهم هجوم الجيش المعادى . وكان قد أرهبه وأزعجه ما سمعه من فم الميت فخاف على أولاده من التعذيب والأقفاص الحديدية . ولكى يجنبهم ذلك المصير المؤلم فانه حمل غدارته وهو شارد اللب مذهولا ، وقضى على أولاده جميعا . وبقى هو .. لم لم يقتل نفسه ؟ سواء أقتلها أم لم يفعل فانه فقد معنى الحياة .

- ٧ -

وكان الشتاء فى سيبريا !

لم تكن الشمس هى الشمس وانما كانت تتخبط لتجد مخرجا .

بدت كرة وردية اللون تمضى فى الغـــابة من أقصاها الى أقصاها ثقيلة بطيئة كما لو كانت حلما أو صورة فى قصة من قصص الجنيات.. أشعة شبه صفراء من الضوء ، كالعسل المسكوب .. تعلق بالأشجار وتتجمد عليها !

والأصدقاء يقفون متقاربين حتى يمكنهم ان يسمعوا . وقد توردت وجوههم كما لو كانوا خارجين من الحمام ، ولهم لحى كالأليـــاف المتجمدة ، وسحب كثيفة تخرج متوانية من أفواههم ، مما لا يتناسب مع الكلمات التافهة المتجمدة التى تتفوه بها تلك الأفواه .

كان يورى يسير فى ممشى فلقى ليبريوس فأوقفه ليسأله عما اذا كان لديه معلومات عن فاركينو وسكانها . فقال ليبريوس ان لديه أخبـار أهم من هذا . فأعاد يورى سؤاله متلهفا على عائلته وطمـأنه القائد قائلا ــ لو ان مكروها أحاق بهم لعرفنا . وما دمنا لم نسمع عنهم فلا بد أن كل شىء على ما يرام .. حقا ان المنطقة حل بها الخـــراب والدمار ولكن الأهل استطاعوا الفرار وطلب اليه ان يأتى الى خندقه ليحدثه حديثا عجبا .

وعلم يورى فى نهاية الأمر ان ذلك الحـديث العجب الذى وعده به يتلخص فى اندحار العدو القريب وأن فرقا أخرى من المقـاتلين فى طريقها اليهم وسوف يلتحقون بها وينضمون اليها ليهاجمـــوا العدو الهجمة البكر ويقضوا عليه .

وخرج من الخندق .. بحجة ان التدخين أشاع فيه جوا مقبضا .

وسار ! وجلس منحيا الجليد من فوق جذع شجرة . وأخذ يفكر ورأسه بين قبضتيه ، وساعداه مسندان الى ركبتيه .

ان مدة الثمانية عشر شهرا التى قضـــاها فى المعسكر تلاشت .. نسيها وتأجج خاطره بذكريات أحبـــائه الأعزاء . وراح يتصـــور مصيرهم دون أن يعرف شيئا عنهم . ولاحت صـورة وراء أخرى . وكل منها تثير الفزع أكثر من سابقتها .

ها هى تونيا تسير فى حقل تجتاحه عاصفة ثلجية وقد حملت ساشا ابنهما فى أحضانها وأخذت تلفه فى لفافته وغاصت قدماها فى الجليد فاستجمعت قواها لتستأنف سيرها فسقطت عاجـــزة عن النهوض ، والريح تصفر وتتجاذبها والثلج ينهال عليها .. ولكنه كاد ينسى . فان لها طفلين لا طفل واحد . واذا فهى تحمل الاثنين ، كل فى يد كأنها المهاجر الشريد الذى دفعه العذاب الى الجنون .

انها تحملهما بيديهـا معا ولا معين لها فقد اختفى والد ســاشا ولا يعرف أحد أين ولى .. انه بعيد .. كما كان بعيدا دائما فقد أمضى حياته كلها بعيدا عنهم ، أى نوع من الآباء هو ؟ أمن الممكن لأب جـدير بهذا الاسم ان يهجر أسرته ؟ وماذا عن والدها السكندر السكندوفتش؟ ونيوشا ؟ والآخرين

ولكن لا خير فى السؤال ، ولا جدوى فى التفكير .

وقام يورى قاصدا الخندق .. وعلى حين غرة اتجه تفكيره اتجاها آخر ، فلم يقصد ليبريوس . كان قد أخفى زحافتين للسير على الجليد، وصندوقا من البسكويت وبعض الحاجيات الأخرى التى قد يحتاجها

اذا ما اعتزم ان يولى الادبار يوما ما . دفن هذه الأشياء فى الجليد خارج المعسكر غير بعيد عنه . ولكى يهتدى الى ما خبأه فانه ميز الشجرة القريبة من مخبآته بعلامة خاصة .

كانت ليلة صافية وكان القمر بدرا كاملا ! وعرف أين كانت مواقع الحراس فتحاشاها فلما وصل الى نهاية المعسكر هرع اليه الحارس متزحلقا فوق الجليد واتجه نحوه مسرعا وقال ـ قف أو أطلق الرصاص! من أنت ؟ ما كلمة السر ؟

ـ ألا تعرفنى أيها الرجل ؟ أنا زيفاجو طبيب المعسكر .

ـ آسف . أيها الرفيق لأنى لم أعرفك . لكنى لن أتركك تبتعد أكثر من ذلك . هذه هى الأوامر .

ـ كما تريد . كلمة السر هى (سيبريا) .

ـ حسنا . اذهب . ولكن ما سبب خروجك الآن ؟

ـ أحس بالعطش ولا أستطيع النوم .. ورأيت شجرة عليها كمثرى متجمدة وأريد أن آخذ بعضها .

ـ هذه حماقات الفارغين .. ثلاث سنوات ونحن نحاول محو هذه الأفكار من رؤوسكم . لكن هذا لا يهم . اذهب واقطف ثمارك أيها الأحمق .

وحمل ما كان قد أخفاه تحت الشجرة التى أخذت تساقط عليه ثليجها وكان يخاطبها دون وعى منه .

ـ سأجدك .. يا حبيبتى ، يا جميلتى ، يا شجرتى يا دمى ولحمى ! وكانت ليلة صافية وكان القمر بدرا كاملا !

الفصل الثالث عشر

يورياتن

يقع بيت التاجر أسفل تل من تلال يورياتن ، وهو بناء عتيق ، تحيط به منازل قديمة فى أسفلها جدران من الأحجار المربعة . وفوق هذه الجدران لصقت لافتات تتضمن تعليمات الحكومة ، وقد التف فريق من الناس حولها يقرأون ما كتب عليها .

كان الشتاء قد ولى ولاح الضوء متثاقلا فى أرجاء المكان . وكان الجيش الأبيض قد أجلى عن المدينة ، فتوقفت أعمال الحرب واراقة الدماء ولكن ذلك أيضا كان يشبه الضوء المتثاقل .

وكان مكتوبا على احدى اللافتات « ان بطاقات العمل صار من الممكن الحصول عليها لمن يستحقها وذلك نظير ٥٠ روبلا تدفع بمكتب التغذية بمدينة يورياتن الشعبية ـ ٥ شارع اكتوبر (شارع الحاكم العام سابقا) حجرة رقم ١٣٧) .

وثمة اعلان آخر يقول ان من لا يحمل بطاقة أو من يدلى بمعلومات غير صحيحة بصدد هذه البطاقات فانه يعاقب بأقصى العقوبات المطبقة فى زمن الحرب . ويمكن الاستعلام عن ذلك من مكتب التغذية .

واعلان ثالث يعلن أن المدينة تتوافر فيها مواد التموين وان هناك شائعات حول نقص هذه المواد ، ومن يعمل على نشر هذه الأخبار الكاذبة فسوف يعدم فى مكان عام .

واعلان رابع يعلن أن جميع العمال يمكن التحاقهم بلجنة المستهلكين وثمة اعلان رابع يوجب تسليم السلاح على من كان يحمله .

ووقف رجل من ذلك الحشد المتزاحم حول اللافتات ، رجل خشن المظهر ملطخ بالأوساخ وعلى كتفه عصا طويلة وقد تدلى كيس من نهايتها وكانت له لحية طويلة حمراء أخذ المشيب ينتشر فيها .

ذلك كان الدكتور يورى زيفاجو

لا بد أن سترته المصنوعة من الفراء قد سلبت منه أو لعله استبدلها بشيء من الطعام . كان الكيس لا يحتوى الا على فضلة خبز مما منحه له محسن من المحسنين فى القرية المجاورة . بلغ مدينة يورياتن منذ ساعة غير أنه استغرق بعض الوقت حتى وصل الى ذلك المكان . كانت الرحلة قد أنهكته . ولكن ذلك لم يحل بينه وبين الانحناء على أديم الأرض فى تلك المدينة التى يئس كل اليأس من رؤيتها مرة أخرى ، وقبل ترابها وهو فى سعادة غامرة بلقائها كأنها صديق قديم .

كان قد سار فى رحلته من سيبريا متتبعا الخطوط الحديدية التى كانت جميعها معطلة مهملة دفنها الجليد .. والقطارات التى هجرها البيض توقفت اما لنفاد الوقود أو بفعل العواصف الثلجية التى انهالت عليها . وان كانت تظهر أعاليها من بين الثلوج المكدسة . وأصبحت بعض العربات تستخدم أوكارا تأوى اليها الجماعات المسلحة من اللصوص والمجرمين والهاربين . وكانت نهاية أمثال هؤلاء هى

الموت بحمى التيفوس التى انتشرت واكتسحت السكان فى تلك المناطق .

هناك تحقق القول الذى يصف « الانسان بأنه ذئب لأخيه الانسان » . فسادت وحشية عنيفة لا تعرف حدا ولا مدى .

والحياة التى مرت ببطلنا فى رحلته تلك ، اكتنفتها أحداث فيها من الغرابة والعجب ما يحمل على الظن بأنها حياة قوم آخرين يسكنون عوالم أخرى غير كوكبنا الأرضى أو قل أن تلك العوالم انتقلت بأعاجيبها الى هذا الكوكب .

وراح صاحبنا يحملق فى نوافذ الطابق الثالث من المبنى المقابل للبيت التجارى . فرأى زجاجها نظيفا .. والجدران مشرقة مصبوغة بطلاء جديد .. فما معنى ذلك ؟ أعاد للبيت سكانه القدامى الذين كانوا قد تركوا أثاثهم ؟ أو ما زالت لارا تقطنه ؟

لم يطق التساؤل والشك فسار ودخل وتسلق سور الدرج الحديدى الذى يعرفه جيدا ونظر فلمح خلال النافذة أن كل شيء باق فى مكانه لم يتغير ، فشعر كأنه يلهج بالثناء على درجات السلم لما فيها من وفاء ومودة .

كان هناك جرس ، ولكنه انتزع .. فأراد أن يطرق الباب ولكنه رأى قفلا خشنا غليظا ، لم يكن له من قبل ، كانت الأقفال من طراز أسهل وأجمل فيما مضى ولكن ولت تلك الأيام .

وأيقن أن لارا وكاتيا ـ اذا كانتا لا تزالان على قيد الحياة ـ فهما

ليستا داخل المسكن فى ذلك الوقت ، ونظر الى الكوة القديمة بين الأحجار . تلك التى رأت فيها كاتيا الفأر الكبير ، وراح يتحسس بيده بين أحجارها ، يا للعجب ؟ هذه رسالة تقول (يا الهى ! أى سعادة ! يقولون انك حى ترزق . وقد رآك أحدهم فى أرباض المدينة وهرع الى يزف البشرى . وقد حسبت انك ستتجه الى فاركينو مباشرة وهأنذا ذاهبة بنفسى الى هناك مع كاتيا . انتظرنى ولا تبرح المكان . ولمجرد الحيطة وضعت المفتاح فى مكانه المعتاد . سترى أننى أستخدم الغرف الأمامية الآن والمسكن خال تقريبا فقد اضطررت لبيع بعض الأثاث . تركت لك شيئا من الطعام معظمه من البطاطس المسلوق . ضع الآنية مكانها . لا تنس اعادة الغطاء عليها خشية الفيران . اننى مجنونة من الفرحة)

قرأ حتى نهاية الصفحة ولم يقرأ ما كتبته على وجهها الآخر . وعض شفتيه ووضع الرسالة والمفتاح فى جيبه . غمرته سعادة لا حد لها . ولكن اذا كانت لارا قد ذهبت الى فاركينو فمعنى ذلك أن أهله ليسوا هناك . فلم لم تذكرهم بكلمة فى رسالتها ؟ كأنهم غير أحياء ؟

كان عليه أن يؤدى بعض الأعمال قبل أن يغشى الظلام . وأهم من هذا كله أن يقرأ الاعلانات الحكومية ليعرف حقائق الأمور . ولم يكن من الضحكات فى شىء أن يقال اذ ذاك ان الجهل بتلك الأمور قد يكلف الانسان حياته .

واذا فهو لم يدخل البيت وانما عاد يطلع على ما جاء فى تلك اللافتات .

- ٣ -

كانت خليطا غريبا متشابها فأخذ يتساءل أين هى تعليمات العهد الجديد وكيف له أن يميزها عن غيرها . ان كل شىء مضطرب مهوش من حوله وراح يفكر فى انه اذا كان قد اندفع وسلك سلوكا طائشا مرة واحدة فى العمر فهل يجب أن يدفع ثمن ذلك من حريته وكرامته مدى الحياة ؟

كانت اللافتات تكذب وجود نقص فى الغذاء وتتحدث عن الخبز والفلاحين والقرى .. وها هو آت من رحلته حيث رأى البلاد ولكنه لم يجد شيئا غير الخراب والدمار والاطلال ، فأين الكلمات من الواقع ؟ وكيف يجوز الحديث عن أشياء لا وجود لها ؟

ودار رأس يورى .. وأغمى عليه وفقد وعيه .. ولما أفاق لم يسمح لأحد أن يصحبه الى حيث يريد .

- ٤ -

وعاد الى بيت لارا مرة أخرى . وشعر كما لو كان المسكن يجيبه .. ورأى أسرابا وأسرابا من الفيران .. وعبر الممر الى الغرفة المطلة على الطريق فبدت قريبة منه بحيث خيل اليه انه لا زال فى الشارع ، وليس هناك الا فارق واحد هو أن الحجرات أقل دفئا من الطريق .

رأى الناس وقد بدوا متشابهين فأحس بحزن يملأ نفسه . واستمر فى ذلك الجو البارد . لم يخطر بباله أن جو الربيع سيكون سببا فى مرضه . بل أحس أن كل شىء سيصير الى ما يحب ، وانه سيحقق

ما تصبو اليه نفسه فى الحيـاة .. وانتظر الأفراح التى ستقبل اليـه بمقدم لارا .

وأراد أن يهذب شعره ولحيته قبل أن يسـود الظلام . ولم يكن لديه موسى أو مقص ، فتذكر أن فى أحد الشوارع المجاورة محـلا للحياكة فرأى أن يقصده ليستعير مقصا .

- ٥ -

لم تخنه الذاكرة . لم يزل محل الحائك هناك، وأمامه نافذة عريضة مغطاة بالزجاج ورأى الحائكات وقد ازداد عددهن . فالكل يريد أن ينتسب الى طبقـة العمال فى ذلك الوقت حتى يمكنه التمتع بالحقوق المنصوص عنها فى الاعلان الملصق على الحائط الرمادى . ورأى من بينهن بعض نساء العائلات وقد احترفن الحياكة .

طرق يورى النـافذة مشيرا بيده انه يريد الدخول فأومأت اليـه النسوة بما يفهم منه أن قضاء المطالب الشخصية ممنوع . وأصر يورى فاشرن اليه مرة أخرى أن يبتعد . ورأى احداهن ، مكفهرة الوجه ترفع كفها الغليظ كأنه الزورق - سائلة فى سخط عما يريد . فأشار بأصبعه اشارة تدل على انه يطلب مقصا فلم تفهم عنه شيئا . وحسبته النسوة يبغى مداعبتهن . فاستدار الى الفنـاء قاصدا الباب الداخلى للحانوت .

- ٦ -

وأخيرا أدركت المرأة التى كانت مكفهرة الوجه ما يبغى بعـد أن

ذكر لها أنه جاء لساعته من رحلة طويلة وانه يود أن يهذب شعره . فأخبرته ان اليوم عطلة للحلاقين ولكنها وافقت على ان تتولى هى ذلك عنه وقالت محذرة - سأفعل ذلك ولكنى أحذرك انك اذا كنت تقصد بهذا اخفاء شخصيتك فاعلم ان ما أفعله انما يكلفنا حياتنا . ولن نجازف بها فى سبيلك .

وقالت المرأة انها مارست جميع الحرف ومنها قص الشعر ، فطلب اليها أن تقصر من شعره ما استطاعت وراحت أثناء عملها تسأله عن رحلته متعجبة كيف استطاع قطع تلك المسافة الخياليـة على قدميه . ونصحته نصيحة خالصـة ألا يعيد على مسامع الآخرين مثل هـذه القصة ، والا جلبت عليه ويلات لا نهاية لها .

وقالت له - انس هذه القصة وتظاهر بأنك مدرس أو طبيب !!

وراح يورى يتذكر هل لقى هذه المرأة فيمن لقى من النـاس فى حياته . أو لم تجمعهما الأقدار من قبل ؟

تساءل عن ذلك بينما ذهبت لتأتى بالماء المغلى .

ثم عادت واستأنفت الحديث عمـا جرى فى أيام الحكومة البيضـاء وما اقترفته من فظائع واتهامات واراقة للدماء . وكيف أنها كادت تقضى على أحد أبناء الشعب لولا مدرسة رقيقة يفيض قلبها بالرحمة وحب أبناء الشعب فطالما قدمت لهم العون وأسدت لهم المعروف .. لا شك انها تتحدث عن لارا . هكذا تبادر الى ذهنه .

واستمرت المرأة فى الحديث - أما الآن فحكومة الشعب تظاهر

الفقراء والعمال .. كنا أربع شقيقات ماتت احدانا .. كان زوجها أحد المتزعمين لحركة العمال ، وما لبث أن نفى بسبب اشتغاله بالسياسة.. وابن أختى هو أحد الزعماء وهو قائد جيش الفلاحين . كان يعيش فى فاركينو !

أهذه خالة ليبريوس ؟!

ليبريوس الذى عذبه وأذاقه كأس الشقاء والمهـــانة والذل حتى الثمالة .

وكانت المرأة قد ذهبت مرة أخـرى لتعيد غلى المـــاء بعد أن بقى نصف لحيته بلا تهذيب .

وعادت لتستأنف عملها فقال ـ فاركينو ؟. تلك القرية التى تبعـد عن هنا بضع أميال . لا بد أن سكانها كانوا بعيدين عما يكدر صـفو الحياة ؟

ـ لا . لم تكن القرية آمنة تماما اذ صارت هدفا لهجمات قوم غرباء

ـ ذكرت أن زوج أختك كان يعيش هناك فما الذى حدث له ؟

ـ حمدا لله فقد غادرها هو وزوجته فى الوقت المناسب .. تلك هى زوجته الثانية . أما أين ذهبا ، فلا أحد يعرف .. وكانت هناك أيضا أسرة أخرى من موسكو .. والرجل الأصغر لتلك الأسرة ، وهو طبيب يعتبر مفقودا ـ وكلمة مفقود هى لمجرد اخفاء الحقيقة عن أهله ـ فمن المحقق أنه مات أو على الأصح قتل . بحثوا عنه واسـتمروا فى بحثهم دون أن يقفوا له على أثر . ثم استدعى الرجل الآخر الذى كان أستاذا فى زراعة الحاصلات .. استدعته الحـكومة الى موسكو .

وأقاموا فى يورياتن فترة قبل سفرهم الى العاصمة . كان ذلك قبـل احتلال البيض للمدينة مباشرة .

ها أنت تهتز مرة أخرى .. احذر أن تنحرف يدى فتقطع حلقك ؟ لا شك أنك تأخذ حقك كاملا من الحلاق بمثل هذه اللحية الفظيعة ...

واذا فهم الآن فى موسكو !

- ٧ -

فى موسكو ! فى موسكو !

هكذا راح يردد الكلمات فى أعماق نفسه ، كلما ارتقى درجة من الدرجات الحديدية . واستقبلته الفيران فى المسكن . ان أول ما يجب أن يفعله هو أن يطمس أفواه جحورها . من حسن الحظ انها ليست كثيرة فى حجرة النوم كما هى فى الأماكن الأخرى . يجب أن يسرع قبل الظلام . حقا يوجد هناك مصباح كما توجد كمية من زيت البرافين ، وصندوق من الثقاب فيه أعواد قليلة . ولكن من الخير أن يقتصد فى استهلاك هذه المواد الثمينة .

وصمم على أن يسلب لارا بعض القطع الخشبية ليوقد الموقـــد .. ولكنه وجد على الأخشاب حرف (ك) وهو رمز لاسم (كروجر) ، الذى كان صاحب مزارع وغابات فاركينو .

ان وجود هذه الأخشاب فى بيت لارا قرينة على أنها على صـلة (بسامدفياتوف) وكيل الأعمال الذى له سيطرة ونفوذ على فاركينو وغيرها والذى طالما منحه وأسرته الهدايا .

وتذكر ما كان عليه الرجل من انحلال خلقى ، كما توهجت فى نفسه صورة أنوثة لارا الحارة المتدفقة .. لا بد اذا أن تكون بينهما علاقة ما .

وتألقت جذوات نقية من النار .. وقادته الفكرة السيئة الى فكرة أسوأ .. ومجرد الاحتمال أصبح حقيقة واقعة تؤكد علاقة لارا بذلك الرجل .

ومرت بباله صور وأفكار عن أسرته (واذا فأنتم فى موسكو أيها الأعزاء . عدتم وحدكم فى الطريق الشاق . لماذا استدعى السكندر؟ كيف وجدتم البيت ؟ ألا ما أغبانى ! وكيف عرفت ان المنزل لا يزال قائما . ما أشقانى ! يا الهى ألا أستطيع أن أكف عن التفكير ؟ انى عاجز عن التفكير المنظم .. ماذا جرى لتونيا العزيزة الغالية ، وساشا ، والسكندر وأنا ؟ لماذا نعيش دائما متباعدين ؟ لماذا تبعدهم الأقدار عنى باستمرار ؟ ولكنا سنلتقى ، ويلتئم شملنا . أليس كذلك أيتها العزيزة ؟ سأجدك ولو استلزم الأمر أن أسير اليك على قدمى . سوف نجتمع . وسنكون على ما يرام . أليس كذلك ؟

(لماذا لا تبتلعنى هذه الأرض ؟ لم أظل هكذا وحشا قاسيا متناسيا على الدوام أن تونيا كانت تنتظر مولودا آخر ؟ لقد توقفوا فى يوريانتن وعاشوا فيها أياما قبل سفرهم الى موسكو . واذا كانت الحائكة قد علمت من أمرهم ما علمت فهل جهلت لارا كل ما يتعلق بأسرتى ؟ من المؤكد انها تعرف كما عرفت تلك المرأة ومع ذلك فهى لم تذكر حرفا ولم تكتب كلمة عن عائلتى فى الرسالة التى تركتها .

وشعر أن المسكن ليس له الرواء والبهاء الذين كانا له منذ قليل . كل شىء تغير !!

فالأثاث تخيله غريبا عن لارا . وصور أصحاب الدار المعلقة فى الحائط تنظر اليه شذرا .

ونبا به المكان وشعر انه لا يرحب به ولا يهش له كما استقبله منذ حين . ما أغباه ! اذ كان يتوق ، خلال تلك الساعات المظلمة ، وتلك الأيام الموحشة التى ألمت به ، الى هذا المنزل ويعتبره كعبة الهوى الممتع المشتهى .. ما أغباه حين قصد تلك الحجرة - لا باعتبارها غرفة من الغرف - بل كعبة غرامه ، ومحرابه المقدس !

أما أمثال سامديفيانوف ، أولئك الذين لهم المهارة فى اصطياد كل شىء ، والذين أوتوا القدرة واللباقة فما أشد اختلافهم عنه . وهل يصدق أن لارا تفضله هو - بضعفه وأسلوبه الغامض المبهم الخيالى - على ذلك الرجل القوى الخلاب ؟ هل هى فى حاجة الى أفكاره ومشاعره المشبوبة العاصفة ؟ أو كانت حقا حفية بأن تتحقق فيها الصورة التى صورها خياله لها ؟

ولكن ما هى تلك الصورة ؟ أوه ! ما أيسر ذلك . هو يعلم هذا تماما .

ذات مساء من أمسيات الربيع .. وفى الهواء سرت أصوات . أصوات أطفال يلعبون فى الطرقات . من أماكن موغلة فى البعد جاءوا كيما يحققوا ان هذا المدى الشاسع البعيد ينبض بالحياة .. ان هذا المدى الشاسع المنطلق هو روسيا . أمه التى لا مثيل لها بين الأمهات ،

شهرتها انها بعيدة مترامية الأطراف ، تحب الاستشهاد والعنـــاد ، والاسراف ، والحماقة والتهور . روسيا المعبودة من بين الأوطان بما لها من طاقات خالدة فى روعتها وخطورتها ومفاجآتها . أوه ! ما كان أجمل ان يبعث الانسان حيا ! ما أطيب ذلك وما أطيب ان يعشق المرء الحياة ! ولشد ما تلهف ليشكر الحياة ، ويثنى على الوجود نفســـه ، مباشرة ، ووجها لوجه ، نعم يشكر الحياة ممثلة فى شخص ما .

هذا هو تماما ما تعنيه لارا بالنسبة اليه . فلم يكن له أن يتصـــل بالحياة مباشرة ، ولكنها هى التى تمثل الحياة ، بتعبيرها وبموهبتها فى الحديث ، وبقدرتها على الاستماع ، تلك الهبة التى تمنح للكائنات البشرية .

ان كل ما اتهمها به فى لحظة اضطراب هو افتراء وألف افتراء . فهى كاملة لا يجوز اتهامها . وفاضت عيناه بدموع الاعجاب والاستغفار . وفتح باب الموقد وحرك جذوات النار بعود من حديد . وترك الموقد مفتوحا وجلس أمام الشعلات الجذلانة اذ تتلاعب بحرارتها وضوئهـا على وجهه ويديه . وأعاده الضياء والدفء الى كامل وعيه . انه لا يحتمل فراق لارا ، وفكر فيما عساه أن يدنيها منه ويذكره بها فى تلك اللحظة بعينها .

وجذب رسالتها فقطن الى أن لها وجها آخر ، (تعلم أن عائلتك رحلت الى موسكو . وضعت تونيا فتاة) وثمة كلمات أخرى قد شطبت ثم (على ان أذهب الى فاركينو وان أحضر الحصان .. والرحلة شاقة وخاصة بالنسبة الى كاتيا) .

وقال يورى : جاءت بالحصان من سامديفافوف .

- ٨ -

وأحس بأعراض التيفوس .
وتراءت له الذكريات المختلطة عن موسكو وعن حياته الماضية .

- ٩ -

ان كائنا آخر فى أعماق نفســـه يبكى ويشكو ويشرق بكلمـات رقيقة فى الظلام . روحه تتألم له وهو أيضا يتألم لنفسه .

وخلال اللحظات التى تفصل بين النوم والهوس والغيبوبة ذكر ـ ـ أنا مريض . لا بد انه تيفوس من نوع غريب لم أقرأ عنه فى الكتب من قبل .

وحينما أراد النهوض عجز وفقد وعيه أو لعله أغفى وراح يسأل نفسه عن مدى هذا المرض ـ عندما ذهبت لاستلقى على الأريكة كان الربيع يبشر بمقدمه ولكن ها هى النوافذ يكسوها الجليد حتى لم يعد ينفذ الى الغرفة شعاع من ضوء .

وأفاق وأيقن لساعته انه لا يحلم ولا يهذى ، ولـكنه واع يقظ . وها هو يستلقى نظيفا على فراش نظيف ، لا على الأريكة ولكن على سرير حديث الصنع وأن تلك التى كانت تشركه فى بكائه ، وتجلس اليه جنبا الى جنب ، منحنية عليه ، وقد اختلط شعرها بشعره وامتزج دمعها بدمعه .. هـــذه هى لارا .. وكانت غيبوبة أخرى لفرحتـــه الدافقة .

- ١٠ -

كان يشكو دائما أن الأقدار تخلت عنه ونبذته ولكنها منحته لارا أخيرا .. واعتزلا الحياة . وعاشا فى النشوة الجارفة . ما أعظم ذلك الحب ! ان أكثر الناس تمر بهم تجربته دون أن يفطنوا الى مدى جلاله وروعته .

كان غراما فريدا بلا نظير . ان الساعات التى تزور فيها النشوة كيانهما الانسانى ، كنسمة هاربة من الزمان ، انما كانت ساعات تأمل ، بل قل ساعات وعى أسمى ، بمعنى الحياة والروح !

- ١١ -

قالت لارا :

ـ لا شك فى أنه يجب أن تعود الى عائلتك . ولكن انظر كيف تغيرت الأمور أثناء مرضك . يجب أن تنتظر قليلا حتى تهدأ الحال وتستقر .. اعمل هنا الآن .. ليس من المستحب بعد أن كان ما كان ان تظهر وتسافر عائدا الى موسكو .

- ١٢ -

ويستوضحها الأمور بشأن ساماديفياتوف فتقول ان علاقتها به طيبة ولكنها لا تتجاوز حدود الصداقة . ولما كانت قد قاست من الحياة وأهوالها فى سن مبكرة فانها تزدرى طلاب المنافع والوصوليين . فكم جنوا عليها . (اطمئن يا صاحبى فلست أنا ممن يعجبون بأمثال هؤلاء الناجحين !)

ـ ولكنى لن أهيم بك حبا اذا لم يكن لديك ما يؤنبك ويعذبك . فأنا لا أحب الناصعين الذين لا توجد فى صفحتهم نقطة واحدة سوداء . فمثل هذه الفضيلة الخالصة لا طعم لها ولا حياة فيها . والحياة لن تكشف لأمثال هؤلاء عن جمالها .

ـ هذا هو الجمال الذى أعنيه . ولكى تلمسه يجب أن يكون لك خيال بكر ، وترى الأشياء بعيون الأطفال . وهذا ما ينقصنى . وكان باستطاعتى أن أرى الدنيا فى صفائها الخالص ذاك لو لم أصادف ذلك الرجل الذى طبع رؤيتى للكون بطابع رخيص تافه . نعم لمست منذ صباى الباكر فساد الخلق والأنانية التافهة ، فلما أتيح لى أن أتزوج اخترت رجلا عظيما نابها يبادلنى الحب وما كان زواجى ليفشل لولا التجارب القاسية التى مرت بنا .

وأشار يورى الى أنه يعرف ذلك الوحش الذى أفسدها وكيف انه رآها فى الحادثتين السابقتين أيام الصبا والشباب . وصارحها بما سمعه ، من ميشاجوردن ، عن حادث انتحار والده الذى كان سببه ذلك الوحش الآدمى (كوماروفسكى) المحامى . وهكذا تحققا أن كلا منهما ضحية من ضحاياه .

وقال يورى : هذا هو الشخص الذى يثير غيرتى حقا .

قالت : وهل يخطر هذا ببال ؟ كيف تقول ذلك ؟

ـ لعل شدة احتقارك له جعلته عميق الغور فى نفسك فارتبطت به فى أعماق النفس أكثر مما ترتبطين بأى شخص آخر فى هذا الوجود .

ـ يا لها من فكرة رهيبة ! انك وضعت المعانى على نحو يصور لى الأمر غاية فى البشاعة والغرابة .. ومن يدرى لعل ما تقوله صحيح . ما أبشع ذلك !

ـ لا تخافى . لا تصغى لما أقول . كل ما أعنيه اننى أغار عليك مما هو مظلم دفين مما يصعب الوصول اليه ، والتحقق من وجوده . بل أشعر بالغيرة ، من فرجون شعرك وقطرات العرق التى تلامس بدنك ، بل من نسمات الهواء ، الذى تنشقين وقد تسمم دمك . وكما تشعرين نحو كوماروفسكى الذى هو وباء آدمى ، كذلك أنا أغار عليك من هذا الرجل الذى سيأخذك بعيدا عنى ذات يوم ، انى على يقين من ذلك يقينى بالموت الذى سوف يفرقنا . أعلم ان هذا يبدو غامضا مهوشا ، ولكنى لا أستطيع أن أهتدى الى ألفاظ أكثر تحديدا له .. ان حبى لك لا يعترف بالعقل وهو فوق طاقة الذاكرة ويتحدى جميع الحدود .

- ١٣ -

وسألها عن زوجها مرة أخرى فقالت :

ـ ذكرت لك طرفا من قصته حينما كنت أبحث عنه فى جبهة القتال . وحاولت ان أقابله لما عرفت كيف أن جنوده قد اعتقلوك . وما كنت أستطيع رؤيته الا عن بعد .. هو .. هو بسماته اللماحة وقسماته التى هى آية الأمانة والعزم . فلم أر بدا وجها أصدق تعبيرا عن الوفاء والاستقامة من ذلك الوجه .. غير أن تعبيراته باتت بلا لون . كما لو كانت المبادىء التى يؤمن بها قد تجسدت فكرتها فى ذلك

الوجه . وأرى أن هذا التغير قد اعتراه لأنه استسلم لغاية تافهة ، ولكنها قاسية قاتلة سيكون فيها هلاكه .

ـ وماذا عن حياتكما معا قبل الثورة ؟

ـ كنت صبية شغوفا بالطهارة النقية الخالصة . وكان كل ما هو نقى صاف يجتذبنى اجتذابا لا أستطيع الفكاك منه . وفى باشا تجسم ذلك النقاء الذى تهفو له نفسى . كان فى صباه اليافع بالغ الحياء، يحمر وجهه أو يشحب حين يرانى . واخترته لقلبى وصممت على أن أتزوجه اذا ما صرنا فى سن الزواج . تعلم كم هو ذكى وكيف أنه درس الآداب القديمة والرياضيات . لم يكن طالبا عاديا مطلقا بل كان فى القمة .

ـ فلم فشل الزواج ؟

ـ لا أدرى كيف أقول . ولكنها هذه الأمور التى اعترت البلاد واضطربت لها الحال . فهى ليست مشكلة فردية . فكل ما هو ثابت مستقر ، وكل ما يتعلق بالبيت والوطن قد تغير . وتحطم ما ألفه الناس . وكل ما بقى هو الروح الانسانية المرتجفة العارية التى راحت خلال هذا البؤس والدمار تلتمس الرفيق . فنحن ، أنا وأنت ، مثلنا الآن فى هذه الظروف ، كأول رجل وامرأة عاشا على ظهر الأرض وليس لديهما ما يسترهما فكلانا وحيد بلا مأوى . وأنا وأنت هما الذكرى الباقية من العظمة التى لا حد لها والتى عاشت على هذه الأرض منذ آلاف السنين . وعلى ذكرى هذه العظمة المندثرة نعيش ونحب ونبكى معا لنبقى معا .

- ١٤ -

وسكتت لحظة ثم استأنفت حديثها فى لهجة أكثر هدوءا :

ـ الحق أقول لك . لو كان يمكن أن يرتد سترلنكوف الى صباه مرة أخرى ليعود باشا أنتيبوف ، مرة أخرى صافيا من الغضب بريئا من القسوة . آه لو كان للزمن ان يعيد دورته بمعجزة ما .. لو أستطيع أن ألمس مرة أخرى نافذة بيتنا المضاءة بمصباح الزيت ، وكتب باشا على المنضدة ، لو تحقق هذا ، ولو فى أقاصى الدنيا ، لركعت له على قدمى . ولارتجف كيانى كله لما أرى . أنا لا أستطيع أن أنسى نداء الماضى ، نداء الوفاء . انى على استعداد لأن أضحى فى سبيل ذلك بكل عزيز حتى أنت ! حتى حبنا الذى هو سعادتى وحريتى ، والذى هو بعض وجودى . أوه ! معذرة لا أعنى ما أقول . ليس هذا صحيحا .

وألقت بنفسها بين ذراعيه تبكى وقالت بعد لحظة من زمن :

ـ ألا يدعوك الواجب الى العودة الى زوجتك تونيا . يا الهى ما أشقانا ! ما الذى سيحل بنا ؟ وماذا نفعل ؟

ـ لكنك لم تجيبى عن سؤالى .. ما هو سبب الشقاء الذى حل بنا ؟ هذى ليست مشكلتنا وحدنا . لقد عرفت ووقفت على الجواب .

ـ اذن فقل لى أيها الحبيب الذى أوتى الحكمة .

ـ تزوجت وصرت رب عائلة قبل الحرب بعامين وما كدنا نستقر حتى اندلعت النار . وأرى أن الحرب أساس ما أصابنا من بلاء بعد

ذلك . لا زلت أذكر اننا كنا نرى الحياة ملؤها الطمأنينة والسلام - مثلنا فى ذلك مثل أبناء القرن التاسع عشر حين كان من المفروض ان يحكم المرء عقله . وكان من الطبيعى أن يفعل ما يمليه عليه الضمير . كنا نجد فى قتل الانسان لأخيه الانسان أمرا نادرا شاذا خارجا عن القواعد المألوفة كما هو الحال فى الروايات البوليسية وفى المسرحيات والصحف . لم يكن ذلك عملا سويا عاديا . ثم اعترانا تغير مفاجىء مخالف لذلك النمط الهادىء البرىء المتزن من الحياة . وبلينا بالهوس الذى عم والاسلوب الوحشى للقتل الدائب كل يوم وكل ساعة .. فصبغ حياتنا الزيف . وبيت الداء ومصدر هذه الشرور جميعا يرجع الى فقدان الثقة فى قيمة التفكير الفردى ، وتخيل الناس أنهم اذا عملوا بوحى من ضمائرهم ، فهم انما يتبعون تقاليد بالية - بل يجب ـ فى نظرهم ـ أن يتغنوا بنغمة واحدة فى مجموعة (كورس) ، وأن يعيشوا مستعيرين أفكار الآخرين ، تلك الأفكار التى جأرت بها جميع الحناجر . وخدع باشا فيمن خدع فآمن بها - وصارت فلسفة معنية هى المسيطرة . ولا بأس فى قليل من الفلسفة فهى كالتوابل للطعام . أما أن نؤمن ونعيش من أجل مذهب معين منها فذلك ما يجعل الحياة آلية فارغة .

- ١٤ -

التحق يورى بعمل ليجد لارا ، عندما يعود ، مؤدية واجبها فى المنزل ، تكنس وتغسل وترتق وتحيك ، أو هى تدرس لكاتيا ، أو منكبة على المراجع تلتمس منها الماما بالسياسة حتى يمكنها أن تلتحق بعمل فى التدريس جديد .

وكلما كان أقرب الى لارا وكاتيا شعر بقوة الواجب الذى يناد به نحو أسرته . ولم يكن ذلك كرها لهما بل على العكس من ذلك لعل الحب وقوته جعلت الواجب يغضب وينادى .

- ١٥ -

والتحق بعدة أعمال . وكان الرؤساء يرحبون به فى أول الأمر ثم تتكشف النهاية عن انكار للفرد وقيمته . فأدركه الوهن واليأس .

وأحست لارا باحساسه مشاركة اياه فى محنته . والتصقا معا أمام الكارثة . نعم انهما ليسا من هذه الجماعة التى تنكرهما وتعلم أنهما غير راضيين عنها .

وذات مرة ألقى يورى محاضرة علمية عن تلون الكائنات الحية بلون البيئة فما كاد ينتهى حتى صاح به بعض السامعين (هذه مثالية .. نزعة تصوف .. فلسفة جوته الطبيعية) نعم كانوا يضيقون بكل هذه الفلسفات .

صارحته لارا بأن الجو من حولهما يتلبد بالغيوم ، فقد انتهى عصر الأمن والطمأنينة بالنسبة لهما ، (ولسوف يقبض علينا بلا شك .. ان أنتبوف والد ياشا لا يميل الى ويعتبرنى عنصرا معاديا)

وفكر هو فى أن يصحبها الى موسكو فقالت :

– الى موسكو ؟ أمجنون أنت ؟ ما عساى أصنع فى موسكو ؟ لا . يجب أن أبقى فى هذه المنطقة ! هنا يتقرر مصير باشا . سأبقى

لأنتظره ، سأبقى قريبة منه حتى يجدنى عندما يحتاج الى . وفكرا فى الذهاب الى فاركينو بالرغم من الشتاء والوحشة القاتلة .

- ١٦ -

وذات يوم وصلته رسالة على عنوان لارا .

وكانت من زوجته تونيا .

(يورا

أتعلم أننا رزقنا ببنت أسميناها (ماشا) تخليدا لذكرى والدتك .

مسألة أخرى . ان كثيرا من الأساتذة من بينهم والدى وعمى ، وكذلك بعض اليمينيين ، ومنهم خالك كوليا . وأفراد الأسرة جميعا قد تقرر نفيهم خارج روسيا .

وهذا من سوء الحظ وخاصة فى غيبتك ، ولكننا نقبل هذا الحكم راضين ونحمد الرب لأن النفى أهون بكثير من الأحكام الأخرى. ولكن أين أنت ؟ أرسلت هذه الرسالة على عنوان أتيبوفا (لارا) وسوف تعطيك اياها اذا وجدتك . وانه لمما يعذب نفسى أننى لا أعرف هل التصريح بالخروج الذى حصلنا عليه يمكن أن يسرى عليك عندما يأذن الله بظهورك . ان قلبى يحدثنى بذلك وانى أثق بحديثه . ربما عندما يأتى ذلك الوقت تكون الظروف قد صارت خيرا مما هى الآن فتستطيع الحصول على تأشيرة خروج لنفسك ويلتئم شملنا فى مكان واحد . غير انى حين أكتب هذه الرسالة لا أظن أن مثل هذه السعادة سوف تتحقق .

وأصل البلاء هو أننى أحبك وأنك لا تبادلنى هذا الحب . وقد حاولت أن أكشف عن معنى هذا ودلالته . فرحت أتأمل نفسى وأتذكر ما كان من أمر حياتنا معا وما فعلته ، فلم أستطع أن أهتدى الى ذنب جنيته يمكن أن يؤدى الى هذه التعاسة . يبدو أنك تتصورنى فى صورة زائفة خلال مرآة تشوه المرئيات . أما من جانبى فاننى أحبك ، وأحب فيك كل ما هو غير مألوف سواء منه ما يرضى وما يغضب . فكل هذا الخليط الغريب هو عزيز على . وجهك الذى هو فاتن التعبير ، والذى كان يمكن أن يكون عاديا لو لم يكن لك أنت . كما أحب فيك الذكاء والموهبة التى تعوض ما فقدته من ارادة . كل هذا أثير الى نفسى ولا أعرف شخصا أفضل منك فى هذا الوجود .

ولكن أستمع الى . هذا ما أريد أن أقول : حتى لو كنت لا أحبك ، ولو كان اعجابى بك أقل مما هو ، لبقيت أحبك ، وهذه هى الحقيقة المؤلمة التى لم أفطن اليها من قبل . ولولا ظروف الحرمان ، والتأنيب التى مرت بى لم أكن لأهتدى لهذه الحقيقة الغامضة فى أعماق الضمير . نعم لولا هذا لما كان لى ولا لك ان نعرف ذلك الذى تضمره النفس . اننى أوقن اننى أحبك وهذا يسعدنى لأن انعدام الحب ، هو شبيه بالقتل وليس لى من القوة ما يمكننى من أن أجرح مخلوقا من المخلوقات .

لم يستقر الرأى بعد على المكان الذى نذهب اليه ، وان كان من المرجح أن نقيم فى باريس . سأكون فى تلك الديار البعيدة التى صحبوك اليها ولم تزل طفلا . وحيث نشأ أبى وعمى . أبى يهديك

تحياته . وولدنا ساشا كبر كثيرا ، وهو يبدى قلقه كلما سمعنا تتحدث عنك . لا أستطيع الاستمرار ولا أستطيع التوقف . حسنا . الوادع . دعنى أصلى من أجلك وأبارك حياتك المقبلة ، فى رحيلك الدائب ، وفى شكوكك ، أبارك طريقك الطويل الذى يكتنفه الظلام .

(قبل أن نغادر منطقة الأورال التى أثارت فينا الرعب بعد أن انقلبت أيتها ـ عرفت لاريسا فيودورفا (تعنى لارا) معرفة وثيقة . وانى شاكرة لها اذ كانت دائما الى جوارى حين ألمت بنا أوقات عصيبة تحتاج الى مساعدة ، وانى لشاكرة لها كذلك على ما أسدت الى من صنيع أثناء وضعى .

(ويجب أن أقر لوجه الحق بأنها شخصية طيبة القلب ـ غير أنى أقول بلا مواربة أنها على العكس منى تماما . فقد نشأت أنا لأرى الحياة فى صورتها الساذجة البسيطة وأحاول ان أحل مشاكلها حلولا معقولة بينما هى تجعل السبل معقدة مضطربة .

(ليحفظك الرب . يجب أن أكف عن الكتابة فقد جاءوا لأخذ الرسالة وآن وقت حزم المتاع . أى يورا ! يورا يا عزيزى وحشاشة قلبى . يا روحى . يا والد أبنائى ماذا حل بنا ؟ ألا يدور بخلدك أننا قد لا يرى أحدنا الآخر مرة أخرى ؟ والآن وقد صرحت بذلك فهل أدركت ما الذى يعنيه قولى ؟ أتدرك هذا ؟ أتدركه ؟

انهم يتعجلوننى ، ويخيل الى أنهم يتعجلوننى الى قبرى . يورا ! يورا !

الفصل الرابع عشر

فاركينو من جديد

ـ كوماروفسكى بالدار

كوماروفسكى الذئب ، الوباء البشرى ، الذى شعر يورى ، على نحو غامض مجهول انه سوف يسترد لارا ذات يوم .

ضاق به وما كان ليلقاه لولا الحاح لارا .

وذكر كوماروفسكى انهما فى خطر وانه لن ينقضى وقت طويل حتى يساقا الى السجن أو الى ما هو أكثر . نعم هما من أعداء الحكم السائد . وأخبارهما لا تخفى على أحد .

اذا سيخدعهما كوماروفسكى مرة أخرى .. هذا ما فكر فيه يورى الذى راح يستنكر ويأنف من كل ما ذكره المحامى الذى راح يقول : ان الأمر لا يتعلق بك فحسب ، فقد تكون حرا فيما تتخذ من قرار . أما لارا فهى سيدة ، وهى أم ، ويجب أن تحافظ على حياتها من أجل ابنتها .

وعرض عليهما فكرة الهرب ، فلم يوافقا ، رغم الوحدة والخطر والغد الذى لا يبشر الا باليأس ، والفجيعة التى تدهمهما . ورغم ان الهرب هو الحلم السحرى والنافذة الوحيدة التى ينطلقان منها الى سبل الحياة .

يجب أن يختفيا فى حذر وهدوء دون اثارة انتباه الناس ، ولكن

الى أين ، الى موسكو ! ولكنا ـ سنلفت الأنظار الينا باستعدادنا للرحلة. لم لا نذهب يا عزيزتى الى فاركينو كما اقترحت ؟

ـ شكرا لك يا حبيبى . قد يكون من الجنون أن نذهب الى ذلك المنفى وخاصة فى الشتاء ، فلنكن مجنونين ما دام ذلك هو السبيل الوحيد .. سنأخذ من سامديفياتوف ما يلزمنا .

ـ ليس أمامنا الا أن نذهب الى هناك .. لا حيلة لنا ، ان أيامنا معدودة ، والموت يطرق بابنا ، فلنحيا أيامنا الباقية كما نشتهى . وليتسع لنا الوقت ليودع أحدنا الآخر ، وليهمس كل منا فى أذن حبيبه بتلك الهمسات الغامضة التى نتناجى بها فى ظلام الليل . همسات رائعة مديدة آمنة كنداء المحيط الشرقى . ليس من العبث فى شىء يا سر حياتى ، وملاكى ، ان تصحبينى فى الأيام الأخيرة من عمرى تحت سماء تطل على الحرب وعلى دوامات تعصف بالحياة . ولقد شهدت بواكير الحرب تحت سماء الطفولة الناعمة .

« فى تلك الليلة كنت ترتدين زى المدرسة داكنا فى لون القهوة ، وظلك يلوح من غرفة الفندق ، كنت كما أنت اليوم تتفجرين بالمحبة التى لا تقهر .

« وداومت البحث فيما بعد عن سر تلك الجاذبية التى سرت فى كيانى منك أنت ـ ذلك الضوء الذى يتلاشى رويدا رويدا ، وذلك الصوت الهامس الذى يموت رويدا رويدا ساريا فى أعماق كيانى والذى صار بالنسبة الى وسيلة لادراك كل شىء آخر فى هذا الوجود . عندما لاح شخصك من بين الظلال فى تلك الغرفة ، كنت صبية فى

ذى المدرســـــة فأدركت اذ ذاك - وأنا الولد الذى لم يخـــبر الحياة - ان تلك الفتاة الصغيرة مذودة بموجات كهرباء تجمـــع فى سريانها كل ما فى الكون من أنوثة . نعم أدركت ذلك . ولو لمستك يوم ذاك بطرف اصبعى ، لانطلقت منه شرارة تضىء الغرفة . وكانت اما تقتلنى من فورى أو تبعث فى حيـــا دائما وأسى ، نعم كل ذلك بلمسة سحرية باهرة . وغرقت فى بحر من دموع . كانت نفسى تبكى فى أعماقها ، وراح شخصى المأخوذ يسألنى ، اذا كان هـــذا الهوى والضنى هما نتيجة شحنة من تلك الطاقة فماذا يمكن أن تكون عليه المرأة نفسها ، التى هى مصدر تلك الطاقة ومنبعها ؟

وهأنا .. أخيرا أحببتك . وهذا فيه من تلك الطاقة ما هو جدير ان يصير المرء مجنونا . ان كيانى كله رهين بها غارق فيها .

- ٢ -

ذهب ثلاثتهم الى يورياتن . ودخلوا بيت ميكولتسن وراحوا يعدون ويهيئون .

ومذ ذهبوا راحت يد يورى تبحث عن القلم والورق ليدون تلك الرؤى الغامضة ويسجل تلك الأشعار العذبة الشائقة ، الهامسة بعوالم غامضة تستحم فى ضباب المجهول .

وكانت حياة موحشة قاسية كابية كلها عمل وقلق وصقيع وذئاب تعوى فى الليالى .

وبدأت لارا تضيق بتلك الحياة الصامتة التى ينطلق من صمتها نواح الموت .

كان يقضى الليالى الطويلة النائية فى أوهامه الحالمة وصوره الشعرية .. صور من الماضى ، من الموت الذى رآه صبيا فى جناز أمه .

وقالت لارا - مهما تكن هبة الحب عظيمة فهى كغيرها من الهبات . تريد أن تعبر عن نفسها ، ويبدو أننا تعلمنا الحب فى السماء وسنعود اليها لنقص ما تعلمناه على سطح الأرض .. ان ما يربطنـــا معا هو انسجام اسمى لا حد له ، تتساوى أمامه جميع الأشياء ، وتنتشى به كل الموجودات اذ يبعث فيها روحا وحيـــاة . ولكن هـــذا الصمت الموحش ، هذا الصمت المجنون الذى ينتظرنا فى كل لحظة هو شىء بدائى وحشى ، لا يحتمل . فلا عجب أننى أخشـــاه .. أننى أخاف وأرتعد . هب أن شخصا دخل وقطع رقابنـــا فهل لديك غـــدارة على الأقل ؟

وألقت بذراعيها اليه قائلة :

- ألا تعلم أننا غير متساويين ؟ ان لك أجنحة تسبح معهـــا فى السحب ، ولكنى امرأة لا تمكننى أجنحتى من الصعود فوق الارض ، وعلى أن أبقى عليها لأحمى صغيرتى

- قد نستطيع أن نتفق مع سامديفياتوف على ان يقرضنا مالا لمدة ستة أشهر أؤلف فيها كتابا فى الطب أو أكتب مجموعة من الأشعار يمكننا أن ننشرها ونعيش بثمنها .

- انى سعيدة بما تقول . كانت لدى فكرة أخرى .. لكنى لا آمن للغد .

- ٣ -

وانطلق يكتب على ضوء المدفأة المرتعشة أحلامه . وفى الخارج القمر والثلوج .. والذئاب تقف صفا ، غير بعيد عنه .

وقام بحذر ليغلق الأبواب وعاد الى مكتبه وأمامه المصباح على منضدة ولكنه لم يعد قادرا على الكتابة . وتيقظت لارا قائلة ـ ألا زلت تكتب ؟ انك تشتعل لتضىء كالشموع فى الليل . تعال واجلس لحظة بجانبى . سأخبرك بحلم رأيته .

وأطفأت المصباح .

- ٤ -

يوم آخر من الأيام المجنونة

لم ينم يورى ، وأحس فى رأسه بطنين فخيل اليه كأن حياته الضعيفة الوديعة تتمزق .

وتأكد أن حلم الاقامة فى فاركينو الى الأبد لن يتحقق وان ساعات فراقه للارا تدنو رويدا رويدا ، سوف يفقدها ويفقد الحياة نفسها . كان مريضا بالقلب ولكنه يهفو الى الليل ويتحرق شوقا الى لقائه ، نعم انه ينشد الليالى ليتاح له التعبير عن آلامه الجريحة ،ليحمل الآخرين ، أعنى أولئك الذين يتاح لهم أن يقرءوها ، على أن يرسلوا الدمع السخين .

وسمع حفيف أقدام على قصيدة من أشعاره ، كما يسمع مثل هذا

الصوت فى بعض مقطوعات الموسيقار شوبان مصورا القديس جورج صاعدا على صهوة جواد الى أعالى اقليم الاستبس . ولمحه يتوارى رويدا رويدا . وكتب فى سرعة محمومة ، ولم يكن يستطيع متابعة الكلمات وهى تنبثق انبثاقا .

ولم يحس بأن لارا قد استيقظت وجاءت الى المنضدة حيث يكتب .

وقالت : أتسمع ؟! ان كلبا ينبح ولعلهما كلبان . سوف أحتمل الليلة كيفما اتفق على أن نرحل فى الصباح .

وهدأت وتطامنت بعد ساعة فنامت وخرج يورى . ورأى الذئاب وقد اقتربت من المسكن أكثر مما فعلت فى الليلة الماضية ، وتكاثر عددها .

- ٥ -

ثلاثون يوما مضت منذ قدومهم الى فاركينو ، لم يجد جديد ولم يتغير شىء . وعوت الذئاب وتجمعت . وان كانت قد اختفت فترة خلال أيام الاسبوع الماضى . وكان يورى خلال تلك المدة قد وافق على الرحيل . وكان مرهقا من الأرق ومن الأهوال والرؤى التى تعذب البدن .

ومع أنه رأى أن من الحماقة المطلقة أن يعودوا الى المدينة فى ذلك الوقت الذى انتشر فيه التنكيل والتعذيب ، الا أنه ذهب ليسرج الجواد كما علمه سامديفياتوف .

ولما هما بالرحيل رأيا أن الوقت قد تأخر وان الليل لا يلبث أن يسدل سدوله حينما يصلوا الى الغابة حيث الهلاك المحقق .

- ٦ -

وحينما أزمعوا الرحيل مرة أخرى جاء كوماروفسكى واستأنى يورى وتمهل وبقى المحامى فى انتظاره .

وأخيرا دخل حيث كان المحامى ولارا واقفين وقال الرجل ـ جئت أعرض ما سبق أن عرضته .. سأتولى أمركما حتى تخرجا من البلاد .. هأنا أتيح للارا فرصة أخرى للتفكير . على أن أرحل سريعا وسيكون سفرنا فى عربات النوم الفاخرة .. ولكنها تقول انها لن ترحل بدونك .

- ٧ -

لما اختلى يورى بالمحامى قال له : ان سترلنكوف (يعنى باشا زوج لارا) قد أسر وحكم باعدامه .

ـ يا للأسف .

ـ أخبار مؤكدة .. ولكنك تعلم ان لارا لن ترحل بدونك ، فاذا لم تكن تعتزم صحبتنا فتظاهر بذلك على الأقل . لقد دبرت أمر رحلتك الى موسكو أنت الآخر . كل شىء معد . ان لارا وكاتيا فى خطر محذق نظرا لصلتهما بسترلنكوف الذى صار عدوا للحكم الحاضر . يجب أن يرحلا فتظاهر بأنك ستعد جوادك لتلحق بنا .

(ماذا جنيت ؟ انى تركتها . هجرتها . يجب أن أسرع اليها . الى لارا !

(هم لا يسمعون صوتى فالريح متجهة صوبى مبتلعة كلماتى . لعلهم يتحدثون . فقد توفرت لها أسباب سعادتها الآن وانتشت بالأمل . هى لا تعلم سر الخدعة التى دبرتها فى تخلفى عن ركبهم بحجة اعداد حصانى ، على أن ألحق بهم بعد ذلك .

(انها تفكر كيف انتهت الأمور الى الغاية المرجوة . فقد استسلم يورى حبيبها العنيد للرأى السديد . وربما قالت هبه لم يأت فى قطار الغد ، فان كوماروفسكى سيهىء له أسباب الرحيل ويبعث اليه بمن يصحبه . هذا ما تعتقده . ولهذا لم يودع أحدنا الآخر ، كل ما هناك اننى لوحت بيدى وقفلت راجعا لأبتلع أحزانى) .

وركز كل اهتمامه فى نقطة بعيدة متوارية فى أعماق الأفق . شريط دقيق يتصاعد الى التل .

وراح يورى يقول ويكرر مرات ومرات : (وداعا . وداعا .. وداعا يا حبى الوحيد . يا حبى الذى فقدته الى الابد)

ولكن العربة الجليدية تبدو فى الافق ، وتظهر لتختفى فخيل اليه أنها تقف ـ هل تعود ؟ يا الهى هل تعود ؟ لا . لن تعود . فقد تحركت العربة وانتهى كل شىء . مضوا . لعلها وقفت لتلقى على الدار نظرة أخيرة) .

وأرهف الحزن مشاعره . وتنفس الهواء الذى يشهد المأساة ، حزينا بما شهد . وكان الغروب ، غروبا فريدا ، كأنه ظاهرة فذة لم تحدث من قبل . والأشجار ليست الأشجار فهى تنهض من الأرض مقدمة عزاءها !

ولوح لهذه الكائنات الصديقة الحانية قائلا : شكرا . شكرا . سأكون بخير .

ورجع بعد وقوفه فى الشرفة ودار على عقبيه متجها الى الباب المغلق وموليا ظهره للحياة ! كان منهكا خائرا غير أن قوة خارقة دفعته لأن يردد جملة بعينها فراح يقول « غابت شمسي المشرقة . غابت شمسى المشرقة » .

وحدثه شخص من أعماق نفسه ـ يجب أن أعود الى موسكو . يجب أن أعيش وأتخلص من الأرق .

غير أن صوتا آخر موحشا راح يردد فى أرجاء نفسه : سأبقى معك قليلا ، يا جنتى التى لن أنساها ، ما بقى ساعداى ويداى وشفتاى . سوف أظل وفيا لذكراك ، سأبكيك حتى يضحى بكائى خالدا جديرا بك . سأكتب ذكراك فى صورة لا نهاية لما تبثه من الحزن والأسى. سأبقى لأفعل ذلك ثم أرحل أنا الآخر . هكذا أقتفى أثرك على الدوام، كالبحر الذى تجتاحه العواصف الهوجاء فتتقلب أعماقه رأسا على عقب وتترك أعنف موجاته على الشاطئين آثارها . أما القواقع وما شابهها فتخرج من قلب البحر لتتحطم على الشاطىء . ان ذلك الشريط الدقيق الذى يبدو بعيدا فى أعماق الأفق هو آثار أعنف موجات البحر !

ودخل الغرفة .. وألقى نظرة على الفراش والأثاث الذى كانت لارا تعده فى ذلك الصباح بيديها ثم صار مضطربا مبعثرا وراح يتأمله .. ثم تناول نصف زجاجة من الفودكا كان كوماروفسكى قد تركها وأفرغها فى جوفه .

- ٨ -

تطورت أحوال يورى . واعتراه ذهول لم يصادفه من قبل .

وراح يشرب الفودكا ويكتب عن لارا فاذا انهمك فى الكتابة عنها ابتعدت صورتها التى ألفها ولمسها فى الحياة ولم تعد تلك السيدة التى خلقت من دم ولحم والتى هى أم الكاتيا ..

وأخذ يعيد ما كتب ويصحح ما انشأ ليوفق الى التعبير الذى ينطبق على الصورة تمام الانطباق . فلما أوغلت الصورة فى البعد عنه ، تبخرت منها تماما حرارة الحياة واذ ذاك سرى الى نفسه العزاء واطمأنت فى رحابه ، فارتفعت الصورة الفردية الى مستوى شامل ينطبق على جميع الأفراد . لم يكن ينشد السلوى ، ولكنه وجدها كأنها رسالة من لارا أرسلتها اليه أثناء رحلتها ، ولعلها تحية منها على البعد ، أو كأنها صورة لها تراءت له فى حلم أو لمسة من يدها على جبينه .

وأضاف الى كتابته عن لارا أفكارا مختلفة عن الطبيعة والحياة ومسائل عديدة أخرى .

وكان بعد أن يغيب عن الوجود مستغرقا فى كتابته لا يلبث أن يتيقظ فجأة ليلمح صورتها حية ماثلة كما لو كانت تخطر أمامه ، متهادية بين نيران الأسى الذى أضرمه فقدانها .

لقد كان يخيل اليه حين ماتت أمه فى طفولته أنه يسمع نداءها من بين أصوات الطيور التى كانت تغرد محيية جمال الصيف فى حدائق كوجريفت ، وهذا شأنه اليوم مع لارا التى اعتاد سماع صوتها فتلهف

عليه باعتباره جزءا مكملا لحياته وكان يخيل اليه انه يسمع ذلك الصوت يدعوه باسمه وكأن النداء صادر من الغرفة المجاورة ، وكأن بعدها عنه لون من الدعابة والمزاح .

وعاد سديفياتوف ومعه الفودكا وطفق يصف له كيف رحلت لارا وكاتيا .. واتفق معه على أن يعود بعد أسبوع ليصحبه بعيدا عن فاركينو .

- ٩ -

كان سامديفياتوف قد ترك حصانه لدى يورى . فكيف استطاع ان يعود سيرا على قدميه قبيل الغروب ؟ لعل القادم جندى جاء ليقبض عليه . بل هما جنديان . ولعله هو ميكولتسن الذى كان يقطن هذه الدار .

وألفى الغريب يفتح الباب ويدخل . هو اذا خبير بالمكان . ورآه وجها لوجه .

فمن يكون ؟

- ١٠ -

رآه من قبل .. آه . فى صباح يوم حار من شهر مايو . الله وحده يعرف فى أى عام كان ذلك . كان هناك حراس . وكانت هناك محطة . هذا سترلنكوف !

وانطلق الرجل يتحدث ويتحدث كأنما هو يخشى أن يبقى وحيدا مع نفسه أو يخشى ضميره .

خرج من الخدمة وهو اليوم مطارد يبحث عن مأوى .. انه هارب من سيبريا .. وراح يتحدث كما لو كان يخاف عذاب الضمير . أو يخفى سرا يثقل صدره .

كان جيلا معذبا مفتونا . وكان كل فرد فيه يصرح بغير ما يبطن وليس هناك من يصرح بوضوح عما يجرى فى ضميره . كان كل انسان يشعر انه ارتكب جرما نحو العالم كله . حتى أن أية اشارة تكفى لاثارة الأوهام . بل ان الناس كانوا يتهمون أنفسهم بمحض اختيارهم بدافع قوة مجهولة فتاكة مدمرة لا لمجرد الهول الذى سيطر عليهم فحسب .

قال سترلنكوف - انى مشوق لأسرتى .. هربت من أقاصى سيبريا وطوردت فى كل مكان . وعرفت أن زوجتى وابنتى هنا ولكن بعد فوات الأوان .. عرفت انهما أقامتا معك .

- ألست نادما على أنك لم تأمر باعدامى بالرصاص يوم قابلتك ؟

- بالطبع شعرت بالغيرة منك .

- ١١ -

- كانت الحياة مشاركة وألفة ، كنا نحرك الجبال فى سبيل أولئك الذين نؤثرهم بالحب ولو حدث اننا سببنا لهم المتاعب صرنا نحن أشد حزنا لما أثرنا فيهم من ألم . ولكن قبل أن أقص قصتى عليك أن تعرف اننى مطارد ، وأنك الآن تقع تحت طائلة العقاب ما دمت تتحدث الى . وخير لك أن تترك فاركينو . ثم استأنف سترلنكوف حديثه عن

عهد الطفولة الذى جمع بينه وبين لارا .

ـ لا تستطيع أن تتخيل كم كانت فاتنة اذ كانت تلميذة بالمدرسة . لا يمكن أن تتصور ذلك . كنا نلعب معا وعلى الرغم من حداثة سنها كانت شديدة الانتباه والحذر . كنت تقرأ فى محياها القلق المعبر عن ذلك العصر ، نعم وتلمح فيه الدموع والشباب والآمال وكل ما خلفه الانتقـــام والزهو ، وهى ملامح ذلك الزمان ، كنت تقرأ كل ذلك مرتسما فى تعبيرات وجهها ، فى ذلك الخليط الذى يجمع بين خجل فتيات المدارس وبين الرشاقة والجرأة بحيث يمكنك أن تسمى ذلك العصر باسمها فأنت تسمع صوته من فمها هى . ولم يكن ذلك بالأمر التافه بل لعل الطبيعة هيأتها لتكون هى البشير الناطق بالمصير .

ـ ما أروع وصفك لها . سمعتها منذ يومين تتحـــدث عنك هى الأخرى كما تصفها أنت بأنها تلميذة وفى نفس الوقت بطلة مأســاة غامضة .. كان ظلها على الحائط هو ظل الضعيف المتيقظ للدفاع عن نفسه . رأيتها اذ ذاك ولا زلت أذكرها .

ـ اذن فأنت رأيتها ولا زلت تذكرها ؟ وما أثر ذلك فى نفسك ؟

ـ هذه قصة أخرى .

ـ حسنا .. هو القرن التاسع عشر ، واضطراباته التى نجمت عن عوامل كثيرة فى روسيا وأوروبا ، وما أدت اليه من انتشار أفكار جديدة منها هذه المبادىء الخلابة ونتائجها السريعـة التى تلوح باهرة . فى هـذا العصر نشأت السخرية . واخترع الدواء المؤلم بدافع الرحمة .

حسنا ولكنى أصدع رأسك .. ومع ذلك سأستمر .

ـ من أجل تلك الفتاة تعلمت حتى أصبحت مدرسا فى بلد مجهول ، ومن أجلها التهمت الكتب وتزودت بفيض زاخر من المعـرفة حتى أستطيع أن أعينها ، اذا ما سألتنى سؤالا . ولكى أسترد حبها بعد ثلاث سنوات من الزواج تطوعت فى الحرب . ولما أيقنت أنها سمعت بخبر موتى انتهزت الفرصة وانضممت للحركة الجديدة تحت اسم مستعار لأدفع ثمن أخطائها ، ولأكفر عما قاسته روحها من عذاب الذكريات حتى تتحرر من ذلك الماضى الذى يشقيها . وكانتا ، أعنى ابنتى وزوجتى ، تسكنان قريبا منى هنا . ولا تتصور كم تألمت فى كبح رغبتى فى لقائهما ولأحول بين نفسى وبين الارتماء في أحضانهما . لكنى أردت أن أنتهى من أعظم رسالة فى حياتى أولا . وهأنا الآن مستعد للتضحية بأى شىء فى سبيل أن تتملى عيناى برؤيتهما ..

« كنت أحس حين تدخل حجرتى كأن النـافذة قد فتحت على مصراعيها وانتشر منها فى أرجاء الحجرة الهواء والضياء .

ـ أعرف مدى حبك لها . فهل تدرك كم أحبتك هى ؟ ...

ـ معذرة . ماذا تقول ؟

ـ أقول أتعرف كم تحبك ؟ أكثر من أى شخصى فى الوجود .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ هذا ما ذكرته لى بنفسها ؟

ـ صارحتك بذلك ؟

– نعم

– معذرة ، هل لى ان أطلب اليك أمرا قد لا يبدو معقولا وهو ان تعيد على مسمعى ما سمعته منها .

– حبا وكرامة . قالت انك نموذج لما يجب أن يكون عليه الانسان. رجل لا نظير له بين الرجال وانك أعظم مثل للوفاء ولو أتيح لك أن تعود لتستأنف حياتك معها فانها تسعى اليك من أقصى الأرض .

– وأين كانت حين قالت ذلك ؟

– كانت تنظف هذه الغرفة . وكانت تحمل هذه السجادة .

ووقفا يرقبان النافذة فى اتجاهين مختلفين .

وقال باشا : معذرة لو سألتك أسئلة أخرى تمس شئونك الخاصة .. سأرحل من تلقاء نفسى فى الصباح فلا تضق بى ذرعا .. أوه ! قالت ذلك . اذا فكل ما صنعت كان بلا جدوى .. سوف يلقون القبض على فى الصباح . أما أنت فسوف تراها . ستكون قريبا منها .. ولكن ماذا أقول ؟.. اننى مخبول .

- ١٢ -

واستيقظ يورى فى الصباح . وحسب باشا نائما . وما كاد يخرج الى البئر حتى وجد جثته ملقاة فوق الجليد . اذ كان قد أطلق على نفسه الرصاص . فتجمدت دماؤه على أديم الأرض كحبات المسبحة .

الفصل الخامس عشر

النهاية

لم يبق أمامنا غير وصف الثمانى أو العشر سنوات الأخيرة من حياة زيفاجو ، وخلالها فقد كل ما عرف من الطب والأدب . وعاش بائسا شقيا . ولم يكد يستأنف عمله حتى سقط فى هوة الزمن دون أن يحفل بنفسه ولا بما حوله .

عاد الى موسكو فى فترة رهيبة اكتنفها الغموض . كان نحيلا هزيلا أكثر مما كان يوم ولى الفرار من سيبريا الى يورياتن . وأثناء الرحلة اضطر مرة أخرى لاستبدال ملابسه المصنوعة من الفراء بثياب رخيصة . فجاء الى موسكو وعليه قبعة رمادية من جلد الخراف، وثياب تشبه ثياب المساجين .

رافقه فى رحلته صبى كان ضالا بين أطلال القرى والخراب الشامل الذى خلفته الحرب . فصحبه فى موسكو الى بعض تلك الأماكن التى شهدت صباه وكان يشيح بوجهه كلما التقى بصديق قديم .

ولاح وهو يسير بثيابه المهلهلة وقامته الطويلة مصاحبا ذلك الفتى كالريفى الذى جاء يبحث عن الحقيقة ، ومعه أحد مريديه الصابرين الذين يدينون له بالولاء التام .

والفتى يدعى فاسا ، وكان زيفـاجو قد لقيه من قبـل . وأراد فاسـا ان يتعلم وأن يرسم لوحة لأمه التى ذهبت ضحية من ضحايا الحرب ولكنه لم يبرع الا فى العمل اليدوى . وكان الرجل يرافقه الى كل مكان ليعينه على طلب العلم . وكبر الفتى وراح يستمع الى ذلك الكلام الخلاب الذى يقال وقارن بين هذا وبين كلمات وآراء زيفاجو الغامضة التى عفا عليها الزمان فلم تعد تروق له . وأخيرا صار يسخر منه وهو الذى علمه وجعل منه رفيقا فى رحلته وفى محنته وفى مسكنه .

فتركه زيفاجو بعد أن ضاق به وراح يلتمس بمعونة خادمه السابق ماركل الذى صار قيما على قسم من المساكن الشعبية ـ مسكنا آخر ، فمنحه الرجل ما أراد ، فى نفس المنزل الذى يقيم فيه هو وعائلته .

- ٢ -

كان زيفاجو يخدم نفسه بنفسه وينظف حجرته ويملأ الماء ويأكل الفتات .

وذات مرة احتاج الى كثير من الماء وكان عليه أن يحمله فى دلاء من خارج البيت الى داخله ، فطلب الى ماركل وعائلته أن يسمحوا له بذلك فسخروا منه قائلين ـ لو أردت شرابا حلوا لأعطيناك بدلا من الماء .

وكان فتح البـاب واغلاقه يسمح للصقيع بالدخـول الى الدار ،

فضايق ذلك ماركل وأفراد العائلة الذين كانوا قد رحبوا به اذ ملأ أول دلو . فلما فتح الباب للمرة الثالثة راحت المرأة تقول : كم من مال انفق عليك ؟ وها أنت لا تفعل شيئا . ان أزواج بناتى لم يصدقوا انك طبيب . احذر ان تلقى بالماء على الأرض أيها الغبى .

فلما جاء يفتح البـاب حاملا دلوه للمرة الخامسـة صاح ماركل : يجب أن تضع حدا لذلك .. تذكر اننا لن نسمح لك بفتح الباب الا مرة أخرى فقط .. ولولا مارينـا ما سمحت لك بذلك . ألا تعرف مارينا ؟ قالت لا تجرح مشاعره يا أبتاه .. هى عاملة تليفون .. أيها الغبى لماذا رحلتم الى سيبريا وتركتم موسكو .. لقد بقينا نحن .. وها أنت ترانا . لو عنيت بتونيا لما كانت الآن مشردة خارج الوطن .. كل ما أريد أن أعرفه هو ما الذى ستفعله بكل هذا الماء ؟

ـ المسكن يحتاج الى تنظيف كثير يا ماركل ويجب أن أغسـل الأرض وأمسحها .. وعلى أن أغسل بعض ملابسى .

وعجب القوم

ـ من المخجل أن تقول ذلك .

وقالت (أجافا) زوجة ماركل : سأرسل لك ابنتى لتغسل ..وكذلك لتمسح الأرض وترتق لك من الملابس ما يحتـاج الى رتق .. لا تخافيه أيتها العزيزة مارينا فهو رجل مهـذب لا يمكنه أن يؤذى ذبابة .

فقال : ولم هذا ؟ ليس من المعقول أن تضع يدها فى هذه القاذورات **من أجلى** . يمكننى أن أفعل ذلك بسهولة .

قالت مارينا : ألن تغسلها أنت ؟ وهل يداى أفضـــل من يديك ؟ لا تكن سخيفا يا يورى أندروفتش . سآتى الى مسكنك وأظنك لن تغلق الباب فى وجهى .

كان يمكن أن تلتحق مارينا بمعهد للغناء ، فقد كان صوتها صافيا لينا من طبقة عالية قوية بين الأصوات . لم يكن حادا ولكن الجلال يسرى بين طياته ، كما لو كان مهيأ لأمر آخر أسمى من الحديث المألوف . لم يكن هذا الصوت جزءا منها بل يخيل اليك انه منفصل وان له حياة خاصة به . ويخيل لك أيضا انه آت من خلف ظهرها أو من الحجرة المجاورة . كان صوتها حاميها ، وملاكها الحارس فلم يكن لأحد أن يفكر فى ايذاء فتاة لها مثل ذلك الصوت .

وهكذا تطور الأمر من حمل المياه فى يوم من أيام الأحد الى صـــداقة تجمع بين يورى ومارينا التى دأبت على الذهاب اليه لتقوم بأعمال المنزل . وذات يوم جاءت ولم تعد الى مسكن أبيها . وهكذا صارت زوجته الثالثة مع أنه لم يطلق زوجته الأولى ! وأنجبا وتحدث ماركل وزوجتـــه ، عن ابنتهما التى تزوجت طبيبا ، وكان حديثهما لا يخلو من الفخر . وان كان ماركل يغضب فى بعض الأحيان لأنه لم تجر مراسم شرعية للزواج سواء فى الكنيســـة أو لدى مسجل العقـود . غير أن أجانا قالت : أمخبول أنت ؟ أيمكن ذلك وتونيا لا زالت على قيد الحياة ؟ ألا يعتبر ذلك تعددا للزوجات ؟ فأجابهـــا

ماركل : بل المخبولة هى أنت . ما لتونيا وهذا ؟ حياتها وموتها يستويان ما دام لا يوجد قانون يحميها .

واحتملت مارينا أطواره الغريبة وشذوذه ، فهو يثير الاضطراب فى المسكن ويقلبه رأسا على عقب . كان غريب النزوات مسرفا فى أوهامه . كان من الهالكين وأحس بذلك وفطن اليـــه . واحتملت مارينا الكثير وتضاعف حبها له وعطفها عليه .

- ٢ -

رزقا بطفلتين (كابكا) التى دللاها باسم كابتيولينا و (كلاشا) وأطلقا عليها كلوديا ، وبلغت الأولى ست سنوات من العمر ، بينما الثانيـــة كانت لا تزيد على ستة شهور .

وكثيرا ما زارا صديقه جورودن فى مسكنه .

وكان يختلف اليه كذلك صديق آخر هو (دودوف) وذات يوم اجتمع كل من زيفاجو وصديقيه ومارينا والطفلتين .

ودهش زيفاجو للطريقة التى يتحدث بها صاحباه . كانت تعوزهما القـــدرة على التعبير ويكرران ما يقولان ويسوقان الحديث خلوا من الحرارة والايمان . لقد تغيرا وصار أفقهما وتفكيرهما محدودين مع انهما نشآ فى أوساط جامعية وصاحبا الكتب والمفكرين واستمعا الى أروع ألوان الموسيقى .. أوه ! ما أسخف السوقة فى الذوق الفنى . ربما كان من الأفضل ألا يوجد الذوق على الاطلاق .

صارا من ذوى الشخصيات الباهتة التى لا تقوى على التفكير المتحرر ولا المشاركة فى الحديث الطلى المنطلق .. والرابطة التى أدنتهما من يورى هى مجرد الرغبة فى اصلاح حاله وتقويم سلوكه والنهوض به من هذا الدمار الذى فرضه على حياته فرضا .

وهو اذ يستمع الى حديثهما يود لو استطاع أن يصارحهما قائلا : لشد ما صرتما سطحيين فى العلم وفى المصادر التى تستقون عنهـــا العلم . وكم هى تافهة تلك الفنون التى تستهويكما .

ولكن كيف يجرؤ على التصريح بذلك ؟

كان دودرف قد عاد حديثا من معتقله واكتسب حقوقه المدنية وسمح له باستئناف عمله وأبحاثه فى الجامعة . وراح يصور للجالسين حالته العاطفية يوم كان مشردا طريدا فكان تصويره ذاك صادقا لا أثر فيه للخوف أو للمؤثرات الخارجية الأخرى .

ثم وصف محاكمته ، وحديثه الصريح مع المحقق الذى رأى أنه أضاء أمامه السبل ، وأتاح له ان يراجع ثقافته السياسية وكان جوردون يومىء برأسه موافقا على ما يقوله صاحبه . كانا يمجدان العبودية ! والأسير الذى لا يستطيع أن يحطم قيده يمجد ذلك القيد !

وأحس يورى بأعياء فاستأذن طالبا الانصراف لأن أنفاسه تضيق بالغرفة ومن الضرورى له أن يستنشق الهواء النقى .

وأسف ميشا جوردن لكثرة التدخين فى الغرفة مما جعل يورى يضيق بها .

فقال هذا انه يشعر حقا بالاختناق فهو مريض بالقلب الذى رقت أنسجته ومن المنتظر أن تتمزق عما قريب .

- هراء .. ما زال العمر طويلا وربما عشت بعدنا .

- انتشر وباء الموت بالقلب فى هذا الزمان فهو مرض شـــائع فى عصرنا المعقد. فالناس لم يعد يتوفر لهم الهدوء الذى نعموا به من قبل. وباتت صحتهم تتأثر بما يبلون فى الحياة .. يجب أن أذهب فقـــال ميشا : بل ابق برهة . لا يجب ان تنصرف قبل أن تعدنا وعدا قاطعا صريحا بأن تقيم ما أعوج من أمرك . وقبل كل شىء يجب أن تحسم الأمر بين كل من تونيا ومارينا . فهما بشر ، ومثلهما مثل سائر النساء فى الشعور والاحساس بالألم . وليستا من وحوش الغاب كما تتصور. وعليك ان تصحو من غفوتك وتنفض عنك هذه الحياة الفارغة ، وان تستعيد اتزانك فتكف عن النظر الى الأشياء تلك النظرة الظالمة التى ملؤها العداء ثم يجب أن تعمل وتمارس مهنتك مرة أخرى .

- حسنا . عندى الرد على ذلك . وأنا نفسى قد فكرت فى شىء من هذا القبيل منذ فترة قصيرة . وأعدكم بأن تتحسن الأمور وسترون نتيجة ذلك فى القريب . كل شىء سيكون خيرا مما هو . وانى لشغوف بالحياة شغفا لا أستطيع وصفه . والحياة بالطبع تعنى الكفاح والتقـــدم والتطلع الى كمال غايتها .

(وانه ليسعدنى أن تدافع عن مارينا يا ميشـــا كما كنت تدافع عن تونيا . وقد كنت تلومنى لطريقة حديثى معها فلمـــا كانت تخاطبنى -

أنت يا يورى أندريفتش - كنت أنا أخاطبها بـ (بسيادتك) . لقد ضقت بكل هذا الآن . وكففت عنه وسادت المساواة بيننا !

(دعونى أخبركم بخبر آخر . تصلنى الآن رسائل من باريس . وقد كبر الطفلان وصار لهما أصدقاء من الفرنسيين فى مثل سنهما . وانتهى ساشا من المدرسة الابتدائية التى لا تلبث ماشا شـــقيقته ان تلتحق بها . لم أر ماشا أبدا كما تعلمون . اننى أشعر على الرغم من كل شىء أنهم سيعودون وان الأمور لا تلبث أن تعود الى مجـراها الطبيعى .

(ويبدو أن تونيا ، ووالدها يعلمان حقيقـة علاقتى بمارنيـــا كما يعلمان أننا أنجبنا أطفالا . لم أذكر شيئا من ذلك فى رسائلى ولكنهما عرفا بطريقة ما . والسكندر حانق كل الحنق من أجل تلك الضربة التى طعنت كبرياء ابنته تونيا . وهذا يفسر انقطاع رسائلهم مدة خمس سنوات فقد اعتدت أن أكتب اليهم منذ عدت الى موسكو ولكنهم فجأة كفوا عن الرد على .

(ومنذ وقت قريب جدا عاودوا الكتابة الى من جديد . ولأمر ما رقت قلوبهم وراحوا يتحدثون عن أنفسهم وعن الأطفال . وأجـد حرارة وعاطفة غامرة فيما يكتبون . ربما وجدت تونيا شخصا آخر ، وأضرع الى الله أن يكون هذا صحيحا . وأنا أيضا أكتب اليهم بين الحين والحين .. ولكنى حقا لم أعد أستطيع البقاء فسوف يغمى على وأزمة القلب لا تلبث أن تعترينى . وداعا .)

وفى الصباح جاءت مارينـا الى جوردون ، جـزعة أشد الجزع .

لم يكن بدارها من يعنى بالطفلتين فدثرت الطفلة وحملتها بينما أمسكت يدها الأخرى بكابكا التى كانت تتعثر فى أقدام أمها .

وسألت جزعة : أليس يورى هنا ؟ ألم يعد الى هنا بعد أن خرج مساء الأمس ؟

- لم يعد ..

- ربما ذهب الى نيكى (دودرف)

- نيكى بالجامعة ولم ير أحد يورى هناك . وكلهم يعرفونه .

- فأين ذهب اذا ؟

ووضعت مارينا كابكا على الأريكة واعترتها نوبات جنونيـــة من الحزن .

- ٣ -

ظل كل من جوردن وديدرف يومين كاملين الى جانب مارنيا . سألا عنه فى الأماكن التى يمكن ان يلتمسانه فيها ولكن بلا جدوى .

لم يبلغا البوليس اذ على الرغم من أن ليورى بطاقة مسجلة لدى السلطات الا أنهما لم يرغبا فى لفت الأنظار الى شخص يحيا حيـــاة فارغة غير مرضى عنها ، فأجلا الاتصال بالبوليس حتى تعييهم جميـع الحيل .

وفى اليوم الثالث أرسل يورى ثلاث رسائل الى كل من جوردون وديدرف ، ومارنيا يذكر فيها انه يريد استئناف عمله ولذا رأى أن

يختفى بعض الوقت ليعيش فى عزلة فترة من الزمن يصلح فيها من أمره وانه سيدهشهم باستئناف عمله فى أسرع وقت . ووضع مبلغا كبيرا من المال فى رسالة الى جوردن لكى تؤجر بها مارنيا مربية لرعاية الطفلتين فيمكنها بذلك أن تتفرغ لعملها فى مكتب البريد الرئيسى . وذكر أنه لم يشأ أن يرسل ذلك المبلغ الخيالى الى مارنيا مباشرة خوفا من أن يسرق منها .

واستخدمت المربية . وعادت مارينا من جديد الى عملها فى مكتب البريد . وواصلوا البحث عنه فلم يقفوا له على أثر .

- ٤ -

غير ان يورى كان يعيش تحت بصرهم وسمعهم فى قلب الحى الذى التمسوه فيه .

حين خرج فى ذلك المساء تاركا جوردن انتهى به المطاف الى شارع برونى وكان ذلك قبيل الغروب بقليل . وبينما هو يتجه الى مسكنه اذا به يلتقى بأخيه غير الشقيق يفرجريف الذى كان شاخصا اليه . لم يكن قد سمع عنه أو رآه منذ حوالى ثلاث سنوات . وها هو يهبط عليه من السماء ، كما هو الحال فى كل مرة يلقاه فيها . وبعد بضع أسئلة فهم سر شقاء يورى ومتاعبه ، وبينما هما يسيران فى الطريق اهتدى يفرجريف الى حل لمشكلته . فرأى أن يختفى يورى بعض الوقت عن الأنظار . وقاده من شارع كامرجر الذى كان لا زال يطلق عليه هذا الاسم ، الى مكان مجاور لمسرح الفنون . وراح يبحث

له عن عمل لائق فى احدى المستشفيات التى تتوفر فيها الوسائل اللازمة لمواصلة أبحاثه وأمده بالمال ، وساعده فى كل ما يحتاجه . ووعده بالمعاونة لتسوية مشاكله العائلية اما باتاحة الفرصة لسفره الى باريس ليلحق بأسرته أو باستقدام زوجته وولديه . وتعهد هو شخصيا بحل كل هذه المعضلات . وكانت مساعدته تلك ، كما كانت مساعداته على الدوام ، باعثة ليورى على الرضى والأمل . وبقى سر قوة يفجريف كما كان دائما غامضا مبهما لا سبيل الى الوقوف عليه ، ولو على سبيل الظن والاحتمال .

- ٥ -

كانت الغرفة التى سكنها يورى أيام عزلته تقع فى جنوب المبنى وكانت ملاصقة للمسرح وتطل على المبانى المرتفعة التى تسطع عليها الشمس دون أن يتساقط من أشعتها الى الشارع غير شعاع واهن نحيل .

وراح يورى يستعيد نشاطه الطموح بحيث لاحت أكداس الكتب التى تعالت فوق المنضدة هزيلة بالنسبة للأفكار العظيمة الرائعة التى تتردد فى خاطره . وراح يخطط مشروعات الكتب التى سوف يؤلفها وان كانت لم تكتمل بعد . كانت حجرته تلك مائدة لغذاء الروح ومستقرا لما هو فوق مستوى العقول ، ومستودعا للابداع والالهام .

ولم يستطع يفجريف ان يحدد له موعدا ليبدأ فيه عمله ، فسعد بذلك اذ توفر له وقت للتأليف .

وأخرج تلك الأوراق التى وافاه بها شقيقه ، والتى سطرت فيها أشعاره القديمة . غير أن صورها الغامضة لم تشجعه على الاستمرار وكان وجودها أكثر ضررا اذ صرفته عن ذلك اللون من الكتابة .

فليكتب مقالا على نحو ما كان يكتب مذكراته فى فاركينو أو فليفكر فى بداية أو نهاية لقصيدة من الشعر . ومضت فترة لم يكن يستطيع فيها أن يتابع ما تفيض به نفسه من الأفكار ، فاضطر أن يستخدم فى رسائله ومذكراته ما يشبه الاختزال .

وكلما شرد خياله أخذ يسبغ عليه جوا يمثل تلك الصور التى يعنى هو بأن يرسمها . وكانت تلك الصور تتمثل فى أشجار تقطع من الغابة أو تصور مفترق طرق فى المدينة وقد وضعت عليها تلك اللافتة التى كان يراها فى يورياتن تعلن عن متاجر الآلات الزراعية .

وكانت مقالاته وأشعاره جميعا ظلا لنفس الصورة ولنفس المدينة .

- ٦ -

وكان مما وجد بين أوراقه فيما بعد صفحات تحتوى على ملاحظات منها .

(عندما وصلت الى موسكو فى الثانى والعشرين وجدتها خالية خربة فقد كانت خارجة من عهد المحاكمات الأولى . ولا زلت أراها على هذا النحو . ومع هذا كله فانها ما برحت مدينة حديثة مترامية

الأطراف . والمدن هى مصدر الالهام الوحيد لما هو حديث ومعاصر من الفن الصحيح .

(ان ما يبدو مضطربا مهوشا من الآثار الفنية التى يبدعها أصحاب المذهب الرمزى أمثال الشعراء بلوك ، وفيرهارين وهويتمان لا يمكن مطلقا ان تعتبر أوهاما أخذت صورة مذهب من المذاهب الفنية لأن تعارض الانطباعات الذى تتسم به أعمال هؤلاء الشعراء هو فى الواقع صورة لما يجرى فى حياتنا المعاصرة .

(فكما تتابع الصور فى أعمال هؤلاء الشعراء سريعة متوالية فى كل سطر من قصائد أشعارهم فكذلك الحال فى شارع من شوارع مدينة مزدحمة حيث تتابع فيه صور التزاحم والحشود والعربات التى تسير فيها .

(ومن أين يتأتى للفن المشاهد الريفية الساذجة فى هذه الحياة التى نحياها اليوم ؟ واذا وجدت مثل هذه النزعة فهى زائفة لم تنتزع من الحياة الريفية نفسها بقدر ما هى متأثرة بالكتب الجامعة للقصائد التى تتغنى بالريف . ان اللغة الحية اليوم هى لغة المدينة .

(وهأنا أعيش فى منطقة مزدحمة حيث يوجد مفترق للطرق . وموسكو تلوح وقد أعشت نظرها الشمس كما أعشتها تلك الأفنية التى لوحت الغزالة أرضها المرصوفة الشهباء . وتتناثر أشعة الشمس خلال فتحات الأبنية المرتفعة ، فتتسم المدينة وتنتعش بألوان شوارعها . وتدور من حولى دوامة من السحب فتدير رأسى وتريد أن تحملنى على أن أدير رؤوس الآخرين بأن أكتب ممتدحا لها مثنيا عليها .

(والضجة التى تضج بها شوارع المدينة ليلا ونهارا خارج بيوتنا انما هى مرتبطة بأفكارنا ارتباط الافتتاحية الموسيقية برفع الستار . فالصخب الذى يملأ الطرقات هو الافتتاحية المناسبة لحياة كل منا . هكذا يجب أن أكتب عن المدينة ، اذا أردت أن أكتب) .

- ٧ -

ذات يوم فى أواخر شهر أغسطس ركب يورى الترام من شارع جرازتنى فى طريقه الى مستشفى بوتكن وهى التى كانت تعرف يوم ذاك باسم سولاتنكو . كان ذلك هو اليوم الأول لالتحاقه بعمله الجديد .

لم يكن محظوظا بأن يستقل ذلك الترام الذى كان محركه تالفا فتسبب فى جميع ألوان المضايقات لركابه . فقد توقف عن المسير ، وربما اعترضت طريقه عربة من العربات فغرست عجلاتها بين قضبانه أو اختل الجهاز العازل للكهرباء .

هبط السائق عند بداية الرصيف وطاف حول الترام وراح يفحصه من أسفله وينظر الى الجهاز القائم بين حافة الرصيف والعربات .

وأوقف الترام الملعون كل القطارات الأخرى التى تجرى فوق ذلك الخط ، فضاق الشارع ضيقا شديدا بتلك العربات التى اكتظ بها ، وامتد صف طويل من القطارات المتوقفة حتى ميدان مانيج بل الى أبعد من ذلك . وترك ركاب القطارات الأخرى أماكنهم فيها وراحوا

يتزاحمون فى القطار الأمامى الذى تسبب فى هذا التوقف توفيرا للوقت .

كان صباحا حارا ، وتعطلت التهوية فى عربة الترام . وفوق الحشود المتحركة من عربة الى أخرى ، تجمعت سحابة راعدة بنفسجية اللون راحت تصاعد فى السماء حينا بعد حين . كانت عاصفة تتجمع .

وكان مقعد يورى مقعدا منفردا فى الجانب الأيسر من العربة ، والتصق هو بزجاج النافذة بحيث استطاع أن يلمح الناحية المقابلة لشارع نيكتيا حيث يوجد معهد الموسيقى . وكان ينظر الى الناس جميعا تلك النظرة التى لا يبدى فيها اهتماما بأحد .

ووقع نظره على سيدة طاعنة فى السن بيضاء الشعر عليها قبعة خفيفة من القش زينت بزهور منسوجة من التيل تمثل زهور الاقحوان والذرة ، وترتدى زيا بنفسجيا ضيقا من الطراز القديم . أخذت تروح عن نفسها بحزمة صغيرة من الأوراق كانت تحملها فى يدها . وقد نضج جسمها بالعرق بفعل الملابس الضيقة ، والحرارة المرهقة فراحت تمسح شفتيها وحاجبيها بمنديل صغير من الدانتلا .

كانت وافقة قباله . وما لبثت أن ابتعدت عن الترام بعد أن أصلحوه ، ثم ظهرت أمام يورى مرة أخرى بعد ان توقف القطار غير بعيد .

وراح يورى يتذكر المسائل الحسابية التى تعلمها فى المدرسة والتى

تتطلب معرفة الزمن ، وترتيب وصول القطارات التى تبدأ فى أوقات مختلفة وتسير بسرعة مختلفة . حاول أن يتذكر كيف كانت تحل تلك المسائل ولكن بلا جدوى . وتدرج من هذا الى ذكريات أخرى عن المدرسة ثم الى أمور أخرى معقدة .

وتصور قوما حياتهم تسير فى خطوط متقابلة ، ويعيشون متقاربين ولكن تتباين سرعتهم وراح يتخيل تلك الظروف التى تجعل بعضهم يبقى حيا بعد موت الآخرين . وتبين أن ثمة شيئا كنظرية النسبية يمكن أن يطبق على حياة البشر ولكن أفكاره اضطربت فما لبث ان نبذ مثل هذه الفكرة .

وتوهج برق ودمدم رعد !

وتعطل الترام التعس للمرة العشرين . ولاحت السيدة ذات الرداء البنفسجى مرة أخرى خلال اطار النافذة واجتازته ومضت . وتساقطت أول القطرات الكبيرة من المطر على الطريق ، والرصيف والسيدة . ومرت ريح عاصفة على الشجر فهزت الأوراق وهزت قبعة السيدة وقلبت حافة قميصها ، وفجأة همدت الرياح .

وأحس يورى بالدوار والأغماء ، وقاوم ضعفه ونهض محركا حافة النافذة من أعلى ومن أسفل محاولا فتحها . لكنه لم يستطع تحريكها .

وصاح به القوم ان النافذة مغلقة بالمسامير ، ولكن يورى كان يقهر الاغماءة المقبلة وقد تملكه ضرب من الهلع فلم يفطن لما يقولون ، ولم

يستطع التفكير بل استمر يحاول فتح النافذة . وراح يجذبها جذبا عنيفا . وفجأة اندفع الى كيانه ألم قاتل . وفطن الى أن عضوا من أعضاء جسمه قد كسر كسرا لا يجبر وان النهاية قد دنت . فى هذه اللحظة سار القطار قليلا . ثم توقف من جديد .

وبجهد فوق طاقة البشر مضى يورى وسط الحشد المتماسك ملتمسا الباب وهو يتمايل ويترنح والحشود تطبق عليه حتى وصل الى حافة الرصيف .

وخيل اليه أن الهواء الطلق يعيد اليه الحياة .. وان النهاية لم تدن بعد كما كان يظن . وربما أصبح الآن خيرا مما كان حقا .

وراح يلتمس لنفسه طريقا بين الحشد المحتشد على حافة الرصيف مثيرا الصخب والسباب بين الناس . لم يلتفت اليهم وانسلخ بنفسه بعيدا عن الزحام معتزما اجتياز الرصيف الى الطريق .. وخطا خطوة واحدة .. وخطوة ثانية ثم ثالثة .. ثم سقط عند الحافة الخارجية للرصيف ولم ينهض بعد ذلك أبدا .

وارتفع صياح وثار جدل . وهبط بعض القوم من الترام والتفوا حوله . وتأكدا انه لا يتنفس اذ توقف القلب عن النبض . وتكاثرت الحشود . وقيل انه بعيد عن الخط الحديدى ولم يدهمه الترام .

تضاعف تجمع الناس والتفوا حول الجثة ، وجاءت السيدة ذات الرداء البنفسجى فيمن جاء وكانت هى مدموازيل فلورى التى كانت تعمل بمنزل الكونتيسة حيث استقر من قبل يورى ولارا ، حين كان ذلك المنزل يستخدم فى الحرب كمستشفى للميدان .

ها هى قدمت الى موسكو أخيرا بعد أن سمح لها بالسفر الى بلدها سويسرا .. وها هى جاءت لتسمع القوم يصيحون ويتشاورون فيما يفعلون بتلك الجثة ، أيذهبون بها الى المستشفى أم يخطرون البوليس. ولم تنتظر النتيجة ولم تفطن أبدا الى انها وقد جاوزها الترام ليقف مرات ومرات ، قد عاشت بعد موت يورى . وكانا من قبل فى مكانين متقابلين .

- ٨ -

الجثة مسجاة على المكتب الذى كان يكتب عليه . بعد أن وضعت المسودات التى كتبها فى الأدراج ، ورفعت رأسه بوسائد . وأحاطته أزهار البنفسج الغالية . كثير من الازهار يغمره . ومن خلالها ينفذ النور الى الغرفة ، ملقيا بظلالها على المكتب .

وجاء قوم كثيرون ، منهم من رآه وصاحبه ثم انقطعت الصلات ومنهم من لم يلقه أبدا من قبل وانما قرأ له شعرا أو أبحاثا علمية .

وكانت عادة ندب الموتى لا تزال متبعة فى ذلك الوقت . وكانت اللحظات التى تتوقف فيها الصلوات وترتيل المزامير لحظات فراغ صامت موحش ، فأخذت الأزهار تصلى وتسبح فى تلك اللحظات . كانت أكرم من أن تكون جميلة اللون ، ذكية الرائحة فحسب . فراحت تشارك فى الأحزان وتسكب ما يشبه الدموع وتعبق برائحة قوية تصل الى جميع الصدور ، كانما تتم مراسم الصلاة .

ان مملكة النبات يمكن ان نعتبرها قريبة من مملكة الموت . وربما

تركزت أسرار التحول بعد الموت والمبهم من ألغاز الحياة التى طالما عذبتنا ، فى خضرة الأرض ، وبين الأشجار القائمة فى ساحات المقابر وفى الأزهار المنبثقة منها . ولا عجب فان مريم المجدلية لما رأت المسيح ينهض من قبره حسبته لأول وهلة البستانى الذى يرعى الزهور .

- ٩ -

ونقلت الجثة الى شارع كامرجر حيث كان عنوانه المسجل . وجاء الأصدقاء الذين هزهم النبأ . وكانت مارينا قد بكت وولولت كقروية تندب رجلها . وها هى جاثية ذاهلة بعد أن حطمها الأسى الفاجع .

نعم هكذا جلست يومين ، وأتوا لها بالطفلة لترضعها حيث هى ، وجاءت كابكا أيضا لتراها .

وكان الى جانبها أصدقاء . ولم يكن حزن كل من جوردن وديدرف بأقل من حزنها . وبجوارها جلس والدها ماركل ، الذى ارتفع صوته وهو يبكى ، ومسح أنفه بمنديله بصوت يثير العجب . وكانت أمها وأخواتها الباكيات غاديات رائحات .

وبعيدا عن الجمع وقف رجلان لا تربطهما بالميت صلة أكثر من صلة الآخرين ولكنهما لا ينافسان مارينا فى حزنها ، وصار من الواضح ان لهما على يورى سلطة ليست كسائر السلطات . هما اللذان رتبا شئون الجناز ، وهما اللذان أعدا جميع الأمور بذلك الهدوء المتحدى الذى يبدو انه كان باعثا لهما على الرضى، كانا شخصين يهتمان بالموت،

ويريان أن لهما حقوقا على الموتى . وليم يدريا أنهما يقومان بأخطر عمل بالنسبة الى يورى .

هكذا جلسا وقد انتحيا جانبا يتحدثان عن أعمالهما اليومية .. وما أن اقترب ذلك الرجل الذى يبدو من عينيه حب الاستطلاع والى جانبه سيدة من السيدات فاتنة ، حتى خرج الجميع بما فيهم مارينا وتركوهما خلف أبواب نصف مغلقة كيما يتما - فى هدوء لا تشوبه شائبة - أمرا هاما يتعلق بالجناز . وهكذا بقيا وحدهما وجلسا الى مقعدين الى جوار الحائط وراحا يتحدثان .

- وما الذى دبرته يا يفجريف اندرفتش ؟

- ستجرى مراسم احراق الجثة الليلة. سيأتون من نادى الأطباء بعد حين . والجناز الرسمى فى الساعة الرابعة .. كانت أوراقه غير معدة ولذلك استغرقت الاجراءات فترة طويلة . وكان على أن أعد كل شىء قبل أن يحملوا الجثة وهذا ما سيتم بعد وقت قصير . وانى أتركك معه كما طلبت . آسف . انه التليفون . لن يستغرق ذلك دقيقة واحدة.

وخرج يفجريف الى الممر الذى فاض بالمعزين من رفاق يورى ، وزملائه فى الدراسة ، وبعض موظفى المستشفى ، وبعض أصحاب المطابع وتجار الكتب . وجلست مارينا على مقعد خشبى محتضنة طفلتيها ، منتظرة أن تعود بعد حين الى حجرة الاستقبال ، كما لو كانت زائرة لسجين تنتظر ان يؤذن لها بالدخول فى صحبة الحراس.

وضاق الممشى . ووقف أمام الباب الذى كان مفتوحا جمع غفير من الناس . كان بعضهم قد خرج من المسكن ليدخن فى الخارج .

وراح يفجريف يبذل جهده ليسمع ما يقال ، فى سماعة التليفون، وأجاب عن بضع أسئلة عن الجناز والترتيبات التى أجريت والظروف التى أحاطت بموت الطبيب ، بصوته المنتفخ .

وعاد الى غرفة الجلوس قائلا : لا تختفى بعد احراق الجثة يا لاريسا فيودورفنا لأنى لا أعرف أين تسكنين فلا تذهبى دون علمى ، فانى أحتاج اليك فى تنظيم الأوراق التى تركها أخى اذ لا يوجد من يعرفه خيرا منك . قلت انك قدمت من مدينة ايركتسك منذ يومين وانك لن تبقى طويلا وانك جئت هنا بمحض الصدفة لسبب آخر دون أن تعرفى أن هذا هو مسكن أخى الذى انقطعت عنك أخباره فى الفترة الأخيرة . لم أفهم تماما كل ما قلت ولا أطلب اليك توضيحا ولكن لا ترحلى دون علمى . ومن الخير أن نمضى الوقت الذى يلزمنا لفحص مخطوطاته فى مكان قريب من هنا .. ربما أمكن تدبير غرفتين فى هذا المبنى .. يمكننى اعداد ذلك فأنا أعرف المشرف عليه .

- تقول انك لم تفهم ما قلت ؟ ما الذى تريد ان تفهمه ؟ وصلت الى موسكو وتركت حاجياتى بالمحطة ورحت أمضى فى شوارع موسكو القديمة التى كدت أنساها لطول غيابى عنها . حسنا مشيت ومشيت حتى وصلت الى شارع أعرفه كل المعرفة . نعم انه شارع كامرجر هذا . هنا فى هذا البيت . فى هذه الحجرة قضى أيام

الدراسة زوجى باشا أنتيبوف الذى أعدم بالرصاص . فقلت لأدخل وألقى نظرة ربما لا زال يعيش هنا بعض السكان القدامى . لم أعرف ان كل شىء تغير . سألت الناس وكنت أنت هنا . لا أدرى لم أقول لك كل هذا . دخلت مذهولة ذهولا مطلقا . كان الباب مفتوحا على مصراعيه وجثة ميت فى الغرفة فمن يكون ؟ دخلت وسألت . وأحسب أننى فقدت صوابى . غير أنك كنت موجودا فرأيتنى . أليس كذلك؟ ألم أقل لك كل هذا ؟

ـ اسمعى يا لاريسا فيودرفا . اسمعينى لحظة .. لم أكن أعرف ، ولا يورى عرف ذلك الارتباط الغريب بين هذه الحجرة وبين أنتيبوف ولا أنه كان يسكنها . ولكن ما أدهشنى هو تعبير ذكرته مرة واحدة سأخبرك عنه بعد حين . أما عن أنتيبوف ، أو سترلنكوف فقد اعتدت أن أسمع أخباره دائما أيام الحرب الأهلية ، كانت أخباره تطرق سمعى كل يوم وقابلته مرتين أو ثلاثا دون أن أدرى ان اسمه سيذكر أمامى مرة أخرى فى مجرى حديث يتعلق بحياته العائلية . معذرة . لعلى لم أسمعك جيدا . أظنك قلت ـ وقد يكون ما ذكرته زلة لسان ليس الا ـ ان زوجك أعدم بالرصاص . أليس من المؤكد انك تعرفين أنه هو الذى أطلق على نفسه الرصاص ؟

ـ هذا ما سمعته . ولكنى لم أصدقه . وهل كان بافل بافلوف مثلا من ذلك الطراز من الناس الذين يقدمون على الانتحار ؟

ـ ولكنك تعلمين عن يقين أن أنتيبوف انتحر فى المنزل الذى علمت

من يورى انكما كنتما تعيشان فيه . حدث هذا بمجرد سفرك .ووجد أخى جثته ودفنها . ألم يحدثك أحد فى ذلك ؟

ـ سمعت غير هذا الذى أسمع .. اذا فمن المؤكد أنه قتل نفسه ؟ هكذا قالوا ولم أصدق .. وفى ذلك البيت عينه ؟ لا يعقل . لا تدرك أنت كم تهمنى هذه المصادفات التافهة . اذن فقد قابل يورى باشا وعرف كل منهما الآخر ؟

ـ ذكر يورى أنهما تحادثا طويلا

ـ أهذا صحيح ؟ حسنا . شكرا لله . شكرا لله .. هذا عظيم

وراحت لارا ترسم علامة الصليب وهى تقول :

ـ ما أغرب الأحداث والمصادفات ؟ أتسمح لى بأن أعود لأسألك عن تفاصيل هذه الأمور .. فكل صغيرة تتعلق بهما عزيزة عندى وغالية . لكنى الآن مضطربة كل الاضطراب . سأصمت قليلا لأستعيد هدوء نفسى . فهل تسمح لى ؟

ـ بالتأكيد ! بالتأكيد !

ـ أوه قلت لى ألا أختفى . أعدك أننى لن أفعل . سنبحث مخطوطات يورى معا . انى أعرف كل شىء عنها . ومسألة أخرى ألست محاميا ؟ أو على الأقل تلم بالقوانين المتبعة الآن . انى أحتاج الى معونتك . وأريد أن أعرف أى الجهات الحكومية يمكنها أن تمدنى ببعض المعلومات .. وأريد نصيحتك فى مسألة فظيعة . فظيعة حقا تتعلق بطفلة . ولكنا سنتحدث عن هذا فيما بعد . افترض ، مجرد افتراض ،

أنك يجب أن تعثر على طفل عهد بتربيته الى بعض الغرباء ، فهل يوجد مركز عام للاستعلام عن بيوت الأطفال فى البلاد كلها ؟ وهل يوجد سجل لجميع اللقطاء والمشردين . ألم يحاول أحد توفير مثل هذه الخدمات ؟ ولكنا سنتكلم عن هذا فيما بعد . لا . لا تقل شيئا الآن . اننى خائفة ، الحياة مخيفة ألا ترى ذلك ؟ لا أدرى ما يخبئه الغد حين تحضر ابنتى وتعيش معى ، أما الآن فيمكننى أن أبقى فى هذا المسكن . ان كاتيا ابنتى تظهر براعة فى الموسيقى والتمثيل . طفلة مدهشة أريد الحاقها بمدرسة التمثيل أو بمعهد الموسيقى . أيهما تفضل هى . ويجب أن تعيش فى قسم داخلى بالمدرسة . لهذا جئت بدونها هذه المرة . وسأعود حينما أطمئن على تهيئة ذلك لها . الحياة شديدة التعقيد . ولا يمكن تفسير كل شىء . ألا ترى ذلك ؟ سأنتظر قليلا حتى تهدأ نفسى وأطرد المخاوف عنها . أبقينا أصدقاء يورى طويلا بالخارج . سمعت دقات على الباب مرتين . وأسمع ضجة .. لعلهم بعض مكفنى الموتى . يجب أن تأتى بكرسى صغير الى جانب المنضدة . حتى يمكن الوصول الى جثمان يورى فقد اضطررت أن أقف على أطراف أصابعى لأصل الى وجهه . ان مارينا والأطفال يحتاجون اليه . ان تقبيل الميت من المراسم الدينية (وسوف تقبلوننى القبلة الأخيرة) .. لا أستطيع احتمال كل هذا . أليس كذلك ؟

— سأدعهم يدخلون وقبل ذلك دعنى أذكرك انك سقت فى حديثك أمورا غامضة مبهمة ولكن هناك حقيقة لا يجب أن تنسيها . اعتمدى على فى كل أمر عسير يعتريك وستجدين كل معونة من جانبى . أقول ذلك بكل صراحة واخلاص . لا تيأسى مهما تكن الظروف .

يجب ألا نيأس لما يصيبنا بل يجب أن نعمل ونأمل . سأدخل المعزين وسأحضر المقعد الصغير .. فكرة صائبة

لكن لارا لم تعد تسمع ، لم تسمع مطلقا صوت الباب وهو يفتح ولم تسمع وقع أقدام المعزين يملأون المكان ، ولا تعليماته الخاصة بتنظيم الجناز . لم تسمع بكاء الباكين ولم تسمع نواح مارينا ، لم تسمع سعال الرجال ولا صيحات النساء .

ودار الناس من حولها ، والأصوات رتيبة متكررة ، فأحست بدوار وقاومت الاغماء بكل قواها .

وانفطر قلبها ورأسها تصدع . وأغمضت عينيها ، وجردت نفسها من واقعها الى ذكريات واعتبارات وظنون ، هربت اليها ، وغرقت فيها كما لو كانت قد انتقلت ، لفترة أو لساعات ، الى مستقبل ربما لن يمتد بها العمر حتى تراه ، مستقبل أضاف الى عمرها عشرات السنين ، مستقبل جعل منها عجوزا شمطاء .

لم يبق أحد . لقد مات أحدهما والآخر قتل نفسه . أما الثالث ، فهو وحده الذى لا زال يعيش ، الثالث الذى كان يجب أن يقتل ، والذى حاولت هى أن تقتله فأخطأته ، هو الغريب عنها وعن معدنها ، هو التافه الذى لا رجاء منه ، الثالث الذى أحال حياتها سلسلة من الآثام التى لا تخطر على بال . هذا الوحش السوقى يرفل فى حلل المجد فى مناطق مجهولة من آسيا ، وصورته مرسومة على طوابع البريد . لم يبق لها واحد ممن كانا معقدا الرجاء ، لم يبق للقلب حبيب .

تصور ! كانت ليلة عيد الميـــلاد حينما صممت أن تقضى على ذلك الوحش اللئيم . جاءت الى باشا فى هذه الغرفة، وتحدثت معه فى ضوء تلك الشمعة ، وكان باشا اذ ذاك شابا يافعا ، ولم يكن يورى ، ذلك الذى يحملون جثمانه الآن ، قد ظهر بعد فى حياتها .

حاولت أن تذكر وتستعيد تفاصيل حديثها مع باشا غير انهـــا لم تتذكر الا الشمعة المحترقة قريبا من النافذة حيث تجمد شمعها المنصهر فوق الزجاج .

كيف كان لها أن تعلم أن يورى صاحب هذه الجثة ، مر بنافذتها مع تونيا فى تلك الليلة ورأى الشمعة المحترقة وهمس اذ ذاك فيما بينه وبين نفسه ـ شمعة تحترق ! شمعة تحترق !

وتذكرت الأيام التى قضتها مع يورى ، واستعادت نسمات الحرية التى كانت تسرى فى جوه فراحت تتنفس فيها وتنتعش بها . وقامت متلهفة . واعتراها شـعور لا يخطر ببال العقلاء . انهـا تحتاج ، ولو لبضع لحظات الى أن تهرب بمعاونة يورى حيث الحرية . تهرب الى الفضاء، بعيدا عن الأحزان التى قيدتها بقيودها لتنعم من جديد بنعمة الحرية . وخيل اليها ان مثل هذا النعيم انما يتحقق بوداعه ، وبانتهاز المناسبة ، والحق الذى لها فى أن تبكى حبها له بكاء لا تشوبه الشوائب . وفى لهفتها المشبوبة العارمة قامت لتنظر الجمع الذى بدأ يتفرق مخلفا اياها وحيدة فى آخر الأمر . وتقدمت الى الجثمان المسجى على النضد ، ورسمت علامة الصليب فى عجلة ، ثم نهضت لتقف على المقعد الصغير الذى أحضره يفجريف ، ثم رسمت علامة الصليب ثلاث مرات فوق

الجثة وضغطت بشفتيها على الجبين البارد واليدين . وتناست ما تخيلته من ان جبين يورى أصغر حجما مما كان ، كما لو كان يدا منبسطة ثم تجمعت فى شكل قبضة .

وقفت برهة ساكنة صامتة لا تفكر ولا تبكى ، وانحنت مرة أخرى على التابوت والأزهار والجثة وحجبتها جميعا بكل كيانها ، برأسها ، وبصدرها ، وبقلبها ، ولم تكن يداها أقل حرارة من قلبها .

- ١٠ -

ارتعش وجـودها الا كبتت نشيجها وحاربت الدمع ما اسـتطاعت ثم أدركتهـا لحظات أقوى من قوتها فاندفع منها ما حبست وتدفقت العبرات على خديها وثيابها ويديها والتابوت الذى كانت تتشبث به .

لم تتكلم . لم تفكر . واجتاحتها خواطر ومسائل كلية ، ووقائع ، ويقينات انطلقت كلها الى عقلها انطلاقا متحررا ، كالسحب فى السماء ، أو كفترات حديثهما فى الليالى الخالية . تدفقت الى عقلها تلك المعانى التى جلبت لهما السعادة والحرية فيما مضى من أيام ، نعم تلك كانت المعرفة التى لا تصـــدر عن منطق العقل ولكنها معرفة حارة تتعلق بوجودهما معا ، معرفة غريزية ، مباشرة .

وفاضت نفسها بتلك المعرفة القاتمة الباهتـة عن الموت والاستعداد له ، فاستعادت رباطة جأشها وقهرت ضعفها .. وخيل اليها أنها عاشت من قبل على هذه الأرض عشرين مرة فقدت فيها حبيبها يورى مرات لا عدد لها ولا حصر ، وأنهـا صارت قوية بما ألفت من أحزانهـــا

السابقة . وهكذا صار كل ما تبديه من مشـــاعر وحركات ، اذ هى واقفة أمام التابوت ، هو خير ما يجب أن يفعل فى مثل هذه المناسبات .

كانا يعيشان معا محققين ما يتغنى به الناس من أغنيات فى ترديدهم (أوه ! ما كان أعظم ذلك الحب، كم كان متحررا ، متجددا ، لا يشبهه شىء فى هذه الدنيا) .

لم يكن غرامهما منبثقا عن ضرورة ، ولم يكونا أسرى اســترقهم الحب كما يوصف العشاق . وانما هام كل منهما بالآخـــر لأن كل ما يحيط بهما أراد ذلك : الأشجار والسحب والسماء التى ظللتهما والأرض التى وقفا عليها . وربما شعرت الكائنات المحيطة بهما بنشوة فى صحبتهما ، لم تكن لتتوفر لها بدونهما .. وقد يكون من بين هذه الكائنات هؤلاء الغرباء الذين التقوا بهم فى الطريق ومشاهد الطبيعـة التى ارتسمت أمامهما فى نزهاتهما . والغرف التى عاشا أو تقابلا فى داخلها .

نعم ، لم يكن هذا هو ما جمـع بينهما وجعلهما متقاربين على هـذا النحـو ! فأبدا أبدا لم يغب عنهما ـ حتى فى أخصب وأعنف أوقات السعادة ـ ادراك ما هو أسمى وأعظم فتنة ، أعنى فرح الكون بأسره ، بشكله ، وبجماله ، وباحساسهما بأن وجودهما انما هو ملك لهـــذا الكون وجزء منه .

ان التآلف الكونى هو الذى كان أنفاسا يتنفسان فيها الحياة . ولذا لم يجتذبهما ذلك التقليد الذى شاع لتأليه فرد واحد وجعله فوق البشر والطبيعة . وخلا ذلك ظاهرة تقوم على دراسة اجتماعية ، تستخدم

لمنافع سياسية ، ولاحت لهما هذه الظاهرة مصطنعة مختلفـــة فى نظرهما .

- ١١ -

ها هى تتحرك مبتعدة عنه متحدثة بكلمات سوقية ، كلمات سقيمة مألوفة ، أو بألفاظ خيالية لا معنى لها ، كما يرددون فى الغناء الجماعى ، أو على نحو ما يتحدثون فى المآسى المسرحية أو لعلها تحدثه بلغة الشعر والموسيقى أو بغيرها من ألوان التعبير التى لا مبرر لها الا حين تتأجج المشاعر . وتجلى تبريرها لهذا الموقف ، والظروف التى اضطرتها ان تخرس عن النطق بتلك الألفاظ الملتهبة المبهمة ، تجلى ذلك كله فى دموعها التى راحت تلك الكلمات الركيكة المتواضعة ، تستحم فيهـــا وتسبح ثم يدركها الغرق . ويبدو أن تلك الدموع المختلطة بالكلمات تتماسك وتتجمع معا فى تمتمة رقيقة كحفيف الأوراق الناعمة الغضـــة اذا مستها نسمة رخاء .

(اذن فها نحن مرة أخـــرى يا يوروخا . هـكذا أرادنا الله الهى ! انى أبكى وأبكى ! تصور !.. أنت ذاهب وهذه هى نهايتى . مصيبة كبرى لا مفر منها . فهمنا سر الحياة ، وسر الموت ، وجمـال العبقرية ، وجمال الحب ، نعم هذا فهمناه . أما تلك التوافه عن اعادة تنظيم الحياة فقد رفضناها شاكرين .

(أتذكر كيف ودع أحدنا الآخر فى ذلك اليوم الذى تكدس فيه الجليد ؟ أى حيلة خدعتنى بها ! أكان يمكن أن أرحل بدونك ؟

أوه . أعلم أنك حملت نفسك على الرغم منها على فعل تلك الحيلة معتقدا أن ذلك خير لى . ولكن حياتى كلها اضطربت بعد ذلك . كم قاسيت ! يا الهى ! أى محن بلوت . ولكنك لا تعرف بالطبع من ذلك شيئا ، أى يورى ما الذى فعلته أنا ؟ ما الذى فعلت ؟ أنت لا تعرف مدى الاثم الذى أتيته !

(ولكن ذلك لم يكن خطأى . فقد مرضت ثلاثة شهور بالمستشفى ، وقضيت شهرا فاقدة الوعى . ومنذ ذلك الوقت يا يورا ، لم تعد للحياة قيمة . فقلبى لا يعرف الطمأنينة ولا يمكننى أن أعيش حياة البؤس والشقاء . وحتى هذه اللحظة لم أصارحك بأخطر شىء فأنا لا أستطيع ذلك ولا أقوى عليه . واذ أتذكر ما حدث يخرس لسانى ويقف شعر رأسى . انه أمر فظيع للغاية . ولتعلم انى لم أسترد قواى العقلية تماما . ولكنى لم أستسلم للشراب كما يفعل كثيرون جدا من الناس . امتنعت عن ذلك لأن المرأة اذ تعتاد السكر فانها تكون قد انتهت حقا .. أليس هذا معقولا ؟ أليس كذلك ؟)

وراحت تتكلم وتبكى وتعذب نفسها وفجأة نظرت فرأت لدهشتها الغرفة وقد امتلأت بالناس . فهبطت عن المقعد الصغير الذى كانت تقف عليه ، وابتعدت عن التابوت وراحت تضع يدها على عينيها كما لو كانت تريد أن تمنع دموعها التى لا تزال تنهمر . ان بكاءها لم ينته .

وجاء ستة رجال حملوا التابوت وساروا به .

- ١٢ -

وبقيت لارا بضع أيام فى شارع كامرجر . وبدأ فحص أوراق يورى بمساعدتها ولكنه انتهى بدونها . وقد تكلمت مع ايفجريف وأفضت اليه بحديث خطير .

وذات يوم خرجت لارا ولم تعد . لا بد انه ألقى القبض عليها فى الطريق ، كما كان يحدث فى تلك الايام ، ربما ماتت أو اختفت فى مكان ما ، منسية مجهولة الاسم معروفة برقم من الأرقام فى قائمة ظالمة ، ربما كان ذلك فى أحد معسكرات التعذيب التى تجمع بين الرجال والنساء أو لعله حدث فى أحد تلك السجون المخصصة للنساء التى انتشرت فى المناطق الشمالية .

الفصل السادس عشر

ختـــام

كان كل من جوردون الذى رقى حديثا الى رتبة ملازم والجنرال دودرف عائدين الى وحدتهما . وذلك بعد أن أتم الأول عملا كان قد كلف به ، وأما الثانى فقد كان عائدا بعد أن أمضى عطلته . كان ذلك فى صيف ١٩٤٣ .

تقابلا فى طريق العودة وأمضيا ليلة فى (شرنى) وهى مدينـــة صـغيرة لم تدمر تدميرا تاما على الرغم من أن معظم منازلهـا صارت أنقاضا . مثلها فى ذلك مثل ما أصاب سائر المناطق المـأهولة بالسكان فى الصحراء ، حينما أجلى عنها الغازى المندحر .

وخلال أكداس الأحجار المحطمة وبقايا الدور وجـــدا مخزنا للغلال لم يدركه الدمار ، فأمضيا فيه ليلتهما . وأغفى دودرف بعـــد سهرة طويلة فى الســـاعة الثالثة صباحا أى قبيل مطلع الفجر بفترة قصـيرة . غير أن جورد أقلقه بثرثرته . وكان هذا الأخـير يسبح ويتقلب على التبن كما لو كان يستحم فى الماء ، ثم حزم بعض الملابس وانحدر من أعلى التبن المكدس تجاه الباب .

– الى أين ؟ ما زال الوقت مبكرا .

– انى ذاهب الى النهر . أريد أن أغسل ملابسى .

– هذا جنون . سنلحق بالفرقة اليوم حيث يمكن لتانيا – الفتـــاة المكلفة بنظافة الثياب – أن تستبدلها لك بملابس نظيفة . فلم العجلة ؟

– لا يمكننى الانتظار . فالملابس قذرة حقيرة . سأغسلها وهى لا تلبث ان تجف فى مثل هذا الجو الحار . يجب أن أستحم وأستبدل ملابسى .

– يبدو هذا غير مناسب على الاطلاق ، فأنت ضابط قبل شىء .

– الوقت مبكر ولن يرانى أحد فالكل ينام . سأجد شيئا أتوارى خلفه عن الأنظار . أسكت ونم والا فلن يغمض لك جفن .

– لن أنام مرة أخرى ما دام الأمر كذلك ، سوف أصحبك .

وسارا فى طريقهمـــا الى النهر بين أطلال المبانى المهـــدمة التى سرى اليها الدفء على الرغم من أنه لم يمض وقت طويل على شروق الشمس . ووجدا الناس قد استلقوا على الأرض فى تلك الأماكن التى كانت طـــرقات من قبـــل ، وقـــد ألقت عليهم الشـــمس أشعتها فنضحت أجسام النوام الذين ارتفع غطيطهم بالعرق ، واندفعت الحمرة الى وجوههم . كانوا من أبناء المدينـــة الذين خربت الحرب مساكنهم . وكان منهم كبار السن والنساء والأطفال وبعض رجال الجيش ممن لم يهتدوا الى الوحدات العسكرية التى ينتمون اليهـــا وما برحوا يلتمسون وسيلة اللحاق بها . واجتـــاز جوردن ودودرف النائمين حذرين خشية أن يقلقا راحتهم .

– اخفض صوتك والا تيقظت المدينة كلها واذ ذاك قل على استحمامى السلام .

وهكذا استأنفا حديث الليلة الماضية فى همس .

- ٢ -

– وما اسم هذا النهر ؟

– لا أعرف . ربما كان نهر زوشا ؟

– لا . ليس هو

– اذا فأنا لا أعرف ماذا يكون

– تعلم ان ما حدث لكريستينا انما وقع على ضفاف نهر زوشا .

– نعم . لكن لا بد أن ذلك حدث قريبـــا من مصبه . ويقال ان الكنيسة اعتبرتها قديسة . ألم تعلم تفاصيل أكثر من تلك التى نشرت فى الصحف ؟

– ليس لدى تفاصيل بالمعنى الصحيح ويقال ان هناك مبنى عتيقا من الحجر يسمى (الحظائر) – اذ كان حظيرة للخيول من قبل – وان هذا المكان سيصبح جزءا من التاريخ الذى سيصفه بأنه موغل فى القـدم تحيطه أسوار غاية فى الضخامة . وكان الألمان قد حصنوه تحصينا لا سبيل الى النفاذ منه . ونظرا لموقع البناء على قمة تل فانهم جعـلوا المنطقة بأسرها تحت رحمة مدافعهم وحالوا بيننا وبين التقدم . وكان من الواجب ان يدمر ذلك الحصن المنيع . وهذا ما فعلتـه كريستينا بمعجزة خارقة من الشجاعة فأدت عملا لا نظير له ، فقد تقدمت الى خطوط الألمان ونسفت الحصن واقتادوها حية ثم شنقت .

– لم يسمونها كريستينا اورلستوفا ولا ينسبونها اليك يا دودرف ؟

– تعلم اننا كنا خطيبين لا غير . فقـد اتفقنا فى صيف عام ١٩٤١

على الزواج بعـــد انتهاء الحرب . وانتقلت أنا بعـــد ذلك من مكان الى مكان كما فعلت سائر الفرق المحاربة . وتغير موقع فرقتى مرات لا حصر لها ولا عد فلم أستطع الاتصال بها ولم يقع بصرى عليها بعد ذلك أبدا . وسمعت أخبار بسالتها وبطولتها من الصحف ومن النشرات التى يصدرها الجيش . ويقال انهم سوف يقيمون نصبا تخليدا لبطولتها قريبا من هذا المكان . كما علمت أن الجنرال زيفاجو شقيق يورى يقوم بجولة فى المنطقة ليلم بتفاصيل حياتها .

– معذرة لأنى حملتك على طرق هذا الموضـــوع الذى يثير أشجانك .

– لا . ليس الأمر كذلك . ولكنى لا أريد أن أحـــول بينك وبين الاستحمام . هيا اخلع ملابسك واهبط الى الماء وافعل ما يحلو لك . أما أنا فسأستلقى على الشاطىء وأمضغ بعض أقراص الحشـــائش وأسبح فى أفكارى ، وقد أغفى بعض الوقت .

ثم انطلقا بعد لحظات يتحدثان مرة أخرى .

– وأين تعلمت أن تغسل الملابس بمثل هذه المهارة ؟

– الحاجة أم الاختراع . كان من سوء الحظ أننا أرسلنا الى أسوأ معسكرات التعذيب التى يقضى على أغلب من يدخلها . ما كدنا نصل حتى تركنا القطار فلاحت أمامنا صحراء يكسوها الجليد وبدت على البعد غابة . وحولنا الحراس والغدارات وفوهات المدافع المصوبة الينا والكلاب الضخمة . وجىء فى نفس الوقت بأسرى غيرنا وانتشرنا فى الأرض الممتدة ووجوهنا الى الفضـاء حتى لا يرى أحدنا الآخر .

وأمرنا بأن نجثو على أقدامنا وأن نستمر فى النظر الى الفضاء ونحن تعانى آلاما لا تحتمل ثم نادوا أسماء الحاضرين مشـــفوعة بأهانات لا حصر لها . وبقينا ساعات وساعات راكعين على هذا النحو . فلمـا أمرنا بالوقوف اتجهت الجماعات الأخرى وجهات مختلفة أما نحن فقد لبثنا حيث كنا . ثم قالوا لنا – (هذا هو معسكركم) – ونظرنا الى هذا الذى اليه أشاروا فاذا نحن أمام أرض خلاء . يكسوها الجليـد يتوسطها عامود ولا فتة كتب عليها (جولاج ٩٢ ى.ن – ٩٠) وهـذا أخطر المعسكرات التى من هذا القبيل . ولم يكن فيه غير ما ذكرت لك .

(غير أن سوء الحظ لم يستمر والتعاسة لم تصل الى غايتها . فقد تغيرت السلطة هناك من تلقاء نفسها . وحوكمت بمقتضى مواد أخـــرى من القانون ولما أطلق سراحى استعدت حقوقى المدنية وسمح لى باستئناف التدريس . وجندت تجنيدا طبيعيا . ولم التحق فى الحرب بفـــرق الانتحار كما هو شأنك .

– حسنا . أنى وجدت كل شىء كما وصفت . العمود واللافتـــة التى تحمل اسم المعسكر . وفى أول الأمر كنا نقطع الشجيرات من الغابة بأيدينا دون استخدام أى آلة . وذلك للحصول على أخشـاب لبناء أكواخنا . وسواء صدقت أو لم تصدق فاننا أقمنا بأيدينا معسكرا لنا . وأعددنا سجننا وأحطناه بسياج من قوائم خشبية مدببة ، وأقمنا غرف الحبس ، وأبراج المراقبة ، كل هذا فعلناه بأيدينا . وعملنا فى قطع الأخشـــاب بعد ذلك . كنا نغوص فى الجليـــد ولا تظهر غير رؤوسنا . ولم نعلم بقيام الحرب فقد أخفوا ذلك عنا . ثم فجأة عرضوا

علينا ان نتطوع فى فرقة الانتحـــار فاذا خرجنا منها أحيـــاء أطلق سراحنا . وقاسينا من الهجمة تلو الهجمة وسرنا بين الأسلاك الشائكة التى امتدت أميالا وأميالا ، وبين الألغام وقذائف المدافع التى واصلت المدفعية رميها شهورا طوالا . وأطلقوا علينا فرقة الموت وقد فنيت عن آخرها ولا أدرى لم نجوت انا ؟ ومع ذلك فلك ان تتصور أن هذا الجحيم لا يقاس بما لقينـاه فى معسكرات التعـذيب . ولم يكن ذلك راجعا الى سوء الأحوال المادية بل لأسباب أخرى .

– نعم صادفتك متاعب كثيرة .

– لم أكتسب خبرة فى غسل الملابس فحسب بل تدربت على كل شىء .

– لقد كان ذلك الوقت الذى قضيته فى الحرب رائعا للغاية لا لأنه أنقذنى من السجن فحسب بل هو رائع اذا قورن بحياتى خلال العقد الرابع من هـذا القرن لما كنت فى الجامعـــة بين الكتب والمال موفور والراحة مكفولة ، نعم لقد كانت الحرب نسمة هواء وريحـا تكتسح الأكدار وتبشر بالخلاص .

(لقد باءت تلك (الجماعة) خطأ وفشـــلا ولم يكن من الممكن الاعتراف بذلك فاستخدمت وسائل التهويل لحمل النـــاس على ان ينسوا كيف يفكرون وكيف يحكمون بأنفسهم فاضطروا اضطرارا الى رؤية ما هو غير موجود وانكار ما يرونه بأبصارهم .

(ولما اندلعت الحرب كانت أهوالها وأخطارها وتهديدها للحياة نعمة

اذا قورنت بالأكاذيب التى تلفقها قدرة وحشية جبارة ، ونعمنا بالحرب لأنها كشفت الغطاء عن الخبىء .

– لم يكن هذا هو شعور أولئك الذين اعتقلوا معك فى معسكرات الاعتقال فحسب بل كان ذلك هو شعور الجميع بلا استثناء سواء منهم الذين عاشوا داخل البلاد أو هؤلاء الذين سعوا الى جبهة القتال. فالجميع قد تنسموا الهواء وألقوا بأنفسهم فى أتون هذا القتال المهلك الذى التمسوا فيه خلاصهم . وغمرتهم الفرحة بل النشوة بما يفعلون.

(لقد أطلق سراحى فى الوقت الذى كنت تساق فيه أنت أيها المسكين الى العذاب ، وبعد ذلك مباشرة التحقت كريستينا بالجامعة لتدريس التاريخ . وكنت أستاذها . وعرفتها قبل ذلك بوقت طويل طفلة ممتازة نابهة وذلك حين أطلق سراحى فى المرة السابقة. ولعلك تذكر أننى صارحتك بذلك أنت ويورى – حسنا انها صارت تلميذة لى بعد ذلك .

(وسادت نزعة نقد الطلبة لأساتذتهم فى ذلك الوقت وكانت كريستينا تلميذة عنيفة فى هجومها . فعجبت لذلك ورحت أتساءل عما دفعها لتقسو تلك القسوة فى نقدها . كانت بالغة العداء والتجنى حتى أن الطلبة الآخرين احتجوا وناصرونى عليها . وكانت لها قدرة قادرة على السخرية وسرها ان تمارس مقدرتها تلك على شخصى وذلك فيما تكتبه بمجلة الحائط التى أطلقت على فيها وصفا اخترعته ، ومع انها لم تصرح باسمى غير أنه من الواضح انها تعنينى أنا بذلك الاسم .

(وعلى حين غرة ، وعن طريق المصادفة البحتة تبينت ان تلك الكراهية البالغة لم تكن الا ستارا أخفت وراءه ما تضمره لى من الحب الجارف الذى لا يتحول ، والذى كانت تشعر به منذ فترة طويلة دون أن أعرف .

(سعدنا معا خلال أشهر الصيف من عام واحد وأربعين أى قبل اعلان الحرب وبعد اعلانها مباشرة . والتحقت كريستينا بمعسكر فى ضواحى العاصمة جمع بين الفتيان والفتيات وهناك أيضا استقرت الفرقة التى انتمى اليها . فنمت بيننا الصداقة وترعرعت على الرغم من جو الحرب الذى أحاط بنا ، وهناك كانت تؤلف الفرق الخاصة بالحرس الداخلى ، فدربت كريستينا لتلتحق بفرقة الهابطين بالمظلات وأول ما هبط الألمان هبطوا بالمظلات على العاصمة ثم انسحبوا . وصرنا خطيبين فى ذلك الوقت كما سبق أن ذكرت، غير اننا سرعان ما افترقنا نظرا لانتقال فرقتى الى مكان آخر . ولم أرها بعد ذلك على الاطلاق .

(ولما تحسنت الأمور حين كان آلاف من الجنود الألمان يستسلمون ، نقلت بعد أن جرحت مرتين ، فتركت الفرقة المضادة للطائرات الى فريق المجندين السابع حيث كانت هناك حاجة لمن يلمون باللغات . وبهذه الطريقة أمكننى ان أعمل على تجنيدك بعد أن عثرت عليك فى قاع البحر .

(كانت تانيا الفتاة المكلفة بتنظيف الملابس صديقة لكريستينا . فقد تعارفا فى جبهة القتال . وكثيرا ما تتحدث هذه عن كريستينا . ألم تلحظ كيف تبتسم تانيا وكيف تشيع ابتسامتها لترتسم على وجهها

كله ؟ أنها لا تشـــبه يورى فى ذلك ؟ هل نسيت الأنف الأفطس والعظام البارزة فى الوجنتين ؟ تلك التى تشعرك بأنها فاتنة جذابة . انها نموذج للوجه الروسى الذى كان لصاحبنا يورى والذى تجده هنا فى كل مكان .

– أدرك ما تعنيه . ولكنى لم ألحظ ذلك !

– (تانيا المسرحة) أى اسم مستعار غامض تتجلى فيه القسوة ؟ ليس من المعقول انه اسم عائلتها . ولا أدرى كيف تعيش ولها مثل هذا الاسم ؟

– تنكر انها صارحتنا بأنها مجهولة الوالدين ، وهى مسرحة بمعنى ألا أب لها . أكبر الظن انه أطلق عليها هذا الاسم فى أعماق الريف حيث نشأت وحيث ظلت اللغة على فطرتها الخالصة . فلما عاشت بعد ذلك فى المدينة حيث يبدو هذا اللقب غامضا مبهما حرف الاسم ليدل على المعنى بطريقة سائغة لدى سكان المدن .

- ٣ -

وبعد مرور فترة وجيزة على ذلك الحديث بين جوردن ودودرف تجدهما فى مدينة كاراتشف التى كانت الحرب قد دكتها دكا . كانا يقتفيان أثر فرقتهما وعثرا على بعض أفرادها ممن كانوا يحاولون بدورهم الاتصال بالفرقة الرئيسية .

وبعد انقضاء شهر ساده جو لطيف هادىء جاء الصيف بقيظـــه

اللافح . والتربة السوداء المباركة الخصب ، فى المنطقة الواقعة بين مدينتى أورل وبريانسك والتى يطلقون عليها (بريانسك الصينية) ، لفحتها الشمس التى لم يعد يحجبها ظل من سحاب ، فلاحت تلك التربة محترقة بنية اللون كالقهوة الممزوجة بالكاكاو .

وكان الشارع الرئيسى يقطع المدينة قطعا مستقيما ليتصل بالطريق الزراعى الرئيسى . وعلى أحد جانبى الشارع ترى أنقاض البيوت التى نسفت فباتت أكداسا من نفايات البناء تحيط بها أشجار الزينـــة التى اقتلعت جذورها وتحطمت واحترقت حتى باتت فى لون الفحم . وفى الناحية الأخرى امتدت رقعة خالية لم تمسسها نار ولم يمتد اليها التخريب فبقيت كما كانت لأن اللهب والدمار لم يجدا فيها مجـالا للتدمير .

وراح فريق من هؤلاء المشردين الذين سقطت بيوتهم يحضرون خلال الأنقاض ويخرجون فضلات يكدسونها فى ناحية . بينما همت جماعة أخرى بحفر الخنـــادق ليتخذوا منها مأوى بعد عرشـــها بأغصان الشجر .

وازدحم الفضاء بالخيـــام وسيارات النقل والعربات التى تجرها الخيول ، وهذه كلها تتبع الهيئات المختلفة التى تقوم بأعمال المساعدة . فبعض العربات معدة لوحدات مستشفى الميدان ولكنها ضلت السبيل الى فرقتها . وبعضها الآخر يتبع هيئات أخرى متنوعة ولكنها اختلطت بغيرها . وهنا أيضا تجد فتية من فرق التعزيز ، يبدو عليهم الضعف والهزال ، وعلى رؤوسهم قبعـات رمادية من القش ، وعلى ظهورهم

سترات طويلة نافرة الذيول ، ووجوههم مغبرة كابية صفراء لاصابتهم بالدوسنتريا ، وقد ألقوا بأحمالهم الى الأرض ليتذودوا بشيء من النوم وبفضل من طعام قبل مواصلة سيرهم الحثيث صوب الغرب .

وكانت المدينة المدمرة التى تمزقت احشاؤها لا تزال تحترق ، وما زالت تنفجر فيها الألغام وتنصب عليها فيسمع لانفجارها دوى رهيب، وتجد بين الحين والحين هؤلاء الذين يواصلون حفرهم يحسون بأن الأرض تهتز تحت أقدامهم فيكفون عن الحفر حينا ، وتنتصب قاماتهم مستندة الى معاولهم لينظروا ويحملقوا فى اتجاه الدوى .

وهناك يرون سحبا داخنة رمادية سوداء وحمراء فى لون الآجر، وشعله ثم نتفا حمراء وردية فى السماء ، تنفجر وتفـــور فى بادىء الأمر ثم تتهادى فى فقاقيع متثاقلة لا تلبث أن تتفكك وتنتشر كأنهـا الريش ، وتتفرق هابطة الى الأرض فى آخر الأمر . واذ ذاك يعود الحفارون الى حفرهم .

وفى تلك المنطقة من الأرض الخلاء المقابلة للأطلال يمتد حقـل حوله سياج من نبات وتكتسحه أشجار ضخمة باسقة ، فيبدو ذلك المكان وقد ظللته الأشجار وضمته هى والسياج – كما لو كان قد انفصل عن العالم بأسره ، ويلوح فى عزلته تلك ، عليل النسيم ظليلا مكسو الأديم .

وراء ذلك السياج وقفت تانيا الفتاة المكلفة بغسل الثياب مع بعض أعضاء الفرقة التى تنتمى اليها ومنهم دودرف وجـــوردن وكثيرون

غيرهم ممن كانوا ينتظرون قدوم سيارة النقل التى ستقل تانيا والثياب المستبدلة المعدة فى الأقفاص المكدسة فى الناحية الأخرى من ذلك الفناء الفسيح . وأخذت الفتاة ترقب الملابس عن بعد دون أن تتقدم ، وانتظر الآخرون غير بعيد حتى لا تفوتهم السيارة .

بقوا ينتظرون حيث هم ثلاث ساعات دون أن يجدوا ما يشغل وقتهم فأخذ الرجلان يستمعان بشغف الى ما تقصه تلك الفتـــاة عن الأحداث التى صادفتها فى حياتها ، وفى تلك اللحظة كانت تصف لهما كيف التقت بالقائد الكبير زيفاجو .

(قابلته حقا . كان ذلك بالأمس . فقد أخذونى أنا الى الجـنرال العظيم زيفاجو نفسه الذى كان يمر بهذه الناحية ليسأل عن كريستينا مستفسرا عن حياتها . ورغب فى مقابلة شاهد عيان يعرفها حق المعرفة فذكروا له أننا كنا صديقتين فأمر باحضارى اليه . لم يكن رهيبا بالمرة وليس فيه ما يميزه عن ســائر الناس فعيناه ضيقتان وشـعره أسود . ذكرت له ما أعرفه ، فأنصت لما أقول ثم شكرنى وقال (ومن أنت ومن أين أتيت ؟) . لم يكن هينا بطبيعة الحال أن أجيبه عن ذلك فليس فيه ما أفخر به . فأنا مجهولة الأبوين ، فضلا عن ان أمثالى ينتقلون دائما بين الاصلاحيات كما هو معروف . فنحن لا نستقر فى مكان . غير انه لم يتركنى لشأنى فقال (صارحينا بحقيقة أمرك ولا تخجلى فليس هناك ما يدعو الى الخجل) . لم أتفوه فى أول الأمر بغير كلمة أو كلمتين فقد عقد الحياء لسانى ، ثم حلت عقدته بعض الشىء وظل هو يشجعنى على الاستمرار فى الحديث بهز رأسه مما زادنى ذلك جرأة فى تصريحاتى .. حقا ان عندى الكثير الذى يمكننى أن أحـــدث

فيه . نعم عندى الكثير مما لا تتصوران حدوثه ولعلكما تحسبانه من نبات أفكارى . وهذا هو ما ظنه الجنرال . فما أنهيت حـــديثى حتى نهض يقطع الكوخ جيئة وذهابا وقال : يا الهى ان حديثك لغريب . وأصارحك بأن وقتى لا يتسع له الآن . سأجـدك وأبعث فى طلبك مرة أخرى . لم أقدر اننى سأسمع ما سمعت ! لن أتركك هنا . كل ما هناك انه يجب أن أبحث بعض التفاصيل وبعـــد ذلك فمن يدرى ربما تحققت من أنك بنت أخى واذ ذاك ترتقين الى عمل لائق ببنت أخ الجنرال ، وسألحقك بأى جامعة تختارين لاتمام دراستك .

(أقسم بالله انه حدثنى بذلك . وكم كان شخصه باعثا على الضحك والسخرية) .

وفى هذه اللحظة جاءت عربة فارغة مرفوعة الأطراف ، من طراز تلك العربات التى تخصص لنقل الدريس فى مناطق بولنـده وغرب روسيا . وقد ربط اليها جوادان يقودهما جندى من قوات المواصلات ، كان من الممكن أن يطلق عليه فيما مضى من الزمان سائس الخيل .

جذب الرجل اللجام وقفز من فوق مقعده وراح يفك القيد عن الجوادين . واجتمع الكل حوله ما عدا تانيا وواحد أو اثنين من الجند ، وأخذ المحيطون به يتوسلون اليه أن يصحبهم حيث يريدون ، قائلين أن ما يسديه من معروف لن يضيع هباء . غير أن الحوذى رفض ذلك قائلا انه ليس من حقه اســـتخدام العربة أو الحصانين الا فى أداء ما يؤمر به . وقاد الخيل بعيدا ولم يره أحد بعد ذلك .

أما تانيا والجنديان فقد نهضوا من جلستهم على الأرض وما لبثوا أن قفزوا الى العربة الخاوية التى تركت فى ذلك الميدان . واستأنفوا الحديث الذى كان قد قطعه وصول العربة وما أثاره المجتمعون حول سائقها من جدال .

وقال جوردن – وما الذى قلته للجنرال ؟ أفض الينا به اذا كان ذلك فى الامكان .

وهكذا راحت تقص عليهم قصتها الرهيبة .

– ٤ –

(نعم صحيح ان لدى الكثير الذى أستطيع أن أحدث فيه . يقولون أننى أنحدر عن أصل عريق ، ولا أدرى ان كنت قد سمعت بذلك من الغرباء أو ان قلبى حدثنى به . وعلى كل حال فقـــد ترامى الى سمعى أن أمى (رايساكوماروفا) كانت زوجة وزير روسى سابق ، هو الرفيق كوماروف الذى اختفى فى اقليم منغوليا البيضاء . ويبدو لى أن ذلك المدعو كوماروف ليس هو والدى . بالطبع أنا لست بالفتاة المتعلمة، فقد نشأت يتيمة الأبوين . وقد يكون فيما أذكره لكما ما يبعث على الضحك ولكنى أفضى بما أعرف ولكما أن تضعا نفسيكما موضعى

(حدث هذا فى اقليم كروشتسى ، وهو النهاية القصوى لسيبريا فيما يلى منطقة القوقاز قريبا من الحدود الصينية . ولما اقترب جيشنا ، أعنى الجيش الأحمر ، الى عاصمة الحكومة البيضاء هناك ، أعـــد نفس ذلك الوزير المدعو كوماروف قطارا خاصا وضع أمى وحاشية البيت فيه وأمر بابعادهم . وكانت أمى مذعورة ، وما كانت لتجرؤ على ان تخطو خطوة بدونه .

(أما عن شخصى أنا فانه لم يكن يعـــلم بأمرى ، نعم انه لم يدر بوجودى على الاطلاق فقد ولدتنى أمى خلال فترة كانت قد هجرته فيها هجرا طويل الأمد ، وكانت ترتجف رعبا خشية ان يهمس له شخص فيكشف سر وجودى ، ذلك لأنه كان يمقت الأطفال ويصيح ويضرب الأرض بقدميه اذا وقع بصره على واحد منهم . واعتـــاد أن يجأر مرددا انهم لا يجلبون غير القاذورات والمتاعب فى البيت .

(والآن وقد بدأ وصول الجيش الأحمر الى تلك المدينة ، كما ذكرت لكما ، فان أمى أرسلت رسالة الى محطة (ناجورونايا) وطلبت عاملة اشارات الخط الحديدى فيها . وكانت تفصلها عن المدينة ثلاث محطات أولها هى (نيزوفايا) وهى فى أســـفل الوادى . أما محطة ناجورونايا فهى على قمة التل ، وبعدها يوجد (ممر شمشون) . وأظن أننى أدرك الآن كيف عرفت أمى عاملة الاشارات تلك . يخيل الى ان مارفا كانت تقصد المدينة لتبيع فيها اللبن والخضر . نعم لا بد ان التعارف بدأ على هذا النحو .

(أظن انه حـــدث ما لا أعرف . ولا بد أنهم خدعوا أمى ولم يصارحوها بما يريدون . والله وحده يعلم أى قصة اختلقوها ، ويلوح انهم ذكروا لها أن الأمر لن يستغرق يوما أو يومين حتى يهدأ ذلك الاضطراب وتعـود الأمور الى مجراها . لا بد انهم لم يصـارحوها بأنهم سيعهدون بى الى قوم غرباء وأننى سأبقى مع هؤلاء مدى حياتى لأنشأ فى كنفهم . فما كانت أمى لتسلم ابنتها التى حملتها فى احشائها طائعة مختارة الى مثل هذا المصير .

(تعلمان ما يفعلونه بطفلة مثلى . قالوا - اذهبى وحدثى عمتك . انها عمة لطيفة . لا تخافيها فهى ستعطيك الحلوى .

(أما كم بكيت حتى قرح جفناى ، وكيف ســـحق البؤس قلبى وأنا لم أزل طفلة ، فذلك ما لن أعيد ذكره . ففى تلك السن أردت أن أشنق نفسى وكدت أجن . على هذا النحو عشت تلك الحقبة من عمرى . وأعتقد أن العمة مارفا كانت تتقاضى أجرا على تربيتى ، وأن ذلك الأجر كان باهظا .

(كان لها حقل خصب الى جانب عامود الاشارات . ولها بقـرة وحصان ومجموعة كبيرة منوعة من الدجاج ورقعة فسيحة من الأرض لزراعة الخضر . ولها ان توسع المساحة المنزرعة كما تشاء دون أجر ، وكان للحكومة جوسق للخط الحديدى .

(وكان يصعب على القطارات القادمة من بلدتى ان ترتقى التل ، بينما القطارات القادمة من داخل روسيا تجرى على القضبان بسرعة مندفعة حتى انهم يستخدمون الضوابط التى تخفف تلك السرعة فى هبوطها .

(وبعيدا فى أسفل التل ، حينما يمحو الخريف كثافة الغابة تلوح محطة نيزوفانا كأنها تمتد فى صفحة من صحاف الطعام .

(واذا تحدثت الى عمى فاسيا زوج عمتى مارفا كنت أناديه يا أبى كما يفعل أبناء الفلاحين . وهو رجل رحيم مرح جدير بالثقة وخاصة اذا سكر . وعرف الجميع من أمره كل شىء فهو ينفض أسراره أمام كل من يلقاه .

(أما عاملة الاشارات فلم يحدث قط أن ناديتها بأمى . ولا أدرى

اذا كان سبب ذلك هو أننى لم أستطع ان أنسى أمى الحقيقيـــة أو لسبب آخر ، ولكنها كانت امرأة رهيبة .. رهيبة حقا . وهكذا أطلقت عليها (عمتى مارفا) .

(حسنا . مرت أيام وأعوام لا أعرف لها عددا . وبدأت أجـرى الى القطارات وألوح لها بالاشارات . واستطعت أن أقود البقرة وأفك قيد الحصان ودربتنى عمتى مارفا على الغزل وعلى أعمال المنزل وكان من الطبيعى أن أقوم بهذا كله . وأما الكنس والتنظيف والطهى فكانت لا شىء بالنسبة لى اذ أديتها جميعا . أوه . نعم نسيت أن أذكر لكما اننى كنت أيضا أعنى بولدهما (ببتيا)، الذى كان مصابا بشلل الساقين ولا يقوى على المشى مع انه كان فى الثالثـة من عمره . مرت كل هـذه السنين ولكن بدنى يقشعر حـين أتذكر كيف كانت العمة مارفا تحملق فى ساقى القويتين بنظرة ملؤها الحقد . كما لو كانت تقول ـ ألم يكن من الأفضل أن تصابى أنت بما أصيب به ابنى بيتيا وبقى هو سليما معافى . كأننى أنا الذى حسدته وتسببت فى علته . أيدور بخلدكم أنه يوجد على ظهر الأرض مثل هؤلاء الناس الجهلاء الذين يؤمنون بالحسد ؟

(والآن أنصتا جيدا لمـا أقول . فان ما حدثتكم به حتى السـاعة لا يستحق الذكر اذا قورن بما سوف يثير دهشكم

(كان ذلك فى فترة الاقتصاد الجـديد حين كانت قيمة الألف روبل لا تساوى غير كوبك واحد . وصادف أن باع العم فاسيا بقرة فى نيزوفايا . وعاد حاملا جوالين يفيضان بالمال . وكانوا يطلقون على مثل تلك الكمية من المال ، الليمون ، نظرا لأنها تعد بالملايين . وشرب الرجل وصارح جميع سكان ناجرونايا بمدى ثرائه .

(أذكر ذلك اليوم من أيام الخريف والرياح العاصـفة كادت أن تقتلع السقف وتلقى بالانسان على الأرض . والقطار لا يستطيع أن يمضى مرتقيا التل بفعل العاصفة . وفجأة وقع بصرى على متسـولة عجوز آتية من قمة التل والريح تجتذب ثوبها وتعصف بمنديلها .

(كانت تمشى مولولة وقد أمسكت باحشائها وطلبت الينا ان ندخلها فأجلسـناها على الأريكة . وصرخت قائلة : (أو . لا قدرة لى على احتمال ذلك ، لا أقدر . ان بطنى تشـتعل . سأموت) . وتوسلت قائلة : باسم المسيح أرجوكم ان تحملونى الى المستشفى وسأدفع لكم ما تريدون ، مهما كثر .

(فربط أبى (ادلوى) أعنى الحصان ، الى العربة وحمل اليهـا الريفية العجوز وسار بها الى المستشفى .

(وما كدت أنا والعمة مارفا نتهيأ للنوم بعد ذلك بفترة وجيزة حتى سمعنا صهيل ادلوى فى الخارج وصوت العربة تمضى فى الفناء ، وخيل الينا أن عمى عاد بسرعة غير معقولة ، وعلى الرغم من ذلك فان العمة مارفا أضاءت المكان ، وارتدت سترتها وأزاحت المزلاج دون ان تنتظر طرق والدى .

(فتحت ولم يكن أبى ذلك الرجل الواقف على عتبة بابنا . بل هو رجل غريب رهيب أسمر البشرة . قال : (أين ؟) ثم استرسل : (أين هى النقود التى بيعت بها البقرة . لقد قتلت زوجك العجوز فى الغابة) ثم أردف قائلا : (لكنك امرأة وسأتركك لشأنك اذا ذكرت لى أين النقود . فان لم تصارحينى فانك تعلمين ما الذى سيحدث ولا تلومى الا

نفسك . ويحسن ألا تطيلى انتظارى اذ لا تسع وقتى للوقوف هنا) .

(آه يا الهى هل لكما القدرة على تصور مثل هـذا الموقف وتضعا نفسيكما مكاننا ؟ كنا نرتجف من الرأس الى القدم ولا نقوى على أن تنبس بكلمة - يا لها من أهوال ! قتل الرجل العم فاسيا ، قتله ببلطة ، وها نحن وحدنا معه ، نحن وحدنا فى الدار مع ذلك السفاك . سفاك بدارنا ، هو أمامنا سفاك لا شك فى أمره .

(أظن أن العمة مارتا فقدت عقلها فى تلك اللحظات ، اذ تمزق قلبها حسرة على زوجها دون أن تستطيع التعبير عن أحزانها .

(وأول ما فعلته هو أن جثت عند قدميـــه وقالت : ارحمنى ولا تقتلنى . أنا لا أعرف شيئا ولم أسمع مطلقا عن وجود مال لدينا ، ولا أعلم أى نقود تلك التى تتحدث عنها) ولكنه لم يكن غبيا ليصـدق ما تقول . ويا له من شيطان . فقالت له : (المال فى الصومعة وسأفتح بابها لك) ولكنه أدرك خدعتها فقال : (لا . اهبطى أنت الى الصومعة فأنت تعرفين مكان المال . لا يهمنى ان هبطت الى الصومعة أو ارتقيت السقف فكل ما أريده هو المال . ولكن تذكرى انه لا يجب أن تخدعينى فان ذلك لن يجدى) .

فقالت له : (بالله لا تظن بى الظنـــون . فانه يسرنى ان أنزل لأجيئك بما تريد ولكن قدمى تؤلمنى ولا أقوى على هبـوط درجات السلم . سأقف أنا عند المدخل وأنير لك الطريق . لا تقلق فســوف تذهب ابنتى معك) كانت تعنينى أنا !

(تخيلا أيهـا الرفيقان حالتى اذ طرفت سمعى تلك الكلمات ؟

قدرت ان نهايتى قد دنت واسودت الدنيا أمام عينى ولم تقو ساقاى على حملى . وخلت نفسى أهوى مغشيا على .

(ولكن ذلك الشيطان كان يقظا تماما اذ رمق كل منا وأدار فينا عينيه الثاقبتين ثم رماها بنظرة شزراء كما لو كان يقول (أعرف حيلك ولن تخدعينى . انه فطن الى أننى لا أمت لها بصلة وأننى لست ابنتها التى من دمها ولحمها واختطف ابنها (بتيا) وحمله باحـدى يديه وجذب باب الصومعة المسحور باليد الأخرى . وقال لها : (أنيرى لنا الطريق) نطق بهذا وهو يهبط درجات السلم الى جوف الأرض ومعه بتيا .

(وأحسب أنها جنت ولم تعد قادرة على ادراك شىء ، نعم أصابها الخبل فما كاد يهبط اللص حتى جذبت الباب بشدة وأقفلته بالمفتـاح وأخـذت تجر صندوقا ضخما لتضعه فوقه وهى تصيح وتشـير الى لأخف الى مساعدتها فى سحب ذلك الحمل الثقل . فلما استقر الصـندوق حيث أرادت جلست فوقه . وكانت تلك المرأة المخبولة سعيدة كل السعادة بما دبرت . وما كادت تفعل ذلك حتى أخذ اللص يطرق ويصيح من تحت الأرض . لم يكن من السهل ان يتبين المرء ما يقوله فقد كانت الجدران بالغة السمك وانما يمكن للانسان أن يدرك مغزى كلامه من نبرات صوته . انه يهدد بأنها اذا لم تفتح الباب فانه سوف يقتل بتيـا . وفاق زئيره زئير الوحش المفترس ليبث فى قلوبنا الذعر . ثم صاح : (سيدفع ابنك بيتا ثمن ذلك) لكنها لم تفقه شيئا وأخذت تضحك وتغمز لى بعينيها كانما تقول : (دعيه يصيح كما

يشاء فانني أجلس فوق الصندوق وفى يدى المفتاح) . حاولت كل الحيل وصرخت فى أذنيها قائلة انها يجب أن تفتح الصومعة لتنقذ بتيا ، وأردت أن أنحيها عن الصندوق ولكنى لم أقدر اذ كانت بالغة القوة بالنسبة لى . ولم تصغ لما أقول .

(حسنا ظل يقرع الأرض ويقرعها والوقت يمضى سريعا وهى حيث هى جالسة فى مكانها تدير عينيها فى أرجاء المكان دون ان تهتم بما يجرى .

(وبعد وقت قصير - يا الهى يا الهى كم رأيت وقاسيت فى حياتى ! ولكن هذا الهول لن تقع عيناى على مثله أبدا . سأسمع على الدوام صوت بتيا النحيل الواهن ، بتيا الطفل يصرخ ويئن تحت الأرض ، نعم بتيا الطفل الكامل البراءة . أخذ ذلك الشيطان يقضمه بأسنانه حتى كاد الفتى ان يهلك فى كل مرة .

(والآن ما عساى أن أصنع ، ما عساى أصنع حيال تلك المرأة المخبولة وذلك السفاك والوقت يمضى سريعا ! وما دار ذلك فى خلدى حتى سمعت صهيل (أدلوى) الذى كان واقفا فى الفناء مطهما مستعدا . وخيل الى أن صهيل الحصان ليس الا نداء يقول (هيا نطير يا تانيا لنطلب النجدة من ذوى الهمة) ونظرت من النافذة فوجدت الفجر وشيك الانبلاج فقلت لنفسى (حسنا ، شكرا لك يا ادلوى اذ أوحيت الى بهذه الفكرة . فليكن ما تريد . سنذهب حيث تبغى) وما كدت أفكر فى هذا حتى سمعت صوتا كالنداء من الغابة (انتظرى . لا تتعجلى يا تانيا سنفعل ذلك بطريقة أخرى)

وتحققت مرة أخرى اننى لست وحدى فى أعماق الغابة . فقد تناهى الى سمعى صفير قطار فى الوادى غير بعيد . كأنه ديك يصيح فى فناء دارنا . كنت أعرف تلك القاطرة بصفيرها فهى تقف فى ناجورانايا لتعين القطارات الاخرى على صعود التل ، وكانوا يطلقون عليها المنقذة لهذا السبب . وهكذا جاءت القاطرة تجر القطار القادم لتساعده . وهو يسير كل ليلة فى مثل هذا الموعد ، حسنا ما سمعت الصفير حتى أدركت أنه يناديني من أسفل الوادى ، فأطرقت السمع وقلبى شديد الخفقان . وساءلت نفسى هل اعترانى أنا الأخرى ما اعترى عمتى مارفا من هوس حتى بت أتخيل أن كل وحش وكل آلة جامدة أصبحت تتحدث الى بالغة الروسية ؟

(لم يكن من الخير فى شىء أن أستمر فى تفكيرى على هذا النحو اذ اقترب القطار ، ولم يعد للتفكير مجال . فجذبت المصباح ولم يكن الصبح قد أسفر بعد . وهرولت الى الخط الحديدى ووقفت بين القضبان ولوحت بالضوء الى أعلى والى أسفل .

(ماذا بقى لأقصه عليكما ؟ استطعت ان أوقف القطار الذى كان من حسن الحظ ان الرياح عاقت سرعته فمضى رويدا رويدا كما لو كان يخطو متمهلا . أوقفته ومال السائق ، الذى كان يعرفنى ، مطلا من النافذة وصاح ولكنى لم أسمع كلماته التى ابتلعتها الرياح . وصرخت ذاكرة ان جوسق الاشارات قد هوجم وارتكبت به حوادث قتل وسرقة وقلت له : هل لك أيها الرفيق العم أن تعيننا . وحين كنت أقول ذلك قفز جند الجيش الأحمر واحدا بعد واحد الى الرصيف وسألوا : ماذا جرى ؟ ولم يتصوروا كيف يمكن ان

يقف القطار وهو يرقى التل . فلما سمعوا بما حدث سحبوا اللص من الصـــومعة وكان يستغيث بصوت أوهن من صـــوت بتيا وقال : (أيهـــا الرجال الطيبون لا تقتلونى . لن أفعل ذلك مرة أخرى) وحاكموه واقتادوه الى المساند الخشبية للقضبان وأوثقوا يديه وقدميه الى القضبان نفسها ، وسيروا القطار وهو على هذا الحال .

(لم أعد مطلقا لأخذ ملابسى فقد غشيتنى الرهبة وطلبت اليهم ان يأخذونى فى القطار ، فوضعونى فيه وسرت حيث ساروا . ثم تجولت فى أنحاء البلاد وشاهدت نصفها ثم عشت فترة بين ملاجىء الأيتام . ولا أدرى أين تقع تلك الملاجىء . أنا لا أبالغ فيما أقول . يا للسعادة ويا للحرية التى شعرت بها بعد الأحزان التى بلوتهـا فى طفولتى ! ومع هذا فان الفترة الأخيرة لم تخل من شرور وبؤس . ولـكن ذلك وقع بعد وقت طويل وسـأحدثكم عنه مرة أخـرى . غير انه فى الليلة التى وقع فيها الحادث هبط موظف من القطـــار ليتسلم ممتلكات الحكومة من الجوسق . وأصدر أوامره فى شـــأن العمة مارفا وذلك لاجـــراء ما يراه فى مثل هـذه الأحـــوال . ويقال انها لم تشف قط من علتها وانها ماتت فى مستشفى المجانين ويقول قوم آخرون انها شفيت واستأنفت حياتها العادية) .

وقضى كل من جوردن ودودرف وقتا طويلا فى التجـــول تحت الأشجار صامتين ، وذلك بعد ان استمعا الى ما ساقته تانيا من حديث. وجاءت سيارة النقل التى بدت كئيبة المنظر وهى تستدير نحو ذلك الحقل الذى جمعهم ثم حملت عليها أقفاص الثياب ، وقال جوردن :

- أعرفت من تكون تانيا ؟

- نعم عرفت

فأضاف جوردن بعد فترة سادها الصمت

- سيعنى بها يفجريف . حدث هذا مرات عديدة فى التـاريخ فكم من كائنات ولدت فى الأبراج العاجية وفى عالم المثاليات ثم انحدرت الى المادية الفظة . هكذا خلقت الحضارة الرومانية من الحضـــارة اليونانية ، وهكذا انبعثت الثورة الروسية عن عصر التفكير المستنير . فكر فيما قاله الشـــاعر بلوك (نحن أطفـال السنوات الروســـية الرهيبة) لتدرك الفارق الذى يميز عصرا عن عصر . لما قال الشاعر ذلك فى الوقت الذى عاش فيه كان يعنى التشبيه والتمثيل ، فالأطفال الذين يعنيهم ليسوا بالأطفال حقيقـة وانما هم أولاد الطبقة المثقفـة والسـنوات لم تكن رهيبة وانما كانت تلك صورة شـعرية ملهمة . والآن صار التشبيه حقيقة . فالأطفال ليسوا شيئا آخر غير الأطفال والسنوات رهيبة حقا . وهذا هو الفارق بين المعنى الرمزى الذى عناه الشاعر وبين الحقيقة الواقعة التى ينطبق عليها ذلك المعنى .

- ٥ -

فى أمسية من أمسيات الصيف ، بعد انقضاء خمسـة أو عشرة أعوام ، كان جوردون ودودرف جالسين معا مرة أخرى الى جانب نافذة تطل على المدينة الضخمة التى امتدت أمامهما . وكانا يقلبـــان صفحات كتاب من تأليف يورى جمع فيه يفجريف شتاتا مما كتب أخـوه . كتاب قرآه المرة بعد المرة وكادا أن يحفظا ما فيه .

وأثناء القراءة تبادلا الآراء ليعود كل منهما الى تأملاته مرة أخرى . وعم الظلام فلم يستطيعا مواصلة المطالعة ، وكان عليهما أن يضيئا المكان .

أشرفا على مدينة موسكو التى انتشرت أمامهما على مدى الأفق ، موسكو موطن المؤلف الذى كتب ذلك الكتاب . وهى المدينة التى لعبت نصف الدور فى حياته . فخيل اليهما انها لم تعد مسرحا لما وقع من أحداث فحسب ولكنها بطلة قصة طويلة تناولت الآن الكتاب بيديها لتنهى دورها فى القصة الحافلة .

ومع عدم وجود التحرر والنور الذين كان من المنتظر ان يسودا بعد الحرب فان نسيم الحرية يتنفس فى جو تلك السنوات .

ولاح للشيخين الجالسين الى النافذة أن حرية الفكر موجودة وراحا يلمسان المستقبل خلال الشوارع التى يطلان عليها . وخيل اليهما انهما دخلا فى رحاب ذلك المستقبل منذ تلك اللحظة ليكونا جزءا منه .

وترقرق فى نفس الشيخين فرح هادىء من أجل تلك المدينة المقدسة والدنيا قاطبة ، من أجل هؤلاء الذين لا زالوا أحياء من أبطال هذه القصة، وأبناء هؤلاء الأبطال . وعزفت السعادة بموسيقاها الصامتة فملأت قلبيهما وأحاطت بهما ثم راحت تنتشر بعيدا فى كل مكان . ويبدو أن الكتاب الذى كان بين أيديهما قد لمس ذلك الشعور الذى سرى بين الجوانح فأخذ يسانده ويقويه .

تم تحميل الكتاب من المكتبة العربية
www.TipsClub.com
تم سحب الكتاب من قبل الأخ :
محمد جلال